

دكتور على الخطيب



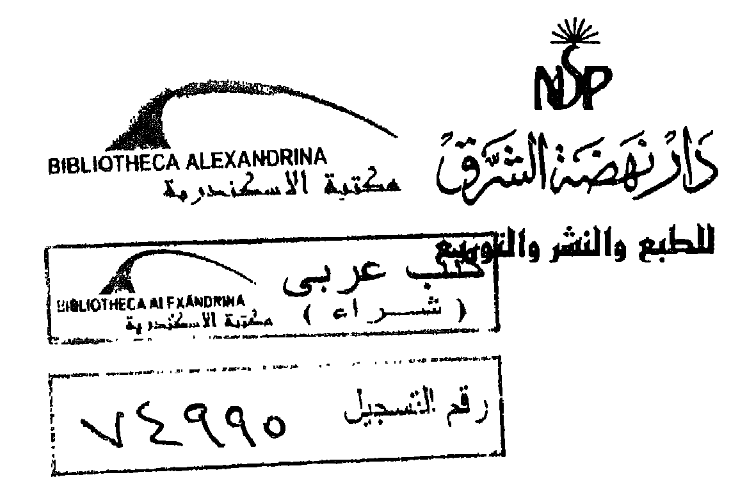
فى رياض الأدب الصوفى

دكتور

على أحمد عبد الهادى الخطيب

أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد

كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر



الكتـــــــاب : فى رياض الأدب الصوفى

المـــؤلــــف : دكتورعلى أحمد عبد الهادى الخطيب

رقم الطبعـــة : الطبعة الأولى

تاريخ الإصدار : يناير – ٢٠٠١ م

النــــاشـــــر : دار نهضة الشرق .

الإدارةوالتوزيع: ٣٢ شارع طلعت حرب (سليمان باشا سابقا) تقاطع طلعـــت

حرب مع عبد الخـــالق ثروت - الدور الثـــانى شـــقة (٨)

ت : ٠١٢٢٢٥٩٧٨٨ / ٠١٢٢٤٦٢٤١٩

المكتبـــــــــة : جامعة القاهرة - بجوار كلية دار العلوم .

العنوان البريدى : مكتب بريد جامعة القاهرة بالجيزة .

رقم الإيـــداع : ٢٠٠٠/٢٨٥٤

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-245-127-1

إهـــــــداء

إلى روح والدى كِفاءَ ما قدّما لِـــى ،
وجزاء ما أحسنا .
ثـــم إلـــى عشـــاق الأدب الصوفـــى
والمتعطشين إلى الوصل والكشـــــف
والمشاهدة .



مقدمة

الحمد لله الذى أحرق قلوب أوليائه بنار محبته، واستوفى هممهم وأرواحهم بالشوق إلى لقائه ومشاهدته. وصلى الله وسلم على الزاهد الأول سيد الأولين والآخرين إمامنا وقدوتنا، ورائدنا وعظيمنا وزعيمنا سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد ،،

فإن هذا الكتاب دراسة متواضعة للأدب الصوفى، ومذاهبه وألوانه مع الترجمة لبعض أعلام المتصوفة، والدراسة والتحليل لبعض النصوص الأدبية، وقد حوى هذا الكتاب موازنات بين التصوف والعلم، والتصوف والفلسفة والتصوف والزهد، والتصوف والفقه، والصوفية والتصوف، ودرجات السلوك، وأفكار المتصوفة، واصطلاحات الصوفية، وشطحاتهم ثم الشعر الصوفى سماته وألوانه، والنثر الصوفى خصائصه وألوانه من مناجاة وأدعية، وحكم صوفية رائقة ذات صبغة فنية عالية ثم تعرضنا لمكاتبات الصوفية والصدور والدعوات والرسائل ذات الصبغة الأدبية الرائعة والتى تدل على الصدق الفنى، والذوق الأدبى الرفيع حيث جاءت هذه المكاتبات والصدور والرسائل والدعوات والمناجاة والأدعية والحكم معبرة أصدق تعبير عما يختلج في صدور هؤلاء المتصوفة من وجد وحب وعشق وهيام مع صفاء الروح وتفتح البصيرة ﴿ فإنها لاتعمى الأبصارولكن تعمى القلوب التى فى

الصدور﴾[1]. مع جودة السبك ومتانة النسج ، ونصاعة الديباجة ، وانتقاء الألفاظ وتخير الأساليب كل ذلك في نغم موسيقى حالم.

وربما سائل يسأل هل نحن في حاجة إلى التصوف في عصر الفضاء والذرّة؟ ونحن نقول إن العالم اليوم في عصر الإزدهار الحضارى في مسيس الحاجة إلى التصوف فكلما ازدهرت الحضارة وأصيب الناس بسعار الماديات وتكالبوا على جمع الأموال حينًا، وسرقتها أحيانًا في ظل الرقى الحضارى المزعوم – هنا تنحدر الأخلاق وتداس القيم بالأقدام، وتنمحى المبادئ، وتسود الفتن وتنتشر الرذائل، وتعم الفواحش وبخاصة فى هذا العصر الأنكد، كان الناس في حاجة إلى الروحانيات واللجوء إلى الله عز وجل حيث لا ملجأ من الله إلا إليه.

﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين، بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون ﴾[2].

ويقول تعالى : ﴿ هو الذى يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾[3].

---

(١) سورة الحج الآية ٤٦ .

(٢) سورة الأنعام آية (٤٠ ، ٤١).

(٣) سورة يونس آية (٢٢).

ففي خضم الانحلال والصراع المادى يبقى التصوف مدرسة تكون الرجال، وتسمو بالروح فى شمم وإباء ، وعزة ورفعة ، وعفة وسمو وطهر. فنرى بلدًا مثل "السويد" دخل الفرد فيها يتفوق على دخل الفرد فى الولايات المتحدة ومع ذلك نرى أعلى نسبة الانتحار فى "السويد" لأن الروحانيات لديهم معدومة. فنحن فى حاجة ماسة إلى التصوف ليعيد للمسلمين المعرفة الروحية ولنكون موصولين بالسماء ﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾[1] فمجتمعنا اليوم فى مسيس الحاجة إلى التصوف ليخفف عنا ويلات الحياة وبعث الرضا الروحى فى نفس كل محروم أو منكوب أو صاحب "عقدة نفسية بلغة العصر الحديث" فالتصوف طب الأرواح وهو يقود إلى الأمن والأمان الحقيقيين فى حياة كلها صراعات مادية، وأخلاق لا إنسانية، ونفاق وملق مقيت، ودسائس وفتن. كل ذلك يدعونا إلى اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى، والتعلق بالسماء، والتصوف الإسلامي المقبوس من كتاب الله عز وجل سنة رسوله ﷺ .

﴿ وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾[2].

شطورة في غرة المحرم لسنة ١٤١٧هـ

الموافق ١٩ من مايو ١٩٩٦م

وهو تاريخ الفراغ من تأليفه دكتور

على أحمد عبد الهادى الخطيب

---

(١) سورة فصلت الآية ٥٣ .

(٢) سورة هود الآية ٨٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ماهية التصوف :

التصوف في حقيقته إيثار وتضحية، تضحية باللذائذ والشهوات وإيثار لما يبقى على ما يفنى، تضحية بالعاجل وإيثار للآجل، مجاهدة للنفس ومغالبة لأهوائها[١].

هو نزوع فطرى إلى الكمال الإنسانى، إلى التسامى والمعرفة عن طريق الكشف الروحى، أو العلم اليقينى الناشئين عن الإلهام الإلهى والنظر العقلى والرياضة النفسية وبعض الدلائل الحسية[٢]. والتصوف روح لمجموع حقائق الإسلام من عبادة وإيمان ويقين وعرفان[٣]. وهو إيثار الحق على رغبات النفس. يقول الجنيد: (التصوف هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به) ويقول الكرخي: هو (الأخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدى الخلائق).

ويقول أبو الحسن الشاذلى: (هو تدريب النفس على العبودية وردها إلى أحكام الربوبية). وسئل أحد الصوفية عن معنى التصوف فقال: معناه (أن العبد إذا تحقق بالعبودية واتصف بشهود حقائق الربوبية صفا من كدر البشرية فنزل منازل الحقيقة وأخذ بمكارم الشريعة، فإن فعل فهو الصوفى). والصوفى أحد ثلاثة كما يقول السرى السقطى: (واحد لا يطفىء نور ورعه نور معرفته، وواحد لا يتكلم بباطن فى علم ينقضه عليه ظاهر من الشرع، وواحد لا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله)[٤].

---

(١) نشأة التصوف لعبد الكريم الخطيب العدد ٢٢ من سلسلة الثقافة الإسلامية.

(٢) المدخل إلى التصوف الإسلامى - تأليف محمود أبو الفيض المنوفى ص٩.

(٣) المرجع السابق ص١٠.

(٤) الرسالة القشيرية للإمام القشيرى تحقيق د. عبدالحليم محمود، د. محمود بن الشريف، ط القاهرة، ص١٢٨، ١٢٩، واللمع لأبى نصر السراج الطوس، ص٤٥-٤٨.

ويقول شاعر الإسلام محمد إقبال: (إن الإسلام يأخذ عند الصوفية طابعًا من الجمال والكمال والإنسانية العالية والأخوة العالية لا نجده فى إسلام الفقهاء والمتكلمين[1].

ويقول الطوس في اللمع عن الصوفية: إنهم معدن جميع العلوم ومحل جميع الأحوال المحمودة والأخلاق الشريفة، وهم مع الله تعالى فى الانتقال من حال إلى حال مستجلبين للزيادة[2].

وقيل لأبي عبد الله أحمد بن يحيى الجلاء ما معنى الصوفى، فقال: ليس نعرفه فى شرط العلم ولكن نعرف فقيرًا مجردًا من الأسباب كان مع الله عز وجل بلا مكان ولا يمنعه الحق من علم كل مكان، سمى صوفيًا[3]: ويقول الغزالى فى المنقذ من الضلال عن طريق الصوفية: إنها قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة، وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى، ويقول ابن تيمية فى رسالة عن الصوفية: الصوفي: من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، واستوى عنده الذهب والحجر[4].

الفرق بين الصوفىّ والزاهد:

إن الزهد أول حركات التصوف فى الإسلام، وقد انتشرت حركة الزهد فى عصر الرسول ﷺ وبعده، خاصة بعد ثراء المسلمين وحكمهم للعالم القديم المعروف آنذاك، وفرق بين التصوف والزهد.

---

(١) اللمع لأبي نصر السراج الطوس تحقيق: د. عبد الحليم محمود، طه مسرور، ص٩.

(٢) المرجع السابق، ص٤٠.

(٣) اللمع لأبي نصر السراج الطوس، تحقيق: د. عبد الحليم محمود، طه مسرور، ص٤٦.

(٤) دراسات فى التصوف الإسلامى للدكتور عبد المنعم خفاجى، مكتبة القاهرة، ص٣٢.

فالتصوف: زهد فى الدنيا لكسب رضاء الله، والزهد بعد عن الدنيا لكسب ثواب الآخرة.

والتصوف دخول فى جمال الملأ الأعلى ورحمته، والزهد دخول فى مجال التقوى خوفًا من عذاب الله ونقمته وجبروته.

فالتصوف فلسفة روحية في الإسلام، والزهد منهج عملى من مناهج بعض المسلمين، وله نظائر فى الديانات القديمة[1].

تقول رابعة العدوية فى تساؤل ودهشة: (أولو لم تكن جنة ولا نار لم يعبد الله أحد ! ولم يخشه أحد !).

وقال سفيان الثورى لرابعة العدوية: ما حقيقة إيمانك؟ فقالت: ما عبدته خوفًا من ناره ولا حبًا لجنته فأكون كالأجير السوء، عبدته شوقًا إليه. (وكل المتصوفة فى هذا رابعة) يقول ابن الفارض:

وعن مذهبى فى الحب مالى مذهب

وإن ملت يومًا عنه فارقت ملّتى

ولو خطرت لى فى سواك إرادة

على خاطرى سهوًا قضيت بِرِدَّتِى[2]

ويقول ابن سينا فى (الإشارات والتنبهات) واصفًا للعارف الصوفى وهو من روائع الكلم فى هذا المقام:

---

(١) المدخل إلى التصوف الإسلامى تأليف أبو الفيض المنوفى ، ص٢٥ وما بعدها.

(٢) دراسات فى التصوف الإسلامى للدكتور خفاجي، ص٢٣، الناشر مكتبة القاهرة.+

(العارف يريد الحق الأول لا لشيء غيره، ولا يؤثر شيئا على عرفانه، وتعبده له فقط، ولأنه مستحق للعبادة، ولأنها نسبة شريفة إليه، لا لرغبة أو رهبة، وإن كانت فيكون المرغوب فيه، أو المرهوب منه هو الداعي، وفيه المطلوب ويكون الحق ليس الغاية، بل الواسطة إلى شيء غيره هو الغاية وهو المطلوب دونه)[1].

وإنما اختص لعارف بأنه لا يؤثر شيئًا غير الحق على عرفانه لأن غير العارف يؤثر نيل الثواب والاحتراز عن العقاب على العرفان، أما العارف فلا يؤثر شيئًا عليه إلا الحق الذى هو فقط مؤثر لذاته بالقياس إليه وقوله (وتعبده له فقط) إشارة إلى تعلق عبادة العارف أيضًا بالحق فقط فهو لا يعبده لهدف آخر يرجوه من ورائه، أنه لا يجعل الحق وساطة لأجر يناله أو مثوبة يطمع فيها، إن الحق غايته لقد عرف اللذة الحقة وولى وجهه سمتها فكان من المستبصرين بهداية القدس. ولقد أنزل الدين هداية ورحمة فاستفاد منه بعض الناس الأمن والطمأنينة، واستفاد منه بعض آخر زيادة على ذلك الأجر الجزيل فى الحياة الأخرى، أما العارفون فقد غمرتهم نعمة الله. واستفادوا من الدين أمنهم وطمأنينتهم فى هذه الحياة ولن يحرمهم الله مثوبته يوم القيامة. هذا فضلاً عما ينعمون به فى حياتهم الدنيا وحياتهم الأخرى من البهجة بالحق ومن الاستمتاع بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

---

(١) الإشارات والتنبيهات لأبي على بن سينا مع شرح نصير الدين الطوس وبتحقيق الدكتور سليمان دنيا أستاذ الفلسفة المساعد بكلية أصول الدين القسمان الثالث الرابع دار المعارف، ص٨١٠، ٨١٥.

ثم يقول ابن سينا (العارف هش بش بسام، يبجل الصغير من تواضعه كما يبجل الكبير، وينبسط من الخامل مثلما ينبسط من النبيه، وكيف لا يهش وهو فرحان بالحق وبكل شيء فإنه يرى فيه الحق، وكيف لا يسوى والجميع عنده سواسية؟. أهل الرحمة قد شغلوا بالباطل)[1].

ثم يقول ابن سينا: (العارف له أحوال لا يحتمل فيها الهمس من الحفيف، فضلاً عن سائر الشواغل الخالجة وهى في أوقات انزعاجه بسره إلى الحق، إذا تاح حجاب من نفسه أو من حركة سره قبل الوصول. فأما عند الوصول فإما شغل له بالحق عن كل شيء وأما سعة للجانبين بسعة القوة. وكذلك عند الانصراف فى لباس الكرامة فهو أهش خلق الله ببهجته)[2].

والمعنى أن للعارف أحوالاً لا يحتمل فيها الإحساس بشاغل يرد عليه من خارج ولو كان ذلك الشيء أضعف مما يحس به فضلاً عما فوقه وتلك الأحوال تكون في أوقات توجهه بسره إلى الحق. أو قدر له حجاب. أما من جهة نفسه كما يرد عليها ما يزيل استعداده للوصول أو من جهة حركة سره كان يتماثل فى فكره فيعرض له الالتفات إلى شيء غير الحق.

ويقول (العارف لا يعنيه التجسس والتحسس ولا يستهويه الغضب عند مشاهدة المنكر كما تعتريه الرحمة فإنه مستبصر بسر الله فى

(١) المرجع السابق، ص٨٤٣.

(٢) المرجع السابق، ص٨٤٤، ٨٤٥.

القدر. وأما إذا أمر بالمعروف أمر برفق ناصح لا بعنف معيب. وإذا جسم المعروف فربما غار عليه من غير أهله)[١].

ومعناه أن العارف لا يهتم بتجسس أحوال الناس وذلك لكونه مقبلاً على شأنه فارغا عن غيره، غير متتبع لعورة أحد ولا يستهويه الغضب عند مشاهدة منكر بل تعتريه الرحمة وذلك لوقوفه على سر القدر، وإذا أمر بالمعروف أمر برفق ناصح لا يعنف معيب أمر الوالد ولده وذلك لشفقته على جميع خلق الله.

ويقول (العارف شجاع وكيف لا، وهو بمعزل عن تقيه الموت؟ وجواد وكيف لا وهو بمعزل عن محبة الباطل وصفاح للذنوب وكيف لا ونفسه أكبر من أن تجرحها ذات بشر. ونساء للأحقاد وكيف لا وذكره مشغول بالحق)[٢].

ثم يقول: (إن للعارفين مقامات ودرجات يخصون بها. وهم فى حياتهم الدنيا دون غيرهم فكأنهم وهم فى جلابيب من أبدانهم قد نضوها وتجردوا عنها إلى عالم القدس ولهم أمور خفية فيهم وأمور ظاهرة عنهم يستنكرها من ينكرها، ويستكبرها من يعرفها)[٣].

والمعنى فكأنهم وهم فى جلابيب من أبدانهم قد نضوها وتجردوا عنها إلى عالم القدس أن نفوسهم الكاملة وإن كانت فى ظاهر الحال ملتحفة بجلابيب الأبدان لكنها كأن قد خلعت تلك الجلابيب وتجردت من جميع الشوائب المادية وخلصت إلى عالم القدس متصلة بتلك الذوات

---

(١) المصدر السابق، ص٨٤٦، ٨٤٧.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٨٤٨.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٧٨٩، ٧٩٠.

الكاملة البريئة عن النقصان والشر. ولهم أمور خفية فيهم هي مشاهداتهم لما تعجز عن إدراكه الأوهام وتكل عن بيانه الألسنة وابتهاجاتهم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت وهو المراد من قوله عز من قائل : ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين﴾[1] وأمور ظاهرة عنهم هي أثار كمال وإكمال،تظهر من أقوالهم وأفعالهم وآيات تختص بهم التي من جملتها ما يعرف بالمعجزات والكرامات وهي أمور يستنكرها من ينكرها أي لا يسكن إليها قلب من لا يعرفها ولا يقربها. ويستكبرها من يعرفها أي يستعظمها من يقف عليها ويقر بها.

الفرق بين الفقه والتصوف :

الفقه علم بأحكام الشريعة، والتصوف عمل بها، والفقه من علوم الظاهر والتصوف من علوم الباطن. ومصادر الفقيه الكتاب والسنة والإجماع والقياس وهي مصادر – كذلك – للتصوف ولكنه يستمد مادة فهمه لتلك المصادر من الوجدان والذوق والروح والإلهام.

بينما يستمدها الفقيه من عقله ونصه. والعمل والعبادة اللذان توجبهما معرفة الأحكام الشرعية هما وقوف عند حدود الظاهر.

أما العمل والعبادة اللذان يوجبهما التصوف فهما لا يقفان عند غاية ولا عند حد[2].

---

(١) سورة السجدة الآية ١٧ .

(٢) المدخل للتصوف الإسلامي للمنوفي، ص٢٣.

علم التصوف :

أما علم التصوف فقد ظهر فى القرن الثالث الهجرى على أيدى الجنيد ومدرسته وإن كان التصوف نفسه قد ظهر فى القرن الثانى، ويقول ابن خلدون في علم التصوف:

(هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً فى الصحابة والسلف. فلما فشى الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم "الصوفية والمتصوفة"[1].

ويقول أبو طالب المكى في "قوت القلوب":

(هذا العلم "التصوف" ثمة قول: "لا إله إلا الله" فهو حقيقة التوحيد والتنزيه ولا يؤتيه ويعلمه إلا أولياؤه المتقون المعلمون وعباده الصالحون وهم أهل القلوب السليمة الصالحة والجوارح الخاشعة الذاكرة، والألباب الراجحة الفاخرة وهم ثلاث طبقات من المقربين المحبوبين والمتقربين المحبين، ثم أهل اليمين وهم أهل الله وأهل العلم بالله وأهل الحب فى الله ولله، وأهل الخوف من الله، استحضرهم فحضروا واستحفظهم سره فحفظوا وأشهدهم على وجوده من قبل خلقهم

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ص٧٠.

فشهدوا، فهم الأدلة منه عليه، وهم دليلهم إليه، وهم جامعو العبادة بـه عليه وهم الربانيون من العلماء أئمة المتقين، وأركان الهدى والدين أولو القوة فى الله، والتمكين كشف لهم عن أسرار الكتاب الكريم وهداهم إلى الصراط المستقيم، وهم المفردون المقصودون بالسبق والمزيد، فضلهم على من سواهم من المؤمنين، كالقراء والعباد، وأهل المجاهدة والزهد، واختارهم لنفسه واختصهم بأنهم خواص عباده).

ثم قال: (ويحمل القول فى التصوف أنه مرحلة تأتى عُقَيْبْ الفهم لكلمة التوحيد والتمسك بالكتاب والسنة حيث لايمكن العبد الوصول إلى الله، وكشف الأسرار إلا بعد التحقق عن طريق الاسترشاد بالدستور السماوى والتمسك بالهدى النبوى)[1].

اشتقاق كلمتى تصوف ، صوفى :

والآن نتساءل: ما أصل كلمتى "تصوف" و "صوفى" الذى انتقلنا منه إلى المعنى الاصطلاحي المقصود وهو الطاعة والمحبة الإلهية والشوق الخالد.

يقال للرجل صوفى وللجماعة صوفية، ومن يدرك هذه المنزلة الروحية يقال له: متصوف، وللجماعة: متصوفة ويقال للرجل: تصوف.. إذا سلك مسالك الصوفية.

ويقول الإمام القشيرى: إنه ليس يشهد لهذا الاسم "صوفى" — من حيث العربية — قياس أو اشتقاق، والأظهر فيه أنه كاللقب[2].

---

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكى، جـ١، ص١٢٠.

(٢) الرسالة القشيرية، ج٢، ص٥٥٠.

إن اسم الصوفى لفظ حادث بعد الإسلام كما سبق، وليس من ألفاظ الجاهلية، ولا ريب أن الرواية التى تقول: إنه كانت مكة قبل الإسلام تخلو فى وقت من الأوقات حتى لا يطوف بالبيت أحد، وكان يجىء من مكان بعيد رجل صوفى فيطوف بالبيت وينصرف .. رواية ضعيفة بلا ريب إذ لا دليل عليها.

إذن فمن أين أخذت كلمة "صوفى"؟

هنا يقع الخلاف وتضطرب الآراء، فكثير من المستشرقين يذهبون إلى أن كلمة صوفى مأخوذة من كلمة "سوفيا" اليونانية بمعنى الحكمة وأربابها هم الحكماء، وعندما فلسفت العرب عبادتهم حرفوا تلك الحكمة، وأطلقوها على رجال التعبد والفلسفة الروحية. وممن ذهب إلى ذلك المستشرق "ماركس".

وقريب من هذا ما يقوله بعض المستشرقين من أن "صوفى" مأخوذة من كلمة "ثيوصوفى" بمعنى الإشراق أو "محب الحكمة الإلهية". وممن ذهب إلى ذلك "تولدكه" ويذهب "فون هامر إلى أنها من كلمة "سوفى" بمعنى "الحكيم". وهذا كله خبط لا دليل عليه، بل يقول الدكتور زكى مبارك:

لم لا يذهب إلى عكس ذلك، وأن كلمة "سوفيا" مأخوذة من كلمة "صوفى" التي عرفها العرب فى جاهليتهم.

لذلك يرى الدكتور مبارك أنه لا يصح الزعم بأن لغة أخذت من لغة إلا بدليل قوى، وخاصة إذا كانت اللغتان ليس بينهما صلة تاريخية من جوار أو تبادل ثقافى أو اختلاط سياسى.

وممن ذهب إلى ذلك الرأى "أبو الريحان البيرونى" والاستاذان "محمد لطفى جمعة" و "عبد العزيز الإسلامبولى" صاحب مجلة "المعرفة" ت ١٩٦٤م.

وهناك رأى يقول: إن كلمة "صوفى" نسبة إلى "صوفة" وهو رجل زاهد متعبد فى الجاهلية كان قد انقطع إلى الله وعبادته وطاعته عند البيت الحرام واسمه "الغوث بن مر" وكان إليه أمر الاجازة فى الحج، وقيل لأحفاده من بعده "صوفة" أيضًا" فنسب الصوفية إليه لمشابهتهم إياه فى الانقطاع إلى الله وعبادته.

قال ابن الجوزى: سئل وليد بن القاسم إلى أى شىء ينتسب الصوفى؟ فقال: كان قوم فى الجاهلية يقال لهم "صوفة" انقطعوا إلى الله وقطنوا الكعبة، فمن تشبه بهم فهم الصوفية[١]، وأشار إلى هذا كذلك الزمخشرى فى "أساس البلاغة"[٢]. والفيروزابادى صاحب القاموس المحيط. وبعض المستشرقين، وهذا الرأى يدل على أن النسك كان مذهبًا معروفًا فى الجاهلية، ولفظة "الديان" العربية معناها المتنسك فى الدين ومثلها "الربانى" وهى لفظة قديمة عرفتها العربية والسريانية، وظلت من ألفاظ التمجيد.

وقد وصف البويطى صاحب الشافعى بأنه كان إماماً ربانيًا كثير العبادة والزهد، والربانيون فوق الأحبار وفى الجاهلية نشأت طبقة الحنفاء ومنهم ورقة بن نوفل وطبقته، ويغالى د. زكى مبارك فيقول: "إنه لا يستبعد أن يكون التصوف قد عرف فى الجاهلية باسمه ورسمه،

---

(١) فليس إبليس لابن الجذرى.

(٢) أساس البلاغة للزمخشرى فى مادة: صوف.

ثم كانت له رجعة في الإسلام "وذلك وهم ولا دليل عليه".

ورأى ثالث يذهب إلى أن كلمة "صوفي" مأخوذة من الصفاء. ويجعلون لها لفظة من نوعها وهي "صوفي" فعلا مبنيًا للمجهول من "صافي" المأخوذة من الصفاء. قال أبو الفتح البستي:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا
فيه وظنوه مشتقا من الصُّوفِ
ولست أنحل هذا الاسم غير فتًّى
صافي فصوفي حتى لقب الصُّوفِي

وقال بعض الصوفيين:

ليس التصوف ليس الصوف ترقعه
ولا بكاءك إن غنى المُغَنُّونَا
ولا صياحا ولا رقصا ولا طربا
ولا اضطراباً كأن قد صرت مَجْنُونَا
بل التصوف أن تصفو بلا كدر
وتتبع الحق والقرآن والدينَا

وقد سخر أبو العلاء منهم فقال:

صوفية ما رضوا بالصوف نسبتهم
حتى ادعوا أنهم من طاعة صوفوا
تبارك الله دهر حشوه كذب
فالمرء منا بغير الحق موصوفُ

إن أثمر الغصن فامتدت إليه يد
تجنيه ظلما فليت الغصن مقصوف[1]

وقد استبعد الإمام القشيرى ذلك وقال: إن اشتقاق الصوفى من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة[2].

وقريب من هذا الرأى ما حكاه الطوس فى "اللمع" قال "صوفى" كان فى الأصل صفوى "أى نسبة – إلى الصفاء، فاستثقل ذلك فقيل "صوفى"[3].

وفريق يقول: إن الكلمة مأخوذة من الصف، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة من الله تعالى[4]، والمعنى صحيح ولكن اللغة لا تساعد على ذلك[5].

وآخرون يقولون: إن الكلمة نسبة إلى أهل الصفة الذين كانوا يلازمون صفة مسجد رسول الله[6]،وأهل الصفة فريق من فقراء المهاجرين والأنصار ليس لهم متاع ولا مال، فرغت أيديهم من كل شيء، وامتلأت قلوبهم بهدى الله، وقد بنى لهم النبى ﷺ صفة فى مؤخرة مسجده بالمدينة ليقيموا بها، انقطعوا فى صفتهم إلى الله، يسبحون بالغداة والعشى ، وعكفوا على العبادة بشوق ولهفة ولذة،

---

(١) اللزوميات للمعرى، ج٢، ص١٠١.

(٢) الرسالة القشيرية، ج٢، ص٥٥١.

(٣) اللمع لأبي نصر السراج الطوس، ص٤٦.

(٤) الرسالة القشيرية، ج٢، ص٥٥١.

(٥) المرجع السابق، ص٥٥١، ج٢.

(٦) صفوة التصوف لسيد نوح، القاهرة، ١٩٥٠.

واتجهوا وجهة روحية ملكية، وقد وصفهم أبو نعيم الأصفهانى فقال: (هم قوم أخلاهم الحق من الركون إلى شىء من العروض وعصمهم من الافتتان بها عن الفروض، وجعلهم قدوة للمتحيرين من الفقراء، لا يأوون إلى أهل أو مال، ولا تلهيهم عن ذكر الله تعالى تجارة ولا مال، لم يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا، ولم يفرحوا إلا بما أيدوا به من العقبى، وكانوا نحو أربعمائة من فقراء المهاجرين والأنصار[1].

هؤلاء هم أهل الصفة الذين أمر الله نبيه في شأنهم بقوله: (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا)[2].

وأهل الصفة هم الرعيل الأول من رجال التصوف، وقد كانت حياتهم التعبدية الخالصة هى المثل الأعلى الذين استهدفه رجال التصوف فى العصور الإسلامية المتتابعة.

وعندما يخاطب الله عز وجل رسوله الكريم بقوله تعالى ﴿ واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ﴾[3] أى انقطع إليه انقطاعًا كاملاً، أو بقوله: ﴿ واذكر ربك فى نفسك تضرعًا وخفية ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين ﴾[4] وبقوله تعالى فى كتابه الحكيم: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾[5]. أى اعبد الخالق العظيم، اعبده

---

(١) حلية الأولياء لأبى نعيم الأصفهانى.

(٢) سورة الكهف، الآية ٢٨ .

(٣) سورة المزمل الآية ٨ .

(٤) سورة الأعراف الآية ٢٠٥ .

(٥) سورة الحجر الآية ٩٩ .

دائمًا أبدًا بالغدو والآصال، اعبده فى الجهر والسر تضرعًا وخيفة، ولا تكن من الغافلين عن ذكره، المعرضين عن طاعته .. عند هذه الآيات تأخذ الصوفية – وأولهم أهل الصفة – من ذلك القاموس الإلهى العظيم منهاجًا لهم فى الحياة.

وفريق يجعلون الصوفية نسبة إلى الصوف لأنه كان لباس الزهاد والنساك والعباد ولباس الرسل والأنبياء، ولباس أهل الخشونة والفقر والشظف ، وأغلبهم من الواصلين إلى الله ، وهو كذلك لباس رجال الدين فى المسيحية واليهودية من الأحبار والرهبان ممن كانوا يلبسون المسوح[1].

وقد وردت نصوص كثيرة فى ذلك، ورد أن رسول الله ﷺ كان يلبس الصوف، وجاء فى مرثية عمر لرسول الله قوله رضى الله عنه: (بأبى أنت وأمى يا رسول الله. لقد والله جالستنا ونكحت إلينا وواكلتنا ولبست الصوف)[2].

وورد أن رسول الله ﷺ أقبل على أهل الصفة فواساهم ولم يكن عندهم غير جلباب الصوف[3]. وعن الحسن البصرى قال : أدركت سبعين بدرياً كان لباسهم الصوف[4] .

---

(١) المسوح:جمع مسح مثل رقد وهو الثوب الأسود من الصوف يلبسه الراهب شعارًا له.

(٢) الإحياء للغزالى، ج١، ص٣٢.

(٣) حلية الأولياء لأبى نعيم الأصفهانى، ج١، ص٣٤٥.

(٤) نشر المحاسن الغالية، ج٢، ص٣٤٣.

وعن الرسول ﷺ أن كليم الله تعالى كان عليه يوم كلمه اللـه جبـة من الصوف، وورد أن عيسى كذلك كان يلبس الصوف[1] واستمر لبـس الصـوف كنايـة عـن الشـظف والحرمـان والفقـراء وعـن التصـوف والانقطاع إلى الله والتبتل فى عبادته حتى قال أبو تمام:

كانوا بـرود زمانهم فتصدعوا   فكأنمـا لبـس الزمـانُ الصُّوفَا[2]

ومن كلام ابن الجوزى: صوف قلبـك لا جسمك وأصلـح نيتـك لا مرتعتك[3].

وسئل أبو على الروزبارى: مـن الصوفـى؟. فقـال: مـن لبـس الصوفى على الصفاء[4].

ويبدو لى فى وضوح: أن ليس الصوف كان سمة الزهـاد والعبـاد وأهل الورع والتقوى. فلقد ورد أن رسول الله ﷺ كانت له جبة من فتل أى صـوف يلبسـها عليـه الصـلاة والسـلام فـى الجمـع والأعيـاد. فلبـس الصوف بعد اقتداء وتأسيًا برسول الله ﷺ ، ثـم تعـارف الزهـاد والعبـاد على أنـه لبـاس أهـل الخشية والخـوف مـن اللـه الذيـن يرجـون رحمتـه ويخشون عذابه ويردد الدكتور زكى مبارك فى أن عملية لبس الصـوف فى الإسلام كانت رجعة إلى التقاليد المسيحية[5]. وفى موضع آخـر مـن كتابه يقول: (إن الصوفية كانوا يسايرون المسيح فـى مذاهـب الروحيـة

(١) نشر المحاسن الغالية، ج٢، ص٣٤٣.

(٢) التصوف الإسلامى لعمر فروخ، ج١، ص٥٤.

(٣) مجلة المعرفة ص ٧٨٣ من مقال لمرجليوث السنة الأولى.

(٤) تلبس إبليس لابن الجوزى، ص١٩٥.

(٥) التصوف الإسلامى، ج١، ص٦٥.

ويلبسون الصوف متابعة للرهبان[1]، ويستشهد ببيت جاء فى "محاضرة الأبرار، ومسامرة الأخيار" وهو:

ليس التصوف أن يلاقيك الفتى ... وعليه من نسج المسيح مُوقَعُ[2]

وذلك خطأ فى الاستنباط.

وفى تأييد نسبة الصوفى إلى الصوف. يقول "الطوس" فى "اللمع": (التصوف اسم وقع على ظاهر اللبسة"[3]. ويستضعف الألوس هذا الرأى[4]: وقد عاب الصوفية الصادقون أن يكون الصوف مظهرًا وستارًا تتقنع به القلوب.

قال الشبلى: كان الزهد فى مواطن القلوب فصار فى ظواهر الثياب. كان الزهد حرفة، فصار اليوم خرفة. ويحك صوف قلبك لا جسمك، وأصلح نيتك لا موقعتك.

وقال الجنيد: "إذا رأيت الصوفى يعنى بظاهره فاعلم أن باطنه قراب" والظاهر هو خشونة الثوب.

وقيل لأبى الحسن بن سمنون: أيها الشيخ أنت تدعو الناس إلى الله والإعراض عن الدنيا وتلبس أحسن الثياب، وتأكل أطيب الطعام. فكيف هذا؟ فقال: "كل ما يصلحك لله فافعله إذا صلح حالك مع الله بلبس لين الثياب، وأكل أطيب الطعام. فلا يضرك"[5].

---

(١) المرجع نفسه، ج١، ص٣١٦.

(٢) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار لمحيى الدين بن عربى، ص٢٥٨.

(٣) اللمع لأبى نصر السراج الطوس، ص٤٧.

(٤) الفيض الوارد، ص١٠١ للألوس.

(٥) الحلية لأبى نعيم، ص٥٢.

ودخل أبو محمر بن أخى معروف الكرخى على أبى الحسن بن بشار وعليه جبة صوف فقال له أبو الحسن: "يا أبا محمد صوفت قلبك أو جسمك؟. صوف قلبك[1].

أما الصفوة الثقات من المؤرخين الصوفيين فلم يعللوا تلك التسمية ولم يتكلفوا لها ما تكلف غيرهم من اصطناع وجعلوها لقبًا أو كاللقب. فقال القشيرى فى رسالته: إن المسلمين فى حياة الرسول ﷺ كانوا يتشرفون باسم: صحابى. ثم سمى من بعدهم بالتابعين. ثم قيل: أتباع التابعين. ثم ظهرت البدع وتعددت النحل، فانفرد خواص أهل السنة والمراعون أنفاسهم مع الله الحافظون قلوبهم: باسم "التصوف" فى عصر الإمام أحمد بن حنبل قبل المائتين من الهجرة[2].

وقال الإمام الطوس فى "اللمع": فإن سألنى سائل: قد نسبت أصحاب الحديث إلى الحديث ونسبت الفقهاء. وهكذا فلم قلت الصوفية ولم تنسبهم إلى حال ولا علم؟ قلت: لأن الصوفية لم ينفردوا بنوع من العلوم دون نوع لأنهم معدن جميع العلوم ومحل جميع الأحوال المحمودة، والأخلاق الشريفة[3].

ويقول أبو نعيم فى "حلية الأولياء"[4]:

(إن كلام المتصوفة يشتمل على ثلاثة أنواع فأولها إشاراتهم إلى التوحيد والثانى كلامهم فى المراد والثالث فى المريد وأحواله".

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٥٣.

(٢) الرسالة القشيرية تحقيق د. عبد الحليم محمود، د. محمود بن الشريف، ص

(٣) اللمع للطوس، ص .

(٤) الحلية لأبى نعيم، ج١، ص٢٣.

ويقول الشرنوبى[1]: (طريق الصوفية هى طريق الأبرار ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله. والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، فلما فشى الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية. فلما كتبت العلوم ودونت وألف الفقهاء فى الفقه وأصوله والتوحيد والتفسير وغير ذلك كتب رجال من أهل هذه الطائفة فى طريقتهم. فمنهم من كتب فى أحكام الورع ومحاسبة النفس فى الأخذ والترك. ومنهم من كتب فى "آداب الطريق" ومنهم من جمع بين هذا وذاك.

وهذا العلم هو علم الوراثة المشار إليه بخبر (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم) ويسمى علم التصوف علم الحكمة وعلم الباطن، وهو علم معرفة الله معرفة توحيدية خالصة وقيل: إن حكمة الصوفى ليست سوى مجموع أحرف رمزية تعنى "الحكيم الإلهى"[2].

ويقرر الشيخ حسن رضوان فى منظومته الكبرى التى جمعها فى كتابه "روض القلوب المستطاب" أن كلمة "صوفى" تشير بحروفها إلى معان كثيرة: فالصاد إلى الصبر والصلاة والصوم .. والصدق .. إلخ، والواو إلى الود والوعد والوصل. والفاء إلى الفرقان والفتح .. إلخ.

ويقول ابن عربى: (إن التصوف تشبيه بخالقنا لأنه خلق فانظر ترى عجبًا)[3].

---

(١) تائية السلوك للشرنوبى، ص١٠.

(٢) نظرات فى فلسفة العرب لجبور عبد النور، ص٢٣٢، ط. بيروت.

(٣) الفتوحات المكية لابن عربى، ج٢، ص٣٥١ وما بعدها.

ولفظ التصوف لم يعرف مصحوبًا برسومه إلا فى القرن الثانى الهجرى. وقد اهتم الحسن البصرى بشرح علم التصوف. وتكلم عن آفات النفوس ويليه فى منزلته أبو حمزة الصوفى. وهو أستاذ البغداديين. ودخل الحسن البصرى جامع البصرة وجعل يخرج القصاص ويقول: القصص بدعة[1]. وأول من أطلق عليه اسم الصوفى هو أبو هاشم الكوفى (١٥٠ هـ)[2].

ويقول: الأحدى فى كتابه: "حياة القلوب": التصوف – وهو علم الباطن وحقيقة الشريعة – علم تعرف منه أحوال النفس فى الخير والشر وكيفية تنقيتها فى عيوبها وآفاتها لتطهيرها من الصفات المذمومة والرذائل المعنوية التى وردت أوامر الشرع باجتنابها والتمسك بضدها من الصفات المحمودة التى طلب الشرع تحصيلها وكيفية السير والسلوك إلى الله تعالى على قدم الإخلاص والصدق، والفرار من نقائص الخلق"[3].

العلاقة بين الصوفية والسلفية:

إذا أردنا تعريفًا دقيقًا للسلفية لا ينكره شخص من الأشخاص، فيمكننا أن نقول: إنها حبا لله واتباع رسول الله ﷺ فيما أمر وفيما نهى والحب والاتباع مرتبطان ارتباطًا وثيقًا، فمن أحب الله ورسوله اتبع التوجيهات الإلهية التى تنزلت على لسان الرسول صلوات الله وسلامه عليه ولهذا الارتباط يقول القرآن الكريم: ﴿قل إن كنتم تحبون الله

---

(١) التصوف الإسلامى لزكى مبارك، ج٢، ص١٢.

(٢) الحياة الروحية فى الإسلام، د. محمد مصطفى حلمى، ص٨٤.

(٣) حياة القلوب للأحدى.

فاتبعونى يحببكم الله﴾[1]. وإذا نظرنا إلى السلف وجدنا الصحابة يتوافر فيهم حب الله ورسوله ويتوافر الاتباع، وإذا نظرنا إلى الصوفية ابتداء من الإمام "الفضيل بن عياض" أو الإمام الكبير "إبراهيم بن أدهم" فإننا نجد أنه يتوافر فيهم "الحب" و "الاتباع". أما فيما يتعلق بالاتباع فإن "الفضيل بن عياض درس السنة دراسة دقيقة، وكان من كبار المحدثين ثقة حافظًا ثبتاً يثق فيه كل هؤلاء الذين كتبوا الحديث من أمثال الإمام "البخارى" . والإمام "مسلم" وغيرهما من المحدثين.

وكان فى سلوكه صورة تحاول ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً — أن تحاكى وأن تتابع وأن تتأسى وتقتدى برسول الله ﷺ، وما عرفته الدنيا فى يوم من الأيام متهالكًا عليها وما جرى وراء مادة، وإنما شغلته العبادة والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، ونشر العلم الموضح عن أمور الدنيا والآخرة، وكان الناس جميعًا يحترمونه كما كان ناصحًا للأمراء والوزراء والملوك[2].

وكانوا يذهبون إلى بيته المتواضع، ولا يذهب هو لأحد منهم، كذلك كان الأمر فيما يتعلق بالإمام الكبير "إبراهيم بن أدهم". وسواء أكنا بصدد الحديث عن هذا أو ذاك نعرف أنهما كانا متفقين على الخطوة الأولى عند الصوفية جميعًا. وهى الانتفاضة الصادقة العازمة التى اتجهت بهما إلى التوبة الصادقة التى محت كل ما يمكن أن يكون من شهوات النفس وأهواء الشعور وبهذه الانتفاضة ينتقل الإنسان فى لحظة إلى القصد الجاد فى الاتجاه إلى الله سبحانه وتعالى.

---

(١) سورة آل عمران الآية ٣١ .

(٢) العارف بالله أبو الأنوار شمس الدين الحقى، د. عبد الحليم محمود، ص٦.

و (الفضيل بن عياض) و (إبراهيم بن أدهم) هما من الأئمة الأول فى الصوفية، وعلى نسقهما ونسق من شابههما من الأئمة الأول سار الصوفية الذين أتوا من بعده .. وهؤلاء الصوفية الذين أتوا من بعد كانوا مثل جميع الصوفيين يمتازون بأمرين متلازمين فيهما.

أحدهما: العبادة حيث ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، وبالأسحار هم يستغفرون ﴾[1]. وكانوا ممن: ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفًا وطمعًا ﴾[2].

أما الأمر الثانى فهو "العلم"، وإذا نظرنا إلى كتاب من كتب "طبقات الصوفية" مثل كتاب "السلمى" الذى وصل بالتاريخ للصوفية إلى نهاية القرن الرابع الهجرى تقريبًا. فإننا نجد جميع من ذكرهم يتسمون بهاتين السمتين "العبادة" و "العلم" وبعضهم كان من كبار المفكرين أمثال "سهل بن عبد الله التسترى" وبعضهم كان من العلماء الذين يجمعون بين التفسير والحديث والعربية أمثال (الجنيد) ولكنهم جميعًا كانوا يمتازون بصفتى "العبادة" و "العلم" وما كان يحملهم "العبادة إلا الحب، وما كان يحملهم على "العلم إلا الحب" الحب لله ولرسول الله ﷺ. ونشر أثاره صلوات الله وسلامه عليه. فالإمام "الجنيد" مثلاً كان يحضر درسه اللغويون من أهل اللغة، والأدباء، من أجل الأسلوب والفقهاء من أجل الفقه والمتكلمون من أجل مسائل علم الكلام. والحكماء من أجل الدقة فى تحرير المسائل. وكل هؤلاء كانوا من العلماء، وكل منهم كان يستفيد من درسه فى موضوع تخصصه، وحين يتحدثون عن دروس (الجنيد) يقولون.

---

(١) سورة الذاريات الآية ١٧ ، ١٨ .

(٢) سورة السجدة الآية ١٦ .

كان يحضر لدرسه ثلاثمائة محبرة، وذلك أن جميع من كانوا يحضرون درسه كانوا يكتبون ما يسمعونه مما يتعلق باتجاهاتهم.

وإنه ليسرنا في هذا المجال أن نذكر أيضًا الحارث بن الأسد المحاسبى صاحب كتاب "الرعاية لحقوق الله" لقد كان في شعاره "العلم" و "العبادة". ونزل إلى ميدان المجتمع فى قوة مبينًا وموضحًا وناقدًا وهاجمًا واقفاً كالطود الراسخ فى وجه كل مدعة، أو انحراف بكتبه الكثيرة المتعددة، وكان شعاره دائمًا "حب الله ورسوله واتباع الله ورسوله".

أما فيما يتعلق بالصلة بين الصوفية وأهل السنة والجماعة. فإن صاحب كتاب "التبصير فى الدين" وهو الإمام الإسفرايينى العالم الكامل والفقيه لأصوله المفسر وكان يعنى أشد عناية بالرد على كل من يخالف مذهب أهل السنة. وهو يذكر فى كتابه ما يمتاز به أهل السنة عن غيرهم من الخوارج والروافض والقدرية، فيذكران سادس ما امتاز به أهل السنة هو علم التصوف والإشارات ومالهم من الدقائق والحقائق، ولم يكن لأحد قط من أهل البدعة منه خطر بل كانوا محرومين مما فيه من الراحة والحلاوة والسكينة، والطمأنينة.

ويستمر الإمام "الإسفرايينى وهو من خيار أهل السنة فيقول: أى أمر التصوف لأن علمنا هذا مفيد بأصول الكتاب والسنة، ومما يغفل الناس عنه ولا يتحدثون به لأنهم يجهلونه أن الإمام ابن تيمية يقدر تقديرًا عظيمًا الإمام عبد القادر الجيلانى. ويتحدث عنه باحترام بالغ فى رسالة "العبودية" وكلما ذكره يقول: "قدس الله سره". وللإمام عبد القادر الجيلانى كتاب عميق فى التصوف اسمه "فتوح الغيب". وهذا الكتاب

مطبوع ومتداول، ويخصص الإمام ابن تيمية ما يقرب من مائة صفحة لشرح بعض فقرات هذا الكتاب، والإشارة بالإمام "عبد القادر الجيلانى هو التصوف كل من اعترف به فقد اعترف بالتصوف، وهو يمثل مكانة الأستاذية بالنسبة لابن تيمية لأنه من أسانيد "ابن تيمية" فى الحديث وأسانيد المحدثين هى أستاذية لمن تتخذهم إسنادًا[1].

ومن ناحية أخرى نرى الإمام "أحمد بن حنبل" يشيد إشادة كبيرة "ببشر الحافى". وبشر الحافى من كبار أئمة التصوف. وكان بينه وبين الإمام "ابن حنبل" صداقة متبادلة، وتقدير متبادل. ويقول الإمام "أحمد ابن حنبل" للسيدة الكريمة أخت "بشر الحافى": (من بيتكم يفيض الورع). وكل هذا يدل على أن أئمتنا السابقون منهم، واللاحقون ما كانوا يفرقون بين السلفية والصوفية. ومما هو معروف أن الإمام أبو عبد الله الأنصارى "السهروى" من كبار زعماء الحنابلة، وكان يقول: (أنا حنبلى ما حييت وإن مت فنصيحتى للناس أن يتحنبلوا). وكان من أئمة الصوفية، وكانوا يسمونه "شيخ الإسلام" وله كتاب موجز يعد من أشهر كتب التصوف وهو كتاب "منازل السائرين" يسير فيه بالإنسان فى مقامات الصوفية وأحوالهم من منزلة إلى منزلة حتى يصل به إلى القرب من الله تعالى.

ولقد احتوى هذا الكتاب المختصر والموجز .. التصوف كاملاً. مقامات وأحوال[2].

---

(١) المرجع السابق، ص١٠.

(٢) المرجع السابق، ص ١١ وما بعدها.

ثم جاء الإمام الكبير ابن القيم أكبر التابعين لمدرسة ابن تيمية، فألف كتابًا ضخمًا أسماه "مدارج السالكين" شرح فيه كتاب الهروى "منازل السائرين" والأصل والشرح أيضًا يعبران عن التصوف كاملاً، ويشيدان به ويحثان عليه، ويبينا أنه هو السلفية الصادقة لأنه الحب والإقناع. فلماذا يحاول من ينتسبون إلى السلفية أن يجعلوا بينها وبين الصوفية فرقة واختلافًا.

وقد ذكر "أبو عبد الرحمن السلمى" من مشايخ الصوفية قريبًا من ألف وجمع إشاراتهم وأحاديثهم، ولم يوجد فى جملتهم قسط من ينسب إلى شيء من بدع القدرية والروافع والخوارج. ثم قال: هذه الكلمات الدقيقة المرزونة: وكيف يتصور فيهم من هؤلاء، وكلامهم يدل على التسليم والتفويض والتبرى من النفس والتوحيد فى الخلق والمشيئة. أهل البدع ينسبون الفعل والمشيئة والخلق والقدر إلى أنفسهم. وذلك بمعزل عما فى الدين، وهو من رؤساء أهل السنة لا يخالف فى ذلك مخالف من المؤرخين للفكر الإسلامى.

إلى أى حد يبلغ حرص الصوفية على الأتباع؟ وما آثارهم فى ذلك؟:

يقول أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه: (من دعا إلى الله تعالى بغير ما دعا به رسول الله ﷺ فهو يدعى) ويقول أيضًا: (إذا لم يواظب الصوفى على حضور الصلوات الخمس فى الجماعة فلا تعبأ به). ومن أجمل كلماته قوله: (ما ثم كرامة أعظم من كرامة الإيمان ومتابعة السنة).

أما أبو يزيد البسطامى فإنه يقول فى قوة حازمة ومنطق صادق: (لو نظر إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرقى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى، وحفظ الحدود وأداء الشريعة). والإمام "الجنيد) يقول: (الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، واتبع سنته، ولزم طريقته، وكان "الجنيد" لا يمل الحديث عن "الحب" و "الاتباع" وكان يقول: (من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث لا يقتدى به فى هذا الأمر).

ونحب أن نقول فى غير إسراف: أن ما يسمونه السلفية الآن هو فكرة ممسوحة لا تمثل السلفة فى قليل ولا فى كثير. إنهم يتحدثون عن فوقية وعن جهة ويتحدثون عن أمور لا يتحدث فيها السلف عليهم رضوان الله تعالى.

وأحب أن أقول أيضًا: إنها أصبحت حرفة يحترفها قوم من أجل النفع المادى ولو لم تمسخ حقيقتها ولم تصبح حرفة لما حدثت هذه المناقشات. ولما حدث هذا الجدل الذى هو سمة من سمات البعد عن السلفية فى الكتب وعلى صفحات الجرائد. ويختم الدكتور عبد الحليم محمود حديثه بقوله:

يكفى أن نرد على هؤلاء بكلمة قالها الشيخ "محمد عبده" الذى يتمسحون فيه كثيرًا وهو بصدد الحديث عن الأولياء، وعن حال القرب قال: "أما أرباب النفوس العالية، والعقول السامية من العرفاء، ممن لم تقرب مراتبهم من مراتب الأنبياء، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء فكثير منهم نال حظه من الأنس يقارب

تلك الحال (حال القرب) فى النوع أو الجنس، ولهم مشارفهم فى بعض أحوالهم على شيء من عالم الغيب، ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المثال لا تنكر عليهم لتحقيق حقائقها فى الواقع. فهم لذلك لا يستبعدون شيئًا مما يحدث به الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

ومن ذاق عرف، ومن حرم انحرف، ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه ظهور الأثر الصالح منهم وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم، وطهارة فطرتهم مما ينكره العقل الصحيح أو يمحه الذوق السليم، وانتفاعهم بباعث من الحق الناطق فى سرائرهم المتلألئ فى بصائرهم إلى دعوة من يحف بهم إلى ما فيه خير العامة، وترويح قلوب الخاصة".

هذا ما يقوله الشيخ "محمد عبده" فى رسالة التوحيد — إنه يقول بالحرف الواحد: من ذاق عرف. أما هؤلاء الذين اتخذوا السلفية حرفة، ولم يتذوقوها فإنهم لم يعرفوا. ويقول: "ومن حرم انحرف" وهؤلاء قد حرموا فانحرفوا.

ونرجو الله سبحانه وتعالى لهم الهداية. وإذا كانت بعض الطبائع تركز دائمًا على الاختلاف تخترعه وتجسمه وتضخمه، وتتخذه دينًا وشعارًا. فإننا نركز دائمًا على التوحيد والوحدة، ونرى أنه لا يتأتى مطلقًا. الحب دون الاتباع، وأنه مما لا مرية فيه بين المستبصرين أن الصوفية من أعلام المحبين، فهم إذن من أعلام المتبعين، وأن السلفية من أعلام المتبعين فهم إذن من أعلام المحبين. والنتيجة هى أن ما ندعوا إليه ويدعوا إليه كل مخلص أن نسير جميعًا فى ظلال علم: الاتباع والحب[1].

---

(١) العارف بالله أبو الأنوار شمس الدين الخفى للإمام المرحوم د. عبد الحليم محمود، مجمع البحوث الإسلامية، إدارة نشر الثقافة الإسلامية، سنة ١٣٩٧هـ، سنة ١٩٧٧م، ص١٤ وما بعدها.

وهذا رأى صائب، حيث إن الاتباع هو اتباع هدى محمـــد ﷺ ..
حيث إنه يؤدى بالمسالك إلى طريق النجاة وهو الطريق الصحيح الــذى يجعل المسلم يعيش فى هدوء وطمأنينة واستقرار، ومتى سلك الســالك هنا السبيل النبوى سيصل إلى مراقى الصالحين. وينخرط فى صفــوف الموحدين، وبذلك يكون من المحبين العارفين، فيستنير قلبه، وينشــرح فؤاده بهذه المعرفة التى تولدت عن "الاتبـــاع والحـــب" وذلــك ديــدن الصوفية.وطريق السلفية.

أصالة التصوف الإسلامى:

ومع مكانة التصوف الكبرى فى الفكر الإسلامى وما قدمه للحيــاة الإسلامية فى شتى مراحلها من مناهج فى المعرفة والأخلاق والســلوك الاجتماعى وما أفاض على الثقافة الإسلامية من معان مشرقة عالية فى كل ما يتصل بالروح والقلب وصلة الإنسان بخالقه وسيره إلى محبتـــه ورضوانه وما أبدع فى هذا الســـير مـــن أحــوال ومقامـــات وأذواق ومشاهدات وإلهامات أسهمت فى تعميق المعانى القرآنية وشمولها كمـــا أسهمت فى تكوين الحياة الروحية التى أصبحت مـــن أكــبر العنــاوين المتلألئة فى جبين الدعوة الإسلامية وفى أفق رسالتها العالمية.

مع هذه المكانة الضخمة لا تزال الأقلام مضطربة وهى تتنـــاول الحديث عن نشأة التصوف الإسلامى. وتدرجه وأثـــره فـــى التــاريخ الإسلامى وسر هذا الاضطراب أن كتب الطبقات الصوفية لـــم تضـــع منهجًا علميًا لتاريخ الحياة الروحية فى الإسلام.

فقد عُد أئمة الصحابة جميعًا من رجال الطبقات الصوفية ومن ثـــم احتسبت بداية الإسلام هى بداية التصوف وجاء رجال التاريخ الإسلامى

وجلهم من الحنابلة الذين خاصموا منهج التصوف فى المعرفة والسلوك فلم تتجه أقلامهم إلى تدوين تلك الحياة الخصبة المثمرة بل ألقوا عليها ستاراً، ولم يرجوا لها وقاراً. ثم جاء رجال الاستشراق فى عصرنا فبذلوا جهوداً ضخمة فى دراسة التصوف الإسلامى ورجاله وتراثه ولكن جهودهم هذه شابها وشوه من جلالها عقدة نفسية تحملها أقلامهم، وتستقر فى أعماق قلوبهم وتدفعهم إلى تصوير التصوف الإسلامى فى أثواب مستعارة من الملل والنحل الروحية شرقية وغربية وتحميل الكلمات والآراء أكبر مما تطيق ليضفوا على التصوف الإسلامى صوراً غامضة من صور الغموض المعنوى.

ومما يؤسف ويؤسى أن فريقًا من كتابنا جرى فى ساحتهم، وارتدى برورهم بحكم التلمذة حيناً، والتشدق حيناً آخر. والجهل بالتصوف الإسلامى حيناً ثالثاً.

ولقد غرقت الروح الصوفية مع الإسلام منذ يومه الأول وليس معنى هذا أن الأذواق والمواجيد القلبية والروحية والمناهج الصوفية سلوكًا ومعرفة كانت واضحة جلية فى أيام الإسلام الأولى وفى حياة أئمة الصحابة – رضوان الله عليهم – ففى هذا الزعم إسراف وماجنية للحقائق.

ولكننا نرى فى آيات القرآن وحياة الرسول الطاهرة وسير صحابته المشرقة بذور التصوف الأولى وللمعرفة الروحية ألواناً متلألئة.

وليس التصوف بدعًا فى هذا فكل منهج من مناهج المعرفة فى الإسلام انبثق كما انبثق التصوف من روح القرآن وجوهر رسالته. وبدأ

كما بدأ التصوف فى الإسلام ثم نما وارتقى ومشى مع خطى الحياة، وسنة الله.

فمثلاً نستطيع القول بأن الفقه نشأ مع الإسلام وليس معنى هذا أن التفريعات الفقهية كانت فى صدر الإسلام، وفى الكتاب والسنة ثم تصعدت وسارت مع الحياة.

كان التصوف موجودًا فى صدر الإسلام بروحه وهديه وآدابه وخلقه وترفعه وزهده، وعباداته وطاعاته وذكره ومناجاته كان موجودًا بجوهره لا بمصطلحاته، وقائمًا بكلياته لا بجزئياته.

كان التصوف فى صدر الإسلام هو هذا الروح الدينى المهيمن، على حياة المسلمين كافة الموجة لحركاتهم وسكناتهم.

كانت هذه الرقابة الحية التى أقامها كل مسلم فى أعماقه ليراقب ما توسوس به نفسه وما يخفى صدره ما تطرف به عينه.

كان هذا الترفع الشامخ عن شهوات الدنيا وزخرفها والإعراض عن بريقها وفتنها، والزهد فى ترفها ومظاهرها، والتسامى عن كل ما فيها إلى وجه الله حتى يظفر المتصوف بحبه ورضاه، وقربه وهداه، لأن الدنيا لا تزن عنده جناح بعوضة ولأن الآخرة خير وأبقى ثم تموجت الحياة بالمسلمين وفتحت عليهم الدنيا وابتعدت مسامعهم عن تعليمات الوحى، وتفوقت قلوبهم عن الميثاق والعهد وانحلت العزائم، وفترت الهمم، وسارع الناس إلى المال والجاه ولهو الحياة ونشأت الفتن واختصموا على الملك وتصارعوا وتباغضوا وتشبعت بهم السبل ونشأت تبعًا لذلك حركات مضادة ورسالات مجاهدة صمد بعضها فى وجه العاصفة.

ويحدثنا تاريخ النصف الثانى من القرن الأول للهجرة عن وعاظ ومرشدين وقفوا على أسرار القرآن ومعالم السنة ينذرون الناس ويدعونهم إلى ربهم ودينهم تميزهم شجاعة نفسية عالية أعانتهم على مواجهة الجبروت والاستبداد الذى بدأت طلائعه فى أفق الحياة الإسلامية وبجوارهم رأينا طائفة الزهاد الذين وقفوا فى وجه فتنه .. الترف والإسراف وأداروا أحاديثهم حول فضائل النفس وتزكية الجوارح والزهد فى الدنيا وزوال نعيمها ورأينا العُبّاد المتبتلين الذين انقطعوا لعبادة الله.

ومن هؤلاء وأولئك تكوّن الرعيل الأول من الصفوة الديانيين الذين عرفوا فى التاريخ باسم (الصوفية) أو كما يقول (ابن خلدون): (اختص المقبلون على الله بأنفاسهم باسم الصوفية وبدأت ثقافة إيمانية لها لونها وطابعها وخصائصها الفنية تكون لهذه الطائفة ثقافة تدور حول ذكر الله وإلهاماته ومجاهدة النفس وما ينبثق منها من آداب السلوك والصلة به وما يترقق حول هذه الصلة من أذواق ولحون ومواجيد وأشواق وكانت ثمرة هذا كله المعرفة الباطنية وما تفيض به من علوم وأنوار. وبدأت الحياة الروحية تنفصل عن الحياة العامة وتستقل بمناهجها ومعارفها واصطنع الصوفية كلمات تحدد أذواقهم وتعبر عن شعورهم، واتسع أفق هذه الكلمات لمعان متعددة وكونوا لهم فلسفة فى الأخلاق والسلوك وفى العبادة ويرجعون كل شىء إلى الله، فأكسبهم ذلك عزة خلقية وسعادة روحية قوامها الرضا بالقضاء والقدر أو كما يقول إبراهيم بن أدهم: "نحن فى لذة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيف" وأفاضت عليهم الثقة بالله والتوكل عليه شجاعة نفسية وقوة إيمانية لا تسابقها قوة ولا شجاعة.

يقول إسحاق بن إبراهيم السرخسي: (سمعت ذا النون المصرى وفى يده الغل وفى رجليه القيد وهو يساق إلى المطبق، والناس فى بغداد يبكون حوله وهو يقول: "هذا من مواهب الله تعالى، ومن عطاياه، وكل فعله عذب حسن طيب" وستبلغ تلك الشجاعة الشامخة ذروتها فى البطل الشهيد "الحلاج" حينما صمد للمأساة صمودًا لا يطاوله فى التاريخ صمود"[1].

أطوار المعارف الصوفية فى القرن الثالث الهجرى:

وفى مطلع القرن الثالث الهجرى أخذت معانى الحب الإلهى الذى سمعنا جرسه لأول مرة فى ألحان رابعة العدوية ومواجيدها أخذت معانى هذا الحب تتسع وتتكون بها المقامات والأحوال وأخذت كلمات الأنس والبسط والرجاء والخوف واليقين والمشاهدة تشع وتؤتي ثمارها وتدرجت على أجنحة الحب ومعارجه حتى وصلت بالصوفية إلى مقام الفناء وهو أخطر مقامات التصوف وأبعدها أثرًا فى تاريخه والفناء هو غاية الصوفية ففيه يشربون رحيق الحب الأعلى وينعمون فيه بمتع ولذائذ روحية تنسيهم دنياهم وأخراهم ووجودهم وكل شيء سوى المحبوب والحب أساس الأحوال الصوفية.

وقد عد – كما يقول (السُهْروردى) – أساسًا للأحوال كالتوبة بالنسبة للمقامات فمن صحت توبته على الكمال تحقق بسائر المقامات من الزهد والرضا والتوكل ومن صحت محبته تحقق بسائر الأحوال من الفناء والبقاء والصحو والمحو[2].

---

(١) الحلاج لطه سرور، ص٢٦، ص٣١، بتصرف.

(٢) عوارف المعارف للسهروردى، ص٣٥٠.

ومن الحب تنشأ المعرفة والمشاهدة ولذة المعرفة والمشاهدة وفى الحب يتمتع المحب بالجمال المقدس ويناله من جلال وجمال ونشوة الحب الكبرى تسمى سكرًا، والسكر علامة الصدق والحب، وهو نشوة روحية لا يمكن تصورها إلا بالتجربة كما يقول الإمام "الغزالى" ولذلك قالوا: "من ذاق عرف"[1] وهذا السكر الروحى حدقة يرى بها الصوفى حقيقة الكون وسر الخلق.

يقول: معروف الكوفى: (إذا انفتحت عين بصيرة العارف نامت عين بصره فلا يرى إلا الله ونهاية السكر هو الفناء، والفانى – كما يقول الصوفية – لا يحس بما حوله ولا يحس بنفسه فقد فنى عما سوى الله. ومن هنا جاء كلام الصوفية الذى لا يفهمه ولا يتذوقه سواهم حينما يقولون فى نشوة الفناء ووقدة الحب "ليس فى الوجود إلا الله".

إنها تجربتة عليا .. تجربة ذووية فى عالم الروح والسر، تجربة كانت أقوى من التى تحدث عنها "الحلاج" حينما بلغ الذروة العليا لمقام الفناء أو مقام الاتحاد وحينما ابتدع من هذا المقام معارف صوفية تتحدث عنها وحدة الإيمان والنور المحمدى، ووحدة المحب والمحبوب، ويأتى بعد مقام الفناء مقام البقاء ويأتى بعد الوحدة مقام الجمع، وبعد الجمع مقام التفرقة ومقام الجمع هو رؤية الحق بلا خلق وهى حالة وجدانية أو حالة دهشة وغيبة مع فقدان الإحساس بالأشياء وبالنفس، والمحب هنا يعزل نفسه عن صفاتها بأن يسمع ويعى كأنه بمثابة السمع والوعى لا السامع ولا الواعى. إنه مقام إشارة إلى حق بلا خلق، وحالة الجمع هذه حالة وعى وصحو وإدراك مع بقاء المعرفة الصوفية التى

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالى، ج٤، ص٢٦٩.

كانت فى حالة السكر فلا يزول عن صاحب المقام إدراك الوحدة، ومن المتحققين بهذا المقام "أبو القاسم الجنيد" الذى يقول فى هذا المعنى:

وتحققتك فى السـ ـر فنَاجَاكَ لسانى

فاجتمعنا لمعان وافترقنا لِمَعَانى

إن يكون غيبك العظـ ـيم عن لحظ عيانى

فلقد صيرك الوجـ ـد من الأحشاء دانى

فالجنيد يجمع لمعان ويفرق لمعان وهذا هو جمع الجمع، وحال العارفين الكمل المحلقين على أجنحة الوجد.

ومقامات التصوف، ومعارفه ومناهجه أفق يتلألأ جمالاً وكمالاً.

أفق صاغه الإلهام وفتق جوانبه الإيمان، وشيد سمواته الحب الإلهى.

أفق تعجز العقول المادية الأرضية عن ارتياؤه، واكتشاف أسراره والاهتداء إلى أنواره.

إنى أفق لأصحاب العقول والأذواق الذين صفت أرواحهم بالطاعة، ورقت بالمجاهدة وشفت بالمحبة وسمت باصطفاء حتى شهدت بالاجتباء ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ونعمت بما لم تنعم به القلوب التى لم تبرح تطاق الماء والطين.

والقرن الثالث للهجرة يعده الصوفية أكبر درجة وأخطر مرحلة فى تاريخ الحياة الروحية.

إنه العصر الذى بلغ فيه التصوف ضحاه، واكتمل نموه، وشيد صرحه، ودعمت مدارسه.

العصر الذى عاش فيه الأئمة الكبار الذين منهم "الحارث المحاسبى" ت ٢٤٣هـ سيد المتحدثين عن دقائق المحاسبة ورقائق المراقبة و "ذو النون المصرى" ت ٢٤٥هـ. أكبر المتكلمين عن أسرار المقامات والأحوال. و "أبو اليزيد البسطامى" ت ٢٦٤هـ، و "أبو سعيد الخراز" ت ٢٧٧هـ أستاذ مدرسة السلوك القلبى والخلق المثالى و "سهل بن عبد الله التسترى" ت ٢٨٣هـ. مربى العارفين القانتين، وشيخ الطائفة وإمامها "أبو القاسم الجنيد" ت ٢٩٧هـ. الواصل فى مقام التمكين، وأخيرًا الشهيد "الحسين بن منصور الحلاج" الذى بلغ به التصوف كما يقول " ما سنيون " أقصى درجاته الفنية وتحقق فيه الرمز الأعلى للصوفى المحب الفانى.

والحياة الصوفية فى القرن الثالث الهجرى بكل ما فيها من عظمة وإشراق ومحبة وفناء ومشاهدة وفرق وجمع وفتح. كل هذا نشاهده واضحًا مصورًا فى حياة " الحلاج " ونضاله وصراعه واستشهاده حتى رأيناه فى أسواق " بغداد " بقامته الفارعة ولونه الأسمر الجميل، وسمته المهيب، ومنطقه الساحر وهو يهيم على وجهه وقد برحه حبه وهو يصيح: (يا أهل الإسلام أغيثونى فليس – أى الله – يتركنى لنفسى فأتهنى بها، وليس يأخذنى من نفسى فاستريح منها، وهذا دلال لا أطيقه[1].

---

(١) محاضرات فى الأدب للدكتور محمود فرج العقدة، ج١، ص٢٣٠.

والخلاصة أن الحب يرقى بالمحب إلى الدرجات العلا ويسمو بالنفس البشرية فيرتفع بها إلى مصاف السلف الأطهار، والتابعين الأبرار. فمتى كبح المسلم جماح نفسه، وابتعد بها عن الشهوات، ونأى عن المعاصى والملذات صفت سريرته واستنارت بصيرته، ورقت روحه إلى المعراج الأعلى.

مثل هذا يصبح الكون فى كل يديه وتحت سمعه وبصره فلا يرى فى الوجود إلا الله.

والصوفية كلهم من هذا الطراز الفريد. فالحب ديدنهم، وللمعرفة هجيراهم، والأخلاق سجاياهم واقتفاء أثر النبى ﷺ طبعهم ومن كان شأنه ذلك فلا غرو أن يصل إلى درجات السالكين، العارفين. "حيث إن طريق القوم مشيدة بالكتاب والسنة ومبينة على سلوك أخلاق الأنبياء والأصفياء فلا تكون مذمومة إلا أن خالفت صريح القرآن أو السنة أو الإجماع لا غير، وأما إذا لم تخالف فغاية الكلام أنه فهم أوتيه رجل مسلم فمن شاء فليعمل لله ومن شاء تركه"(١).

إن علم التصوف عبارة عن علم انقدح له قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة، فكل من عمل انقدح له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق تعجز الألسنة عن التعبير عنها ..؟ ما انقدح لعلماء الشريعة من الأحكام. حين عملوا بما علموه من أحكامها فالتصوف إنما هو زيدة عمل العبد بأحكام الشريعة إذا خلا من علة العلل وحظوظ النفس كما أن علمى المعانى والبيان زبدة علم النحو، فمن جعل علم التصوف علمًا مستقلاً صدق، ومن جعله من عين الشريعة إلا من تبحر فى علم الشريعة حتى بلغ إلى الغاية.

(١) مقدمة الطبقات للشعرانى، ج١، ص٤.

ثم إن العبد إذا دخل طريق القوم وتبحر فيها أعطاه الله هناك قوة الاستنباط نظير الأحكام الظاهرة على حد سواء فيستنبط فى الطريق واجبات ومندوبات وآداب ومحرمات ومكروهات وخلاف الأولى نظير ما فعله المجتهدون وليس إيجاب مجتهد باجتهاده شيئًا لم تصرح الشريعة بوجوبه أولى من إيجاب ولى الله تعالى حكمًا فى الطريق لم تصرح الشريعة بوجوبه كما صرح بذلك "اليافعى" وغيره.

وإيضاح ذلك أنهم كلهم عدول فى الشرع، اختارهم الله عز وجل لدينه. فمن دقق النظر علم أنه لا يخرج شىء من علوم أهل الله تعالى عن الشريعة وكيف تخرج علومهم عن الشريعة والشريعة هى وصلتهم إلى الله عز وجل فى كل لحظة، ولكن أصل العجب ممن لا إلمام بأهل الطريق أن علم التصوف من عين الشريعة، وكونه هو لم يتبحر فى علم الشريعة ولذلك قال "الجنيد" رحمه الله تعالى: "علمنا هذا مشيد بالكتاب والسنة"[1].

وقال "أبو أحمد القلانسى" رحمه الله تعالى:

(بنيت أصول مذهبنا على ثلاث خصال: لا نطالب أحد من الناس بواجب حقنا، ونطالب أنفسنا بحقوق الناس، ونلتزم أنفسنا التقصير فى جميع ما نأتيه).

وقال "سهل بن عبد الله" رحمه الله: (أصولنا سبعة أشياء: التمسك بكتاب الله تعالى، والاقتداء برسول الله ﷺ وأكل الحلال وكف الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق). وسمعت "الخضرى" يقول: (أصولنا ستة أشياء: رفع الحدث، وإفراد القدم، وهجر الإخوان ومفارقة الأوطان، ونسيان ما علم، وما جهل).

---

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى، ج١، ص٤.

وقال بعض الفقراء: "أصولنا سبعة أشياء: أداء الفرائض، واجتناب المحارم، وقطع العلائق، ومعانقة الفقر، ترك الطلب، وترك الادخار لوقت ثان، والانقطاع إلى الله تعالى فى جميع الأوقات"[1].

فهذه هى أصول مذهب الصوفية: التخلى عن كل ما يشغل عن ذكر الله، وعدم التعلق بالحياة الدنيا، والتمسك بالشظف والفقر والشذوذ بالحرمان فى سبيل الوصول إلى الملأ الأعلى وهو ما يعمل من أجله وفى سبيله كل متصوف.

مفهوم التصوف فى الإسلام:

مر التصوف فى الإسلام بمراحل متعددة وتواردت عليه ظروف ومفاهيم مختلفة ولذلك كثرت تعريفاته وكل تعريف منها قد يشير إلى بعض جوانبه دون البعض الآخر ولكن يظل هناك أساس واحد للتصوف لا خلاف عليه وهو أنه خلقيات مستمدة من الإسلام ولعل هذا ما أشار إليه ابن القيم فى "مدارج السالكين" قائلاً: (واجتمعت كلمة الناطقين فى هذا العلم على أن التصوف هو الخلق) وعبر عنه الكتانى بقوله: (التصوف خلق فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى الصفاء).

التصوف إذن أساسه الخلق وهو بهذا الوضع روح الإسلام لأن أحكام الإسلام كلها مردودة إلى أساس خلقى.

ذلك أننا إذا نظرنا إلى القرآن الكريم فسنجده قد جاءنا بأنواع مختلفة من الأحكام الشرعية، وهى تندرج بوجه عام تحت ثلاثة أقسام رئيسة العقائد والفروع من العبادات والمعاملات والأخلاق.

---

(١) اللمع لأبى نصر السراج الطوس، ص١٨٩.

أما العقائد فتشمل الإيمان بوجود الله الصانع القادر المختار ووحدانيته وعبادته وحده لا شريك له والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

والأحكام الشرعية وتتضمن أحكام العبادات والكفارات والنذور والمعاملات المالية وأحكام الأسرة وأحكام الجرائم والعقوبات المقررة عليها وأحكام الدولة وما إلى ذلك مما هو مذكور فى كتب الفقه بالتفصيل.

بقيت بعد ذلك ناحية الأخلاق فى القرآن فقد وردت فى القرآن آيات كثيرة تحث على مكارم الأخلاق كالزهد والصبر والتوكل والرضا والمحبة واليقين والورع وما إليها مما يندب إليه المسلم ليكمل إيمانه، وقد بين لنا القرآن أن الرسول ﷺ هو الأسوة الحسنة لمن يريد التكمل بهذه الفضائل فى أرقى صورها[1].

وأصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع وتعظيم حرمات المشايخ ورؤية أعذار الخلق والمداومة على الأوراد وترك ارتكاب الرخص والتأويلات.

ويقول أبو بكر الطمستانى: (الطريق واضح والكتاب والسنة قائمان بين أظهرنا وفضل الصحابة معلوم لسبقهم إلى الهجرة وصحبتهم فمن صحب الكتاب والسنة وتغرب عن نفسه والخلق وهاجر بقلبه إلى الله فهو صادق مصيب»[2].

---

(١) مدخل إلى التصوف الإسلامى د. التفتازانى. دار الثقافة بمصر القاهرة سنة ١٩٧٤، ص١٤ : ١٩.

(٢) المرجع السابق، ص ١١.

وهناك قاعدة لابن زروق هـى: (حكـم الفقـه عـام فـى العمـوم لأن مقصده إقامة رسم الدين ورفع منـاره وإظهـار كلمتـه. وحكـم التصـوف خاص فى الخصوص لأنه معالمة بين العبد وربه مـن غـير شـىء زائـد على ذلك.

فمن ثم صح إنكار الفقيه على الصوفى ولا يصح إنكـار الصوفـى على الفقيه ولزم الرجوع من التصوف إلى الفقه والاكتفاء به دونـه ولـم يكف التصوف عن الفقه بل لا يصح دونه ولذلك قيل: (كن فقيهًا صـوفيًا ولا تكن صوفيًا فقيهًا.وصوفىالفقهاء أكمل من فقيه الصوفية وأسلم)[1].

وعن مالك بن أنس عن نافع بـن عمـر قـال: قـال رسـول اللـه ﷺ "لكل شـىء مفتـاح ومفتـاح الجنـة حبـه المسـاكين والفقـراء الصـبر، هـم جلساء الله تعالى يوم القيامة".

فالفقر كائن فى ماهية الصوفية وهو أساسه وبه قوامه.

قال "رويم": (التصوف مبنـى علـى ثـلاث خصـال التمسـك بـالفقر والافتقار والتحقق بالبذل والإيثار وترك التعرض والاختيار).

وقال "الجنيد" وقد سئل عن التصوف:(أن تكون مع الله بلا علاقة).

وقال "معروف الكوفى": (التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدى الخلائق، فمن لـم يتحقـق بـالفقرا لـم يتحقـق بـالتصـوف)[2]. وسـئل "الشبلى" عن حقيقة الفقر فقال: "ألا يستغنى بشىء دون الحق".

---

(١) قواعد التصوف لأبى القياس أحمد بن حنبل بن زروق صححه. محمد زهرى النجـار. راجعه د. على معبد فرغلى. ط. ثانية سنة ١٣٩٦هـ ١٩٧٦م، الناشر مكتبة الأزهر.

(٢) عوارف المعارف للسهروردى ملحق كتاب الإحياء، ص٦٢.

وقال "أبو الحسين النووى": (نعت الفقير السكون عند العدم، والبذل والإيثار عند الوجود)[1].

وسئل أبو محمد الحريرى عن التصوف فقال: (الدخول فى كل خلق سنى والخروج عن كل خلق دنى)[2].

وقيل: نهاية الفقير مع شرفه هى بداية التصوف. وأهل الشام لا يفرقون بين التصوف والفقر يقولون: (فى قول الله تعالى: ﴿ للفقراء الذين احضروا فى سبيل الله ﴾[3] هذا وصف الصوفية والله تعالى سماهم فقراء). وقال "الجنيد" رحمة الله عليه: (التصوف هو أن يميتك الحق عنه ويحييك به)[4] قال "ذو النون المصرى" رحمة الله عليه: (الصوفى من لا يتعبه طلب ولا يزعجه سلب) وقال "رويم": (التصوف استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد)[5].

وقال "عمرو بن عثمان المكى": (التصوف أن يكون العبد فى كل وقت مشغولاً بما هو أولى فى الوقت)[6].

وقال بعضهم: (التصوف أوله علم وأوسطه عمل وآخره موهبة من الله تعالى)[7].

---

(١) المصدر السابق، ص٦٢.

(٢) المصدر السابق، ص٦٢.

(٣) سورة البقرة الآية ٢٧٣ .

(٤) المصدر السابق، ص٦٢، ٦٣.

(٥) عوارف المعارف، ص٦٣.

(٦) عوارف المعارف، ص٦٣.

(٧) عوارف المعارف، ص٦٣.

وقيل: (التصوف ذكر مع اجتماع ووجود مع استماع وعمل مع اتباع)[1].

وقيل: (التصوف ترك التكلف وبذل الروح)[2].

قال "سهل بن عبد الله": (الصوفى من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله من البشر، واستوى عنده الذهب والمدر)[3].

وسئل بعضهم عن التصوف فقال: (تصفية القلب عند موافقة البرية ومفارقة الأخلاق الطبعية، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة الدواعى النفسانية ومنازلة الصفات الروحية والتعلق بعلوم الحقيقة، واتباع الرسول فى الشريعة).

وقال "الجنيد": (الصوفى كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح).

وقال أيضًا: (هو كالأرض يطؤها البر والفاجر وكالسحاب يظل كل شيء، وكالقطر يسقى كل شيء)[4]. وأقوال المشايخ فى ماهية التصوف تزيد على ألف قول، ويطول نقلها ونذكر ضابطًا يجمع معانيها فإن الألفاظ وإن اختلفت متقاربة المعانى. فنقول:

(الصوفى هو الذى يكون دائم التصفية لا يزال يصفى الأوقات عن شوب الأكدار لتصفية القلب عن شوب النفس، ويعينه على كل هذه

---

(١) عوارف المعارف، ص٦٣.

(٢) عوارف المعارف، ص٦٣.

(٣) عوارف المعارف، ص٦٣.

(٤) عوارف المعارف، ص٦٣.

التصفية دوام افتقاره إلى مولاه، فبدوام الافتقار ينقى من الكدر وكلما تحركت النفس وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته النافذة وفر منها إلى ربه، فبدوام تصفيته جمعته بحركة نفسه تفرقته وكدره فهو قائم بربه على قلبه وقائم بقلبه على نفسه، قال الله تعالى: (كونوا قوامين لله شهداء بالقسط)[1] وهذه القوامية لله على النفس هو التحقق بالتصوف)[2].

قال بعضهم: (التصوف كله اضطراب فإذا وقع السكون فلا تصوف والسر فيه أن الروح مجذوبة إلى الحضرة الإلهية يعنى أن روح الصوفى متطلعة منجذبة إلى مواطن القرب والنفس بوضعها رسوب إلى عالمها وانقلاب على عقبها لابد للصوفى من دوام الحركة بدوام الافتقار ودوام الفرار وحسن التفقد لمواقع إصابات النفس ومن وقف على هذا المعنى يجد فى معنى الصوفى جميع المتفرق فى الإشارات)[3].

مما تقدم أستطيع الحكم بأن التصوف فى جملته هو الزهد فى الدنيا وعدم التعلق بأهدابها والجرى وراءها، والانخداع ببريقها، والعمل للدار الآخرة على ضوء الشرعية الإسلامية حيث يقول النبى ﷺ: "ليس بخيركم من ترك دنياه لأخراه ولا آخرته لدنيا، حتى يصيب منهما فإن الدنيا بلاغ إلى الآخرة ولا تكونوا كلا على الناس" ومن هنا على الإنسان أن يعمل للدنيا بقدر ما يغنيه عن السؤال وألا ينخرط فى سلك

---

(١) سورة المائدة الآية ٨ .

(٢) عوارف المعارف للهرودى، ملحق كتاب الاحياء، ص٦٤.

(٣) عوارف المعارف للهرودى، ملحق كتاب الاحياء، ص٦٤.

التمدن الزائف الذى يشغل الإنسان ويلهيه ويدلف به إلى طريق الضلال ويغويه مع تصفية قلبه من شوائب الشنآن والفرك والكراهية فعند ذلك يكون حسن النية سليم الطوية نقى السيرة نظيف السريرة ذلك هو التصوف الحقيقى.

أما من نراهم فى هذا العصر ممن يصفون أنفسهم بالمتصوفة - وذلك بارتدائهم الثياب المرقعة الرثة والحرص على اتساخ أجسادهم وهجر منازلهم وأهليهم فإنهم يصبحون بذلك عالة على غيرهم ومناظرهم في الموالد وهم يقيمون الأذكار تعد مناظر سيئة يبرأ الإسلام منها، ويتقلص عنه التصوف بسببها فضلاً فى أن هذه الأشياء حجة على التصوف الإسلامى وليست حجة له، فالتصوف الإسلامى لا يعيبه أن يكون المتصوف نظيف الثياب جميل الهندام حسن الهيئة زكى الرائحة مع صفاء سريرته، ونقاء ضميره، فالرسول ﷺ وهو القدوة الحسنة فى كل شىء كان مثالاً يحتذى فى الطهر والنقاء والنظافة والصفاء فكان يشمئز من الرائحة الكريهة، ويحب الرائحة العطرة، وعلمنا ألا نغشى الاجتماعات أو ندخل المساجد وفينا شىء ينفر الناس أو يثنيهم عن تأدية عباداتهم كاملة، وهو الصوفى الأول الذى لا يزال الصوفيون ينهلون من ينابيعه الثرة، ويقتفون أثره ﷺ.

أول من تسمى بالصوفى:

يؤدى بنا البحث فى لبس الصوف إلى قضية بدأت فى الكوفة وذلك أن أول من تسمى بالصوفى كان رجلاً كوفيًا، ولعل ذلك دليل آخر على ما سقناه من علة اختيار الزهاد الصوف لباساً لهم، والباحثون مختلفون فيمن هو أول من تسمى "بالصوفى" وتدور أخبارهم فى هذا

الشأن حول ثلاثة من الزهاد الكوفيين هم: "جابر بن حيان"، و "أبو هاشم الكوفى" و "عبدك الصوفى"[1].

أولاً: جابر بن حيان:

تلميذ الإمام جعفر الصادق وقد أورد عنه ابن القيم أنه "المعروف بالصوفى" ومهما يكن من أمر فإن كتب الشيعة القديمة لم تورد اسم "جابر بن حيان" فى سلسلة سند أى حديث ينسب إلى جعفر الصادق. ثم أن صلة جابر بالتصوف اسمية لأنه لم يكن صاحب مجاهدة أو خوف أو ناطقًا بأقوال زهدية وإنما نقل عنه اشتغاله بالكيمياء.

وقد التفت السيد هبة الدين الشهرستانى من مجتهدى الشيعة العصريين إلى هذه النقطة فروى لنا عن أستاذه شيخ الشريعة "الأصفهانى" أن تسمية "جابر بن حيان" بالصوفى ليست منسوبة إلى الصوف وإنما النسبة إلى "سوفيا" اليونانية بمعنى الحكمة فقيل "سوفى" ثم أشبع العرب السين فأصبحت "صوفى" و "صوفية" ولم يكن هذا الفيلسوف العظيم حاملاً لأى مبدأ من مبادئ الطريقة الصوفية[2].

ثانيًا: أبو هاشم الكوفى:

هو عثمان بن شريك الكوفى الصوفى، وقد ذكر "الجامى" أنه كان فى الشام وهو كوفى الأصل وكان مزامنًا "لسفيان الثورى" ويذكر أن هذا قال فيه: "لولا أبو هاشم ما عرفت دقائق الرياء" ويذكر أنه بنى بيتًا أو خانقًا للصوفية فى الرملة.

---

(١) الصلة بين التصوف والتشيع د. كامل مصطفى الشيبى الأستاذ بجامعة بغداد، ص٢٦٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٦٥، ٢٦٦.

ويورد "محمد كرد على أن أول من تسمى بالصوفى من أهل السنة هو أبو هاشم الكوفى وكان من النساك يجيد الكلام وينطق بالشعر كما وصفه الجاحظ[1].

ثالثاً: عبدك الصوفى:

أما الزاهد الكوفى الثالث الذى سمى بالصوفى فهو "عبدك" الذى يذكر د. قاسم غنى نقلاً عن "ماسينيون" أنه كان آخر شيوخ فرقه الصوفية نصف شيعية تأسست فى الكوفة وظهرت كلمة صوفية فى آثار "المحاسبى" و "الجاحظ" اسمًا لها، وأن عبدك "كان رأس فرقة من الزنادقة الذين زعموا أن الدنيا كلها حرام محرم لا يحل الأخذ منها إلا القوت من حيث ذهب أئمة العدل ولا تحل الدنيا إلا بإمام عادل وإلا فهى حرام ومعاملة أهلها حرام. فيحل لك أن تأخذ القوت من الحرام من حيث كان"[2].

وواضح من التاريخ أن "جابر بن حيان" الكيميائى لا تصدق عليه كلمة "صوفى" لا من قريب ولا من بعيد وإنما يصدق عليه لفظ "حكيم" لأنه نبغ فى علم الكيمياء وطبقت شهرته الآفاق فهو مشهود له بالبراعة والتفوق فى هذا المضمار وأعتقد أن الذى أطلق عليه حقيقة هو كلمة "سوفى" بالسين أى "حكيم" ولا أستبعد أن يكون هذا الاسم قد أطلقه الغربيون عليه لإفادتهم منه فى هذا العلم.

وأما "عبدك الصوفى" فإن كتب التصوف القديمة والحديثة لم تورد لنا ولو كلمة واحدة تحكم بها عليه: أنه اشتم رائحة التصوف أو استنشق

---

(١) المرجع السابق، ص٢٦٩.

(٢) المرجع السابق، ص٢٧١.

عبير الزهد أو تمتع بأريج الشظف كما أننا لم نقرأ له، ولا عنه فى التصوف لا شعرًا ولا نثرًا ولا حكمًا ولا أثرًا من الآثار يدل على أنه صوفى فضلاً عن أن يكون أول من تسمى بالصوفى.

والذى أرجحه – وهو قوى لدى – أن أول من تسمى بالصوفى هو "أبو هاشم" وذلك بشهادة "سفيان الثورى" حيث قال فيه: (لولا أبو هاشم ما عرفت دقائق الرياء). ورجل كأبى هاشم يعرف دقائق الرياء – وهي قمة العلم والمعرفة والفطنة – تعلم منه سفيان الثورى ذلك .. هو أحرى الصوفيين بالتقدم والابتداء.

ودليل آخر وهو قول "محمد كرد" إن أول من تسمى بالصوفى من أهل السنة "أبو هاشم الكوفى" وشهادة "الجاحظ" أنه كان من النساك يجيد الكلام وينطق بالشعر وذلك دليل ثالث على تقدمته وتسميته بالصوفى لأنه عالم بالسنة ودقائق الرياء مجيد للقول محسن لعروض الشعر، فكل هذه السجايا وتلك الخلال والعطايا الربانية والمواهب الإلهية والمنن اللدنية: حرية بالسمو بمثل هذا الصوفى الزاهد ورفعه فوق أقدار الصوفية جميعًا وبتويجه عليهم فيصير بذلك أولهم والمتقدم فيهم.

التصوف والعلم:

هل يلج العلم بملاحظته واستقرائه حصن التصوف؟ – إنه إذا فعل ذلك فإنه لن يلاحظ إلا الشكل الخارجى ولن يهتم إلا بالمظهر الشكلى ولا شيء بعد ذلك من روح التصوف وجوهره، ومعنى هذا هو الإخفاق التام.

ولقد أخفق – حتى الآن – علم النفس كما أخفق علم الاجتماع إخفاقًا كاملاً فى الوصول إلى كنة التصوف وحقيقته بل إن الدراسات

النفسية الحديثة، والدراسات الاجتماعية العصرية أفسدت الفكرة عن التصوف إفسادًا تامًا شأنها فى ذلك شأن كل ما اتصلت به من الدراسات التي يعتريها القصور فى البحوث الخاصة بالروح وبالوحى وبالإلهام السماوى وبالدين على وجه العموم.

إن الدراسات النفسية الاجتماعية الحديثة حددت نفسها بالمادة وتقيدت بالظواهر المادية المحسوسة الملموسة المرئية أو المسموعة أو المذوقة مذاقاً حسيًا أو المشمومة، وهى تعترف اعترافًا صريحًا لا لبس فيه أن مجالها هو المجال المادى وأن كل ما خرج عن المجال المادى لا يدخل تحت مرصدها ومخبرها ومسيرها وإذن لا يدخل فى إطار بحثها، والتصوف روح وإلهام وإشراق فلا يدخل فى مجالها. ومن هنا كان اكتفاء هذه الدراسات بالمظهر والشكل ومن أجل ذلك كان اخفاقها كاملاً وفشلها ذريعًا.

إن ما نسميه العلم الحديث إنما هو العلم السائد فى أوربا وفى أمريكا فى العصر الحاضر – وقد ألزم نفسه إلزامًا تامًا ألا يخرج عن دائرة المادة وحدد دائرته تحديدًا دقيقًا بأنها المادة إلى درجة أن كل من يخرج عن المادة لا يسمونه عالمًا وأن كل بحث فى غير دائرة الملاحظة المحسوسة لا يسمونه بحثًا علميًا ومن أجل ذلك كان ما قيل بلسان العلم عن التصوف لا يمس فيه إلا المظهر والشكل ولا فائدة فيه البتة من حيث الروح والجوهر[1].

والعلم بهذه الطريقة وتلك الخاصية فى اعتماده على الاستقراء والاستنباط والتجربة والتطبيق لايستطيع أن يقتحم باب التصوف أو

---

(١) غيث المواهب الجلية فى شرح الحكم العطائية لأبى عبدالله الرندى، د. عبدالحليم محمود.

يحوم حوله – فرق شاسع بين علم مادى يعتمد على المدركات ولا يؤمن إلا بالمحسوسات ولا يصدق إلا المرئيات والمشاهدات، وبين علم مصدره الإشراق ووحيه الإلهام وأساسه النورانية وقوامه الإيمان بالله وحده وعماده الزهد فى الدنيا وحرمان النفس من شهواتها وكبح جماحها عن ملذاتها والإعراض عن زخرف فى الدنيا وعدم الاغترار بزينتها، فلا يستطيع العلم المادى بملاحظاته واستقراءاته ودراساته الحديثة أن يلج حصن التصوف إلا بعد أن يؤمن صاحب الدراسات المادية بالله ربًا وبمحمد نبيًا ورسولاً. ويعمل على غرار الصوفية.

عند ذلك يصبح العلم المادى فى خدمة العلم الروحى.

التصوف والعقل:

أنلجأ إذن إلى العقل ؟ ببحثه المنطقى وإلى استنتاجاته الناشئة من المقدمات والأقيسة؟ أيقودنا العقل آمنين فى بحار التصوف غير المحدودة وفى رياضه التى لا تنتهى من حيث كونها نفحات من الترويحات الإلهية غير النهائية.

ولكن المعروف أن العقل لا يدور إلا فى تلك المادة لأنه يتسامى إلى السماء فيبحث بأقماره وسفنه وصواريخه بين أرجائها الشاسعة ومساحاتها الرحبة، ويغوص فى أعماق البحار فيظهر مكنوناتها ويكشف عن أسرارها، ويتعمق فى طبقات الأرض فيخرج من أثقالها ويزيل الغموض عن معمياتها، إن مبتدع الصنعة من الإبرة إلى الصاروخ ومخترع الكيمائيات سهلة أو معقدة، ومكتشف النواميس الكونية فى الأرض وفى السماء وما بينهما وهو أساس العلم الكسبى علم التوليد والاستنتاج والاستنباط على أشكاله المختلفة ومناهجه المتعددة.

ولكن هذا العقل الذى مجاله المادة استنتاجًا واستنباطًا - لا شأن له بالغيب الإلهى ولا شأن له بمسارات الملأ الأعلى - فلا شأن له بكشف المحجوب الروحى - ولا شأن له بمعارج القدس، ولا بمنازل الأرواح.

لقد أخفق العقل فى إيجاد مقياس عقلى نقيس به الصحة والخطأ فى عالم الروح وعجز عن اختراع يفصل به بين الحق والباطل فى مجال الغيب وقد أخفق منهج "أرسطو" وأخفق منهج "ديكارت" وأخفق إلى الآن كل منهج عقلى يراد منه أن يصل بنا إلى عالم الإلهية ليعرفنا أسراره ويسير بنا فى مساراته.

وإخفاق العقل فى عالم التصوف قضية اعترف بها اعترافا صريحا "فيثاغورث"، و "أفلاطون" و "أفلوطين" واعترف بها "الكندى" و"الفارابى" و "ابن سينا" واعترف بها "الغزالى" وجميع الصوفية على الإطلاق.

وقد اعترفوا بها لما علموا من أن العقل لا يتأتى له أن يخرج عن دائرة المادة. بل أن الخيال نفسه وكذلك الوهم لا يخرج كلاهما عن دائرة المادة.

واعترفوا بها لما رأوه من خلال التاريخ الفكري للإنسانية من أن العقل وقف أمام منازل الروح ومعارج القدس عاجزا لا يحد جوابا.

لقد اعترفوا بها وبرهنوا. وكان منطقهم من السلامة بحيث صدقه الواقع التاريخي. وليس ذلك بقادح فى العقل فله مجاله الضخم فى رحاب الكون، وفى أغوار الأرض، وفى أقطار السماء وعليه وبه قامت الحضارة المادية الحديثة متسلطة غلابة[1].

---

(١) غيث المواهب للرندى، ص٧، ٨.

إن العقل البشرى الذى أرخى له صاحبه العنان فسبر أغوار الأرض وخبر كنه الطبقات العليا فى الجو، وفكر فصنع الصاروخ وسفن الفضاء، لو أن صاحب هذا العقل استخدمه ووجهه وجهة إيمانية لسبر أغوار النفس البشرية كما سبر أغوار الفضاء، وخبر حقيقتها ووقف على أسرارها، كما اكتشف أسرار الأرض وكنوزها. وعند ذلك يصل إلى معارج السالكين، ويقف على قدم المساواة مع الصوفية المخلصين.

وما فشلت هذه المناهج الأفلاطونية والكارتيزية وأمثالها إلا لأنها لم تتخذ الإيمان وجهتها، ولا الإسلام نصب عينيها، فكانت مناهجها مناهج شيطانية خلوا من الدين، بعيدة عن الروح الإسلامية. ولذلك يقول الله تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾[1]. وها دليل على الإيمان بالله.

المنهج الصوفي:

وإذا عجز المنهج العلمى المادى عن فهم التصوف فى حقيقته وجوهره وعجز المنهج العقلى كذلك، فإن الصوفية جميعًا وفلاسفة الإشراق منذ "فيثاغورث" و "أفلاطون" إلى الآن يعلنون منهجًا محددًا يقدرونه جميعًا ويثقون فيه ثقة تامة، ذلك هو المنهج القلبى أو المنهج الروحى، أو منهج البصيرة وهو منهج معروف أقرته الأديان جميعًا واصطفته مذاهب الحكماء القديم منها والحديث.

يقول سبحانه: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً﴾[2] .

---

(١) سورة العلق الآية ١ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٣٦ .

إنه سبحانه ذكر الفؤاد على أنه مسئول مثله فى ذلك مثل السمع فى محيطه، والبصر فى محيطه.

والإمام الغزالى – معبرًا عن رأى الصوفية، وعن رأى فلاسفة الإشراق – بين أن الدليل القاطع على أن هناك معرفة ليس مرجعها إلى الحس ولا إلى العقل: إنما هما أمران أحدهما عجائب الرؤيا الصادقة، فإنه ينكشف بها الغيب وإذا جاز ذلك فى النوم فلا يستحيل أيضًا فى اليقظة. فلم يفارق النوم اليقظة إلا فى ركود الحواس، وعدم اشتغالها بالمحسات. فكم من مستيقظ غافل لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه.

ثانيهما أخبار رسول الله ﷺ عن الغيب، وأمور المستقبل، إذا صار ذلك للنبى ﷺ جاز لغيره، إذ النبى عبارة عن شخص كشف بحقائق الأمور وشغل بإصلاح الخلق فلا يستحيل أن يكون فى الخلق شخص كاشف بالحقائق، ولا يشتغل بإصلاح الخلق وهو لا يسمى "وليًا". فمن آمن بالأنبياء، وصدق الرؤيا الصحيحة لزمه لا محالة أن يقر بالبصيرة أو بتعبير آخر يقر بباب وينفتح على عالم الملكوت، وهو باب الإلهام والنفث فى الروع والوحى.

والإمام الغزالى يتثبت بالرؤيا برهانًا ودليلاً أن هناك آلة للمعرفة غير الحس والعقل ويرد ذلك فى كثير من كتبه. ولكنه لا يكتفى بهذين الوجهين من الاستدلال بل يأتى بشواهد الشرع فيذكر قول الله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾[1]. وقوله ﷺ : (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم). وقوله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٦٩ .

يجعل لكم فرقاناً﴾[1] قيل نوراً يفرق به بين الحق والباطل، ويخرج بــه من كل الشبهات. وسئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾[2] ما هذا الشرح؟ فقــال: هــو التوسعة. إن النور إذا أقذف به فى القلب اتسع له الصدر وانشرح.

وقال عليه الصلاة والسلام: (إن من أمتــى محدثيــن ومعلميــن ومكلمين وأن عمر منهم، والمحدث هو الملهم، والملهم هو الذى انكشف له الحق فى باطن قلبه من جهة الداخل لا من جهة المحسات الخارجية، والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف. ولــم يكــن علــم الخضر عليه السلام علما حسيا أو عقليا: وإنما هو العلم الربانى، وإليــه الإشارة بقوله: ﴿وعلمناه من لدنا علما[3] ﴾[4].

المنهج الصوفى منهج إسلامى:

المنهج الصوفى إذن منهج إسلامى صحيح سليم لا غبار عليه، ثم هو منهج فلسفى – على الرغم من معارضة الفلاسفة العقليين – يقــره الكثير من كبار الفلاسفة .

منابع التصوف الإسلامى:

إن حركة الزهد والرهبنة والانقطاع إلى عبادة الله فــى الأديــرة والصوامع والكهوف من الجبال وفى الخلوات كانت موجودة فى كثــير من الديانات القديمة السماوية والوثنية، وأهل الهند مشهورون بذلك مــن

---

(١) سورة الأنفال الآية ٢٩ .

(٢) سورة الزمر الآية ٢٢ .

(٣) سورة الكهف الآية ٦٥ .

(٤) غيث المواهب للرندى، ص٩، ١١.

قديم حتى اليوم، والزهد عندهم هو المعنى المقابل للتصوف الإسلامي. أما التصوف بالمعنى الخالص فهو إسلامي محض. يقول القشيري في رسالته: أما بعد - رضي الله عنكم - فقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضلهم على عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم وجعل قلوبهم معادن أسراره، واختصهم بين الأمة بوالع أنواره، فمنهم الغيث والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق، بالحق صفاهم من كدورات البشرية ورفعهم إلى مجال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق ووفقهم للقيام بآداب العبودية، وأشهدهم مجارى أحكام الربوبية، فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف وتحققوا بما منحه - سبحانه - لهم من التقليب والتصريف ثم رجعوا إلى الله تعالى بصدق الافتقار، ولفت الانكسار ولم يتكلموا على ما حصل مع الأعمال، أو صفا لهم من الأحوال علمًا منهم بأنه جل وعلا يفعل ما يريد ويختار من يشاء من العبيد، وثوابه ابتداء فضل، وعذابه حكم عدل، وأمره قضاء[1]. ويقول السهروردي في "عوارف المعارف": اعلموا رحمكم الله أن شيوخ هذه الطائفة (الصوفية) بنوا قواعدهم على أصول صحيحة في التوحيد صانوا بها عقائدهم عن البدع ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس نيل تمثيل ولا تعطيل، وعدوا ما هو حق القديم، وتحققوا بما هو نعت الموجود من العدم. ولذلك قال سيد هذه الطائفة "الجنيد رحمه الله": (التوحيد إفراد القديم عن الحدث، وأحكم أصول العقائد بواضح الدلائل ولائح الشواهد، فالقرآن الكريم شرح التصوف بآياته الباعثة على التقوى والآمرة بالإخلاص واليقين والتوكل وحسن العبودية لله، وغير ذلك.

---

(١) الرسالة القشيرية تحقيق الإمام المرحوم د. عبد الحليم محمود ، د. محمود الشريف.

وتلك الآيات تشغل من القرآن ما يقارب نصف مجموعه، والباقى فى تشريع العبادات والمعاملات، فتصطفى السالفين لتكون عبرة وذكرى للمتذكرين. ولكل من كان له قلب أو ألق السمع وهو شهيد. ففى قوله تعالى: ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفًا ﴾[1] وفى قوله تعالى: ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ﴾[2]. وفى قوله: ﴿لمن كان له قلب﴾[3] وقوله: ﴿ إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون ﴾[4] وفى قوله تعالى: ﴿إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾[5]، وفى قوله: ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[6] . أى العلماء به، وفى قوله: ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا ﴾[7] . وفى قوله: ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ﴾[8]. وفى قوله: ﴿ والذين جاهدوا

---

(١) سورة الروم الآية ٣٠ .

(٢) سورة الكهف الآية ٢٨ .

(٣) سورة ق الآية ٣٧ .

(٤) سورة يونس الآية ٦ .

(٥) سورة آل عمران الآية ١٩٠ - ١٩١ .

(٦) سورة فاطر الآية ٢٨ .

(٧) سورة الفرقان الآية ٦٣ .

(٨) سورة فصلت الآية ٣٠ .

فينـــا لنهدينهم سبلنا ﴾[١] وفى قوله تعالى: ﴿ عبادى ﴾[٢]، ﴿ وعبادنـا ﴾[٣] ﴿ ويحبهم ويحبونه ﴾[٤] و ﴿ رضى اللــه عنهم ورضـوا عنـه ﴾[٥] وفـى سـائر الآيـات التـى تذكـر المحسنين والصـادقين والموقنيـن الصـابرين والراضين والمتوسـين والتـى منهـا ﴿ أولئك حـزب اللـه ... ﴾[٦] وذكـر المتقين فى قوله ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[٧].

وكذلك كل الآيـات التـى تحث علـى النظـر فـى خلـق السـموات والأرض وفى الأفاق والأنفس كل ذلك يدلل علـى أن أصـل التصـوف الإسلامى الحق وقواعده – وهى ليست غير هذا –: مسـتمدة مـن كتـاب الله. ولك فى استثناء اللـه لأحبائـه وأهل معينـة مـن خاصـة المسـلمين والمؤمنين فى قوله تعالى: ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهـم لذكـر الله وما نزل من الحق ﴾[٨] .

وهى هذه الآية يخاطب الله المؤمنين الذين قطعـوا شـوط الإسـلام بأحكامه وآدابه ثم ترقوا إلى مرتبة الإيمان وهم بهـذا صـفوة المسـلمين. وفـى قوله (ألم يأن) أى ألم يأت الوقت وألم يحن الحين للذين آمنـوا بعد أن أسلموا – أن تخشع قلوبهم لذكر الله، فيكونوا من المحسنين، وخـص

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٦٩ .

(٢) وردت فى أكثر من موضع من هذه المواضع سورة الحجر الآية ٤٩ .

(٣) سورة الكهف جزء الآية ٦٥ .

(٤) سورة المائدة الآية ٥٤ .

(٥) سورة البينة الآية ٨ .

(٦) سورة المجادلة الآية ٢٢ .

(٧) سورة الحجرات الآية ١٣ .

(٨) سورة الحديد الآية ١٦ .

هنا الذكر لفضله على سائر العبادات. كالصلاة نفسها لأنها على فضلها بعض الذكر، وليس الذكر على شموله بعض الصلاة. وهذا ظاهر فى قوله تعالى : ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾[١] بعد قوله: ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾[٢] أى إن الذكر أكبر شأنًا وأعظم درجة برتبه الثلاث باللسان أو بالقلب أو بالروح.

(وما نزل من الحق) معناه الذى نزل فى الكتاب من عند الله من الدلالات الباعثة على الفكر والذكر وحسن المعتقد وصحيح العبادات والمعاملات والمفروض أن يذكر أن العاصى أو الناسى. أما أن يذكر المؤمنون فهذا شيى هائل معناه أن تفزع تلك القلوب التى أسلمت ثم آمنت إلى اعتلاء ذروة اليقين بغية التعرف الحق إلى الله جملة وتفصيلاً. وهذا مقام لا يخاطب فيه إلا أهل الإحسان وهم أهل التصوف الحق. (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير)[٣].

ويجعل المستشرق (ماسينيون) التصوف دخيلاً على الإسلام تمهيدًا لتخريج رجاله، فسلك طريقًا عجيبًا ليوهم أن لرأيه أسانيد علمية وتاريخية وسابقة من الأفكار الإسلامية فقال:

(إن علماء الإسلاميات لمحارون فى تعليل الخلاف الكبير فى العقيدة بين مذاهب التصوف وبين مذاهب أهل السنة). ومن ثم ذهب إلى أن التصوف دخيل على الإسلام بعيد عن روحه، ولم يذكر لنا (ماسينيون) من علماء الإسلاميات الذين قالوا هذا؟ ولم يسق دليلاً على دعواه[٤].

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٥ .

(٢) سورة العنكبوت الآية ٤٥ .

(٣) سورة الحجرات.

(٤) توصيات فلسفة فى الإسلام للمستشرق ماسينيون ترجمة د. عبد الرحمن بدوى.

وأما المستشرق "ماركس" فقد قال: (إن التصوف الإسلامى مأخوذ من رهبانية الشام خاضع للروحانية المسيحية وذلك منطق نعرفه من أمثال المستشرق "ماركس" وصحبه الذين بذلوا حياتهم صائحين بأن الإسلام عقيدة جافة مادية بعيدة عن الروحانية. فلما وجهوا بالتصوف تنادوا بأنه من وحى المسيحية ومن إلهام رهبانيتها.

وذهب "جونس" إلى أنه مأخوذ من أفلاطونية اليونان الحديثة، أو من زراد وثنية الفرس، أو بمعنى آخر يريد أن يقول إن التصوف الإسلامى وثنى لأن فلسفة اليونان وثنية، وكذلك الفلسفة الفارسية.

وذهب "نيكالسون الفرنسى" إلى أن الزهاد المسلمين - الصوفية) قد تشبهوا برهبان النصارى فى لبس الصوف، ولذلك ذهب مذهب "ماسينيون".

وواضح أن الهدف من هذا القول المغرض هو الكيد للإسلام كيدًا بينًا. وهذا دائمًا ديدنهم، وتلك هى سجاياهم يدسون السم فى العسل، فظاهر قولهم رحمة وباطنه عذاب، فالتصوف منهج إسلامى محض، حيث إن القرآن الكريم كتاب الله وبيانه ووحيه وتنزيله وهداه وسبيله. به قصم الله ظهر كل شيطان مريد، وأذل به كل جبار عنيد، هو الذى أحنى رأس الوليد، وألان قلب عمر، ودعا إلى الزهادة فى الدنيا بتحقير شأنها وتقبيح زينتها وعدم الاعتزاز بها،والجرىوراء بهرجها الكذاب، وزخرفها الخداع، لأن متاعها قليل، وظلها زائل، وكل ما فيها عارية مستردة.

وهذا كله فى الحقيقة دعوة إلى التصوف. فالتصوف لا يخرج عن كونه زهدًا وتقشفًا، وعدم إقبال على الدنيا وعملاً للآخرة، وهذا منهجه

وذلك مسلكه، فكيف يدعى هؤلاء أنه مستمد من المسيحية أو رهبا فيها.

إنها فرية لا تحتاج إلى دليل فى تكذيبهـا، كمـا أن السنة المطهرة وهى المصدر الثانى فى التشريع دعت إلى ما دعـا إليـه القرآن الكريم من طرح الدنيا وجعلها معبرًا للآخرة، لأنها وسيلة، لا غاية.

وحسبنا فى ذلك سلوك رائدنـا ومعلمنـا وزعيمنـا محمد ﷺ الذى خاطبه المولـى بقولـه: ﴿ قل متـاع الدنيـا قليـل والآخـرة لمـن اتقـى ولا تظلمون فتيلا ﴾[1] .

والذى يقلب صفحات السيرة النبوية العطرة يجد نماذج كثيرة تبين له بجلاء ووضوح تأمين مدى ما صبر عليـه نبينـا مـن شـظف وتزهـد. وهو الذى لو أراد الدنيا ومتاعها لأتته طوعًا. بل لقد أتتـه ولكنـه تركهـا وصرف عنها، ففى الحديث عن عائشة: "كنا نمكث الهلال ثم الهلال ثـم الهلال ثلاثة أهلة ولا يوقد فى بيت النبوة نار".

من هذا كله نستنبط أن التصوف منهـاج إسـلامى، كمـا أن مشـاهد القيامة فى القرآن الكريم، التى لم يذكر لفظهـا فـى تـوراة اليهـود البتـة، وذكرت فى إنجيل النصارى ذكـرًا عرضيًا - هـى أكبر دليل علـى أن التصوف إسلامى لحمة وسدى فـالتصوف: عرفـه العـرب قبـل الإسـلام وتخلقوا به لعهد الرسول ولكن يظهر أنه لم يكن ملحوظًا فى كلام الناس ولـم يختصـوه بـدرس ولا بيـان، وكـانت الأعمـال الروحيـة تتـدرج فـى الأعمال الدينية، وأول من لفت الناس إلى كلامه فـى المعـانى الوجدانيـة وأسرار القلوب هو "حذيفة بن اليمان" الصحـابى الجليل، وقد قيل لـه:

---

(1) سورة النساء الآية ٧٧ .

نراك تتكلم فى هذا العلم بكلام لا نسمعه من أحد من أصحاب رسول الله فمن أين أخذته؟ فقال: "خصني به رسول الله ﷺ . كان الناس يسألونه الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه، وعلمت أن الخير لا يسبقني". وقال مرة: (فعلمت أن من لا يعرف الشر لا يعرف الخير). وفى لفظ آخر: (كان الناس يقولون يا رسول الله ما لمن عمل كذا وكذا. يسألونه عن فضائل الأعمال وكنت أقول: يا رسول الله ما يفسد كذا وكذا؟ فلما رآني أسأل عن آفات الأعمال خصني بهذا العلم"[1].

قال المكي: وكان حذيفة قد خص بعلم المنافقين، وأفرد بمعرفة علم النفاق وسرائر العلم ودقائق الفهم وخفايا اليقين من بين الصحابة، فكان عمر وعثمان وأكابر أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن الفتن العامة والفتن الخاصة ويرجعون إليه في العلم الذى خص به. وكان يستكشفه عن نفسه، هل يعلم فيه شيئًا من النفاق، فرآه منه، ثم يسأله عن علامات النفاق، وآية المنافق، فيخبر عن ذلك بما يصلح مما أذن له فيه، ويستعفى مما لا يجوز له أن يخبر به فيعذر فى ذلك[2].

ويقول د. زكى مبارك: ومعنى هذا أن الرسول كان يكتم أسرار التصوف، ولا يمنحها غير الخواص، ومعناه أيضًا أن التصوف هو البصر بأسرار القلوب، وما يعرض لها من دقائق الرياء والنفاق.

وعن حذيفة بن اليمان تعلم الحسن البصرى، وهو إمام الصوفية وكانوا أثره يقفون، وسبيله يتبعون، ومن مشكاته يستضيئون.

---

(١)

(٢) قوت القلوب لأبى طالب المكى.

ويقول المكي: وكان الحسن رضى الله عنه أول من أنهج سبيل هذا العلم، وفتق الألسنة به، ونطق بمعانيه، وأظهر أنواره، وكشف قناعه، وكان يتكلم فيه بكلام لم يسمعوه من أحد من إخوانه، فقيل له: يا أبا سعيد: إنك تتكلم فى هذا العلم بكلام لم نسمعه من أحد من غيرك، فممن أخذت هذا؟ فقال: من حذيفة بن اليمان[١].

وكانت طريقة الصحابة والتابعين طريق الحق والهداية، والعكوف على العبادة، والانقطاع عن زخرف الدنيا والزهد والخلوة للعبادة. فلما فشى الإقبال على الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية، ولما اختصوا بالزهد والإقبال على العبادة اختصوا بمدارك خاصة ، وأصل طريقتهم محاسبة النفس، ولهم آداب مخصوصة، واصطلاحات ليست لغيرهم من أهل الشريعة والكلام[٢].

مما تقدم نفهم أن منابع التصوف الإسلامى هى: القرآن والسنة المطهرة، حيث كانت النسبة فى زمن الرسول ﷺ إلى الإيمان والإسلام، فيقال مؤمن ومسلم. ثم حدث اسم زهد وعابد ثم نشأ أقوام انقطعوا إلى عبادة الله وتخلوا عن الدنيا وفروا إلى الله بأعمالهم الصالحة وتبتلهم إليه فى خلواتهم، فسموا بالمتصوفة.

فالتصوف إسلامى حيث إنه مستمد من كتاب الله وسنة رسوله كما ذكرنا آنفًا.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) مقدمة ابن خلدون، ص٢٦١، ط. أولى، القاهرة، ١٩٦٠.

ظهور كلمتي صوفي ومتصوف

وأصل هاتين الكلمتين

سبق أن ألمحنا إلى أن أول شخص وقف نفسه كلية لخدمة الله عز وجل هو رجل اسمه "صوفه" وكان يقيم بجار الكعبة واسمه الحقيقي "غوث بن مر" والزهاد الذين كانوا يشبهونه من حيث الانقطاع عما سوى الله سموا بـ "الصوفية" وقالت جماعة: إن التصوف منسوب لأهل الصفة وهم رهط من الفقراء المعوزين الذين انقطعت صلتهم بأهلهم من مساعي صدر الإسلام ممن كانوا يسكنون في صفة مسجد رسول الله ﷺ وكانوا يعيشون على الصدقات وأصبحوا في غنى بعد الفتوحات الإسلامية لكن النسبة إلى أهل الصفة خطأ إذ لو كانوا ينسبون إلى أهل الصفة لسموا: بالصفية ويقول السمعاني في "الأنساب عن نسبة الصوفي" هذه النسبة اختلفوا فيها. فمنهم من قال: هي منسوبة إلى لبس الصوف، ومنهم من قال: هي من "بني صوفة" وهي جماعة من العرب كانوا يتزهدون ويقللون من التهافت على الدنيا فنسبت هذه الطائفة إليهم، وقد ذهب إلى أنه بقلة رعناء قصيرة فنسبوا إليها لاحتزائهم بنبات الصحراء، وهذا أيضًا غلط لأنه لو نسبوا إليها لقيل: "صوفاني".

وقال آخرون: هو منسوب إلى " صوفة القفا " وهي الشعرات النابتة في مؤخرة الرأس، كأن الصوفي عطف به إلى الحق، وصرفه عن الخلق.

وقال آخرون: بل هو منسوب إلى الصوف.وهذا يحتمل والصحيح الأول[1].

---

(١)

هذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مائتين. ويقول ابن خلدون فى المقدمة: (كانت طريقة الصحابة والتابعين طريق الحق والهداية، والعكوف على العبادة والانقطاع عن زخرف الدنيا، والزهد والخلو للعبادة، فلما فَشَا الإقبال على الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم: "الصوفية" ولما اختصوا بالزهد والإقبال على العبادة اختصوا بمدارك خاصة، وأصل طريقتهم محاسبة النفس، ولهم آداب مخصوصة واصطلاحات ليست لغيرهم من أهل الشريعة والكلام[1].

ويقول القشيرى وهو من صوفية أواخر القرن الرابع: وقد عاش حتى أواسط القرن الخامس - فى الرسالة القشيرية "هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة فيقال: "رجل صوفى" وللجماعة "صوفية" ومن يتوصل إلى ذلك يقال له "متصوف" وللجماعة المتصوفة وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس، ولا اشتقاق، والأظهر فيه أنه للقب([2]).

أما ما قيل من أن كلمة "الصوفى" اسم جديد استحدثه أهل بغداد فهذا محال. لأن هذا الاسم كان معروفًا فى عهد "الحسن البصرى" وقد أدرك الحسن البصرى صحبة جماعة من أصحاب الرسول ﷺ . وروى عنه قوله: (رأيت صوفيًا فى الطواف فأعطيته شيئًا فلم يأخذه وقال: معى أربعة دوانق فيكفينى ما معى). ويروى عن "سفيان الثورى" أنه قال: (لولا أبو هاشم الصوفى لم أكن أعرف دقائق الرياء).

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٢٦١ أخبار. رضوان إبراهيم مراجعة أحمد زكى، وزارة الثقافة، ط. أولى، القهرة. عيسى الحلبى.

(٢) الرسالة القشيرية للإمام القشيرى تحقيق د. عبد الحليم محمود، محمود ابن الشريف، ص١٢٦،

وكذلك يروى فى كتاب "أخبار مكة" عن "أحمد بن إسحاق بن يسار" أنه قال: (حدثني جماعة أن مكة كانت تخلو قبل الإسلام أحيانًا بحيث لا يكون فيها أحد للطواف بالبيت ويحدث أنه كان يأتى من إحدى البلاد البعيدة رجل صوفى ويطوف ثم يعود). ولو صح هذا الحديث لدل على أن اسم "الصوفى" كان معروفًا قبل الإسلام وكانت جماعة أهل الفضل والصلاح تنسب إلى هذا الاسم وتعرف به(١).

ويقول ابن تيمية فى رسالته "الصوفية والفقراء" بعد رده على الأقوال المختلفة "إن القول المعروف هو أن الصوفى منسوب إلى الصوف".

وكان أول ظهور الصوفية فى البصرة كما أن أول من شَيَّدَ ديرة صغيرة للصوفية بعض أتباع "عبد الواحد بن زيد" من أصحاب "الحسن البصرى"(٢).

وبعض المستشرقين الأوربيين ممن يستقصون استقصاءً كافيًا قالوا بسبب المشابهة الصوتية بين كلمة "صوفى" والكلمة اليونانية "فيوسوفيا" أن كلمتى "صوفى" و "متصوف" أخذتا من الكلمتين اليونانيتين.

"سوفيا" و "ثيوسوفيان" إلا أن "تولدكة" أثبت خطأ هذا الزعم وأيده فى ذلك "فيكلسون" و "ماسنيون" ودَلَّلَ على أن "سى" اليونانية نقلت إلى

(١) تاريخ التصوف الإسلام، د. قاسم ترجمة عن الفارسية صادق نشأت، مراجعة أحمد ناجى الألفى، د. محمد مصطفى حلمى، مكتبة النهضة المصرية، سنة ١٩٧٠م، ص٦٠ إلى ٦٣.

(٢) تاريخ التصوفى الإسلامى، د. قاسم عن (أخيه أحمد ناجى، د. محمد مصطفى حلمى، سنة ١٩٧٠، مكتبة النهضة المصرية، ص٦٦، ٦٧.

العربية كما هى "سينا" لا "صادا". كما أنه لا يوجد فى اللغة الآرامية كلمة تعد واسطة لانتقال "سوفيا" إلى "صوفى".

ويظهر من أقرب الأقوال إلى العقل، والمنطق، والموازين اللغوية أن كلمة "صوفى" عربية مشتقة من كلمة "صوف" والسبب فى تسمية الزهاد والمرتاضين فى القرون الأولى الإسلامية "الصوفية" هو أنهم كانوا يرتدون الملابس الصوفية الخشنة[1].

وإن جماعة من كبار الصوفية مثل أبى نصر السراج "صاحب اللمع" وجماعة من كبار العلماء ومن غير الصوفية مثل "ابن خلدون" و "ابن تيمية" و "ابن الجوزى" قد اتفقوا على أن كلمتى " الصوفى" و "التصوف" مأخوذتان من كلمة "الصوف"[2].

ويرى الدكتور "أبو الوفا التفتازانى" ما ارتآه "ابن خلدون" فأبو نصر السراج الطوسى من أن الدراسة العلمية أثبتت أن اشتقاق كلمة "تصوف" من الصفوة بمعنى الصفاء، أو من "الصف" لأن الصوفية فى الصف الأول أمام الله، أهو مشتق من اسم "صوفة بن مرة" أحد سدنة الكعبة فى الجاهلية أو هى كلمة "سوفيا" اليونانية التى تعنى الحكمة أمر غير دقيق، وأن هذه الوجوه كلها بعيدة. والأصوب أن يقال إن اشتقاق كلمة "صوفى" هو من "الصوف" فيقال: تصوف الرجل إذا لبس الصوف، وكان لبس الصوف شعارًا للعباد والزهاد فى أول نشأة الزهد، وكثير من الصوفيين أنفسهم يذهبون إلى هذا الرأى، ومنهم "أبو نصر السراج الطوسى" فى كتابه "اللمع" ويؤيد ابن خلدون وآخرون[3].

---

(١) المرجع السابق، ص٦٧، ٦٨.

(٢) المرجع السابق، ص٦٩.

(٣) مدخل إلى التصوف الإسلامى للمتوفى ص٢٦ دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٤م.

وعلى أية حال يرجح "أبو نصر السراج الطوانسى" ذلك إلى أن اسم الصوفى حادث بعد الإسلام، وليس من ألفاظ الجاهلية.

ولا ريب أن الرواية التى تقول: إنه كانت مكة قبل الإسلام قد خلت فى وقت من الأوقات من الناس حتى كان لا يطوف بالبيت أحد وكان يجيء من بلد بعيد رجل صوفى فيطوف بالبيت وينصرف رواية ضعيفة فلا ريب ولا دليل عليها[1].

فمن أين أخذت إذن كلمة "صوفى"؟

وهنا يقع الخلاف وتضطرب الآراء.

فكثير من المستشرقين يذهبون إلى أن كلمة "صوفى" مأخوذة من كلمة "سوفيا" اليونانية بمعنى الحكمة وأربابها الحكماء. وقد أخذت كلمة "فيلسوف" بمعنى "محب الحكمة" من كلمة "سوفيا" اليونانية بمعنى الحكمة أيضًا، وعندما فلسفت العربية عبادتهم حرفوا تلك الكلمة وأطلقوها على رجال التعبد والفلسفة الروحية.

وممن ذهب إلى ذلك المستشرق "ماركس" وقريب من هذا ما يقوله بعض آخر من المستشرقين من أن "صوفى" مأخوذة من كلمة "ثيوسوفيا" بمعنى الإشراق أو "محب الحكمة الإلهية".

وممن ذهب إلى ذلك "فولدكة" ويذهب "فون هامر" إلى أنها من كلمة "سوفا" بمعنى "الحكيم" وهذه كلها أوهام ولا دليل عليها. بل يقول الدكتور: زكى مبارك لم لا تذهب إلى عكس ذلك، وتقرر أن كلمة "سوفيا" مأخوذة من كلمة "صوفى" التى عرفها العرب فى جاهليتهم كما

(١) اللمع لأبى نصر السراج الطوانسى، ص٤٢، ٤٣.

يرى الدكتور زكى مبارك أننا لا نرى صحة للزعم بأن لغة أخذت من لغة إلا بدليل قوى، خاصة إذا كانت اللغتان ليس بينهما صلة تاريخية من جوار أو تبادل ثقافى أو اختلاط سياسى.

وممن ذهب إلى ذلك الرأى "أبو الريحان البيرونى" و "محمد لطفى جمعة" و "عبد العزيز الإسلامبولى" صاحب مجلة المعرفة (ت١٩٦٤م)(١).

ورأى يقول: إن كلمة "صوفى" نسبة إلى "صوفة" وهو رجل زاهد متعبد فى الجاهلية كان قد انقطع إلى الله وعبادته وطاعته عند البيت الحرام واسمه "الغوث بن مرة" وكان إليه أمر الإجازة فى الحج، وقيل لأحفاده من بعده "صوفة" قال ابن الجوزى: سئل "وليد بن القاسم" إلى أى شيء ينسب الصوفى؟ فقال: كان قوم فى الجاهلية يقال لهم "صوفة" انقطعوا إلى الله، وقطنوا الكعبة فمن تشبه بهم منهم: الصوفية وأشار إلى هذا كذلك الفيرزوابادى صاحب القاموس المحيط فقال: "صوفة أيضًا. أبو حى من مضر وهو: الغوث بن مرة أو ابن طابخة كانوا يخدمون الكعبة ويجيزون الحجاج فى الجاهلية أى يفيضون بهم من عرفات. وكان أحدهم يقوم فيقول: أجيزى صوفة. فإذا أجازت قال: أجيزى "خندف" فإذا أجازت آذن للناس كلهم فى الإجازة أو هم قوم من أفناء القبائل تجمعوا فتشبكوا كتشبك الصوفة(٢).

والزمخشرى فى "أساس البلاغة" يقول "فلان يلبس الصوف والقطن أى ما يعمل منهما. وكيس صافٍ، وصوفانى، وصوفانية –

---

(١) مجلة المعرفة، عدد أغسطس، سنة ١٩٣١.

(٢) القاموس المحيط لمحيى الدين الفيرزوابادى، ج٣، ص١٣٩، من باب الفاء فصل الصاد، ط. الثانية، مطبعة مصطفى الحلبى.

كثير الصوف – وصاف الكبش بعد زمرة يصوف ويصاف صوفًا، ولا أفعل ذلك ما بل بحر صوفة. ويقال أكان آل صوفة يجيزون الحجاج من عرفات أي يفيضون بهم ويقال لهم: آل صوفان وأل صوفان. وكانوا يخدمون الكعبة ويَتَنَسّكون وأهل الصوفة نسبوا إليهم تشبيهًا بهم في النسك والتعبد، أو إلى أهل الصفة فقيل: مكان "الصفية" الصوفية. يقلب إحدى الفاءين واواً للتخفيف، أو إلى الصوف الذى هو لباس العباد وأهل الصوامع[1] كما أشار إلى ذلك بعض المستشرقين. وهذا الرأى يدل على النسك كان معروفًا فى الجاهلية، ولفظة "الدَّيَّان" العربية معناها: النسك فى الدين – ومثلها "الربانى" وهى لفظة قديمة عرفتها العربية والسريانية وظلت من ألفاظ التمجيد.

يقول صاحب كتاب "الروض المستطاب":

وقد جرى من حيث الاشتقاق ... فى لفظة التصوف الشقاق

وكان ذى قول له توجيه ... لقوله فى تفسيره وجيه

وكان القياس والقواعد ... فى جملة الأقوال لا تساعد[2]

وفى صحاح الجوهرى: الصفاء – ممدودًا – خلاف الكدر وصفوة الشيء – خالصة – ومحمد صفوة الله من خلقه ومصطفاه ، و "الصفى" المصافى.

والجمع: صفايا: قال الشاعر:

لك المربـاغُ منها والصفايا ... وحكمك والنشيطة والفصول[3]

---

(١) أساس البلاغة للزمخشرى، ص٥٤٦ مادة صوف. كتاب الشعب.

(٢) روض القلوب المستطاب للشيخ حسن رضوان، ص٤٨٠.

(٣) الصحاح للجوهرى، ج٢، ص٥٠٤.

ويقول صاحب الروض المستطاب:

ولفظ "صوفى" لم يكن مستعملاً فى عرف من حازوا الكمال أولاً:

والقوم أهل الحق والإشارة　　　يستعملون هذه العبارة

وهو اصطلاح بينهم مشهود　　　فيما صفا وعرفة منثور

وذاك سر ما به تشير　　　حروفه وقلبه منير[1]

هذا فى بيان أن لفظ "صوف" لم يكن مستعملاً أولاً وإنما لفظ اصطلح عليه القوم وأطلقوه على من تحقق بما أشارت إليه حروفه.

ويقول ابن الجوزى: (كانت النسبة فى زمن رسول الله ﷺ إلى الإيمان والإسلام فيقال: مسلم ومؤمن ثم حدث اسم. زاهد وعابد. ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد فتخلوا عن الدنيا، وانقطعوا إلى العبادة، واتخذوا فى ذلك طريقة تفردوا بها وأخلاقًا تخلقوا بها فسموا بالصوفية[2].

وأرى أن هذا الرأى هو الأقرب للصواب حيث إن لفظة مسلم، ومؤمن ، هى الصبغة التي اصطبغ بها المسلم فى ذلك العصر ثم جاء أناس فقالوا – كما قال ابن الجوزى – بالعبادة زاهدين فى الدنيا لمتاعها القليل راغبين فى الآخرة لنعيمها المقيم فسموا بالصوفية. لهذه الصفات من تقشف، وزهد، وعبادة، وطاعة، وتبتل إلى الله عز وجل.

---

(١) روض القلوب المستطاب للشيخ حسن رضوان، سنة ١٣٢٢هـ، ط. أولى، ص٤٧٧.

(٢) تلبيس إبليس للحافظ الإمام جمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن الجوزى البغدادى المتوفى فى ٥٩٧هـ، مطبعة النهضة سنة ١٩٢٨م، ص١٦١.

متى نشأت كلمتا تصوف، صوفى فى الإسلام؟:

ورد عن الحسن البصرى أنه قال: "أدركت سبعين بدريا كان لباسهم الصوف[1].

وورد عنه كذلك قوله: (رأيت صوفيا فى الطواف فأعطيته شيئًا فلم يأخذه. وقال: معى أربع دوانيق يكفينى ما معى).

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: (مر بالصخرة من الروحاء سبعون نبيًا حفاة عليهم العباء يؤمون البيت الحرام). وقيل: إن عيسى عليه السلام كان يلبس الصوف والشعر ويأكل من الشجر ويبيت حيث أمسى[2].

ووصف أبو هريرة وفضالة ابن عبيد الصوفيين فقالا: (كانوا يخرون من الجوع حتى تحسبهم الأعراب مجانين، وكان لباسهم الصوف، حتى أن بعضهم كان يعرق ثوبه فيوجد منه رائحة الضأن إذا أصابه الغيث فكان اختيارهم لبس الصوف لتركهم زينة الدنيا وقناعتهم بسد الجوع وستر العورة، واستغراقهم فى أمر الآخرة فلم يفترقوا لملازمة النفوس وراحتها لشدة شغلهم بخدمة مولاهم وانصراف همهم إلى أمر الآخرة، وهذا الاختيار يلائم ويناسب من حيث الاشتقاق لأنه يقال: "تصوف" إذا لبس الصوف كما يقال: "تقمص إذا لبس القميص"[3].

---

(١) قدر عريف المعارف، ص٦٦.

(٢) عوارف المعارف، السهروردى، ص٦٤.

(٣) عوارف المعارف، السهروردى، ص٦٤.

فلما كان حالهم بين سير وطير لتقلبهم فى الأحوال وارتقائهم من عال إلى أعلى منه لا يقدرهم وصف ولا يحبسهم نعت، وأبواب المزيد علمًا وحالاً عليهم مفتوحة، وبواطنهم معدن الحقائق ومجمع العلوم، فلما تعذر تقيدهم بحال تنوع وجدانهم وتجنس مزيدهم نسبوا إلى ظاهر اللبسة(١).

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : (يوم كلم الله موسى عليه السلام كان عليه جبة صوف وسراويل صوف وكساء صوف وكمه من صوف ونعله من جلد حمار غير مزكى)(٢).

وقد انفرد المراعون أنفاسهم مع الله باسم المتصوفين فى عصر الإمام أحمد بن حنبل قبل المائتين من الهجرة(٣)، وكانوا من قبل يسمون القراء والنساك والزهاد(٤) وأهل الشام يسمون الصوفية فقراء(٥)، ويقولون: وقد سماهم الله تعالى فقراء فقال: (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون)(٦) وقال تعالى: (للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربًا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافًا وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم)(٧).

---

(١) عوارف المعارف، السهروردى، ص٦٥.

(٢) عوارف المعارف، السهروردى، ص٦٥.

(٣) الرسالة القشيرية.

(٤) البيان والتبيين للجاحظ.

(٥) اللمع للسراج الطوسى، ص٤٦.

(٦) سورة الحشر، الآية رقم٨.

(٧) سورة البقرة، الآية رقم ٢٧٣.

ولمساور الوارق الشاعر الكوفي من شعراء القرن الثامن الهجري:

تصوف كي يقال له أمين   وما يعنى التصوف الأمانة[1]

ويقول سفيان الثوري: (لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقائق الرياء)[2]. وكان الثوري يسمى أمين المؤمنين في الحديث.

وكان يقول: ازهد في الدنيا ونم لا لك ولا عليك، ويقول: الزهد في الدنيا هو قصر الأمل ليس بأكل الخشن ولا بلبس الغليظ والعباء[3].

ويقال: إن أول من سمى بالصوفي أبو هاشم الصوفي، وأول من تكلم ببغداد في مذهب الصوفية أبو حمزة الصوفي[4].

وكان ابن حنبل يقول لأبي حمزة في المسائل: ما تقول فيها يا صوفي[5]؟.

والجنيد كان يقول ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوف والمستحسنات[6].

ويقول علمنا هذا أي التصوف مقيد بحديث رسول الله ويقول: مقيد بأصول الكتاب والسنة.

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه، ج٣، ص٢١٧، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر.

(٢) اللمع لأبي نصر السراج الطوسي، ص٤٢، عوارف المعارف للسهروردي، ص٦٦.

(٣) الطبقات الكبرى في الشعر، ج١، ص٤٠ وما بعدها، ط. صبيح، القاهرة.

(٤) محاضرة الأوائل للإمام السيوطي واللمع، ص٤٩٥.

(٥)

(٦) المرجع السابق، ص٧٩.

ومن ذلك نعلم أن اصطلاح التصوف والصوفى ظهر فى القرن الثانى الهجرى.

يقول الطوسى صاحب اللمع: أما قول القائل أنه أى التصوف اسم مستحدث أحدثه البغداديون فمحال، لأن هذه الحال فى وقت الحسن البصرى رحمه الله كانت تعرف بهذا الاسم، وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ [(١)].

ويقول ابن تيمية فى رسالته عن الصوفية: إن منشأ التصوف كان من البصرة، من أجل أن الحسن البصرى كان من أوائل الصوفية فى الإسلام لأنه كان مؤسس مدرسة بصرية فى التصوف[(٢)]. بفضل الحسن البصرى استقرت زعامة التصوف فى البصرة وقامت فى بغداد مدرسة صوفية أستاذها التابعى الجليل (سعيد بن المسيب) ومن تلاميذه أبو حمزة الصوفى.

قواعد التصوف :

ينبنى التصوف على خمس قواعد، وتلك القواعد متسقة مع تعاليم الدين مسايرة للشريعة من حيث أحكامها الباطنة ونواميسها الخفية وتلك القواعد هى:

أولاً: صفاء النفس ومحاسبتها.

ثانيًا: قصد وجه الله.

ثالثًا: التمسك بالفقر والافتقار.

---

(١) اللمع لأبى النصر السراج الطوسى، ص٤٢.

(٢) المدخل إلى التصوف .

رابعًا: توطين القلب على الرحمة والمحبة.

خامسًا: التجمل بمكارم الأخلاق التى بعث الله بها النبى لتمامها.

فالقاعدة الأولى : معناها أن كل من أراد أن يدخل في سلك المقربين بعد الجواب لسؤال الحق تعالى، وذلك أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله، ويزن أعماله قبل أن توزن بقسطاس الآخرة، ويصفى نفسه من شوائبها ووساوسها.

وهذا مستمد ومقتبوس من قول المعصوم ﷺ : (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم).

ومن قوله سبحانه وتعالى: (ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين)[1]. وقوله تعالى: (ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون)[2].

والقاعدة الثانية : معناها أن المتصوف لابد أن يقصد وجه ربه فى جميع أقواله وأفعاله غاسلا قلبه بالإخلاص لوجه الله، لا مخافة المخلوقات وهيبة الرؤساء، فيصير بذلك لا يتكلم ولا يفعل إلا عن تثبت واطمئنان، وتصبح أعماله خالصة لا خلط فيها ولا رياء. وحسبنا دليلا على ذلك قول الله لنبيه: ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ﴾[3]، وقوله أيضا: ﴿ وما لأحد عنده من نعمة

---

(١) سورة الحجر، الآية رقم ٤٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية رقم ٣.

(٣) سورة الكهف الآية ٢٨ .

تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى ﴾[1].

والقاعدة الثالثة : معناها الزهد فى الدنيا والقناعة فى متاعها وسمو بالنفس وارتفاعا بها عن الانزلاق فى الشهوات، فإن التمسك بالفقر دليل التقشف والذى هو الآلة القاطعة لحبل الوصال بين العبد والشيطان فتتأهل النفس بالعبادة الخالصة والاتجاهات الصادقة وعدم العلو والفساد. والافتقار هو تخلص المرء من زينة الحياة وشهواتها لينقطع لتقوى الله بخشية وخشوع محب الافتقار إلى الله شاعرا أنه لا حول له ولا قوة إلا به طالبا منه التكرم عليه بالإمداد والتجليات وذلك هو منتهى الإقرار بالعبودية التى هى مركز التصوف وعقيدة الإيمان، لأنه يعلم علم اليقين أن الله هو العلى القدير الفعال لما يريد.

والقاعدة الرابعة : معناها أن كل صوفى تتخلج قلبه محبة المسلمين وتمتزج به رحمتهم حتى يعطيهم حق الإسلام من التعظيم والتوقير. فإن رسخت لديه هذه القاعدة واستقام فى التدرب عليها، أفاض الله عليه أضواء الحياة وأذاقه حلاوة الرضا وألبسه ثوب القبول: فينال مما ورثه النبيون ألوان المحبة والرضا حظا وافرا.

قال تعالى فى حق الرسول: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[2]. وقال عليه السلام لصديقه أبى بكر: (لا تحقر أحدا من المسلمين فإن صغير المسلمين عند الله كبير).

والقاعدة الخامسة : هى زبدة الدين وخلاصة أخلاق الصوفيين، ومعناها أن يكون العبد هينا لينا مع أهل بيته وعشيرته وجميع

---

(١) سورة الليل الآية ١٩ : ٢١ .

(٢) سورة الأنبياء الآية ١٠٧ .

المسلمين، قال عليه السلام: (أهل الجنة كل هين لين سهل قريب، وأهل النار كل شديد قبعثرى). قالوا وما القبعثرى؟ قال: الشديد على الأهل والصاحب والعشير. وقال تعالى: ﴿ وقولوا للناس حسنا ﴾ إذ أن الله تعالى يعامل عبده بوصفه وخلقه الذى يعامل الناس به، ولذلك يقول تعالى: ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ﴾ وفى الحديث القدسى عنه عز وجل: (يقول الله للعبد يوم القيامة: جعت فلم تطعمنى واستقيتك فلم تسقنى ومرضت فلم تعدنى - فيقول العبد: كيف تجوع وأنت رب العالمين؟ وكيف تمرض وأنت رب العالمين؟ وكيف تسقى وأنت رب العالمين؟ فيقول له سبحانه وتعالى مفسر لذلك - أما أنه مرض عبدى فلان فلو عدته لوجدتنى عنده، وجاع عبدى فلان فلو أطعمته لوجدت ذلك عندى، واستسقاك عبدى فلان فلو سقيته لوجدت ذلك عندى).

ذلك هو الحديث القدسى الذى جمع محاسن الأخلاق وجميل الصفات بين الناس، وهو القانون الإلهى الذى سلك منهاجه رجال التصوف فى حياتهم الدنيوية العملية - فمن رسخت قدمه منهم فى هذا المقام صارت أحواله ومعاملاته مع الله فى كل شىء فلا يراقب غير الله فى كل سلكاته وحركاته، قال تعالى: ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾. وقال عليه السلام: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).



الصوفية والتصوف


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كنه التصوف :

التصوف حركة دينية انتشرت فى العالم الإسلامى عقب اتساع الفتوحات وازدياد الرخاء الاقتصادى كرد فعل مضادة للانغماس فى الترف الحضارى مما حمل بعضهم على الزهد الذى تطور بهم حتى صار لهم طريقة مميزة معروفة باسم " الصوفية " إذ كانوا يتوخون تربية النفس والسمو بها بغية الوصول إلى معرفة الله بالكشف والمشاهدة لا عن طريق التقليد أو الاستدلال، لكنهم جنحوا فى المسار بعد ذلك حتى تداخلت طريقتهم مع فلسفات هندية وفارسية ويونانية مختلفة[1] .

والتصوف فى حقيقته إيثار وتضحية، تضحية باللذائذ والشهوات وإيثار لما يبقى على ما يفنى، تضحية بالعاجل وإيثار للآجل، مجاهدة للنفس ومغالبة لأهوائها .

هو نزوع فطرى إلى الكمال الإنسانى والتسامى والمعرفة عن طريق الكشف الروحى، أو العلم اليقينى الناشئين عن الإلهام الإلهى والنظر العقلى والرياضة النفسية وبعض الدلائل الحسية[2] . والتصوف روح لمجموع حقائق الإسلام من عبادة وإيمان ويقين وعرفان[3] ، وهو إيثار الحق على رغبات النفس يقول الإمام الجنيد : " التصوف هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به " . ويقول معروف الكرخى : (التصوف هو الأخذ بالحقائق، واليأس مما فى أيدى الخلائق). ويقول أبو الحسن

---

(١) التصوف الإسلامى . أحمد توفيق عياد – الأنجلو المصرية ١٩٧٠ م .

(٢) المدخل إلى التصوف الإسلامى تأليف محمود أبو الفيض المنوفى ص ٩ .

(٣) ذاته ص ١٠ .

الشاذلى (هو تدريب النفس على العبودية وردها لأحكام الربوبيـــة) . وسئل أحد الصوفية عن معنى التصوف فقال : التصوف معناه أن العبـد إذا تحقق بالعبودية واتصف بشهود حقائق الربوبية صفـــا مـــن كـــدر البشرية، فنزل منازل الحقيقة، وأخذ بمكارم الشريعة، فإن فعـــل فـــهو صوفى) . والصوفى كما يقول السرى أحد ثلاثة واحد لا يطفئ نـــور ورعه نور معرفته، وواحد لا يتكلم بباطن فى علم ينقده عليه ظاهر من الشرع، وواحد لا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله[1]. ويقول شاعر الإسلام محمد إقبال (إن الإسلام يأخذ عن الصوفية طابعا مـــن الجمال والكمال والإنسانية العالية والأخوة العالية لا نجده فـــى إســلام الفقهاء والمتكلمين) [2] ويقول الطوسى عن الصوفية إنهم معدن جميـــع المعلومات، ومحل جميع الأحوال المحمودة والأخلاق الشريفة، وهم مع الله تعالى فى الانتقال من حال إلى حال مستجلبين للزيـــادة [3] ويقـــول الإمام الغزالى عن طريق الصوفية (إنها قطع عقبات النفس، والتـــنزه عن أخلاقها المذمومة، وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلـــى تخليـــة القلب عن غير الله تعالى، وتخليته بذكر الله [4]. ويقول ابن تيمية فـــى رسالته عن الصوفية : الصوفى هو من صفا من الكدر، وامتـــلأ مـــن الفكر واستوى عنده الذهب والحجر، ويقول الجنيد الصوفى كـــالأرض

---

(١) الرسالة القشيرية للإمام أبى القاسم عبد الكريم القشيرى تحقيق الدكتور عبـــد الحليـــم محمود ومحمود بن الشريف ط ص١٢٨ وما بعدها .

(٢) اللمع للطوسى – مقدمة الكتاب ص ٩ تحقيق الدكتور عبد الحليـــم محمـــود وطـــه مسرور .

(٣) ذاته ص ٤٠ .

(٤) المنقذ من الضلال للغزالى .

يطرح عليها قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح، ويقول أيضاً (إنها كالأرض يطأها البار والفاجر، وكالسحاب يظل كل شئ . ويقول أيضاً إذا رأيت الصوفيّ يعنى بظاهره فاعلم أن باطنه خراب، ويقول الشبليّ (الصوفيّ منقطع عن الخلق، متصل بالحق[1] كقوله تعالى (واصطنعتك لنفسى)[2] . وقال أيضاً الصوفية أطفال فى حجر الحق، – سئل ذو النون المصرى عن أهل التصوف فقال هم قوم أثروا الله عز وجل على كل شئ فآثرهم الله عز وجل على كل شئ . وسئل النورى عن الصوفى فقال : من سمع السماع وآثر الأسباب . وهى فعل المأمورات وترك المنهيات [3].

نشأة التصوف الإسلامى وأبرز الشخصيات :

ذهب ابن الجوزى البغدادى (ت ٥٧٩ هـ) إلى أن الصوفية نسبة إلى رجل يقال له صوفة واسمه (الغوث بن مر) ظهر فى العصر الجاهلى . وذهب البيرونى قديماً وفون هامر حديثاً إلى أن الصوفية إنما هى اشتقاق من (سوفيا) اليونانية والتى تعنى الحكمة، وهذا رأى يدعم موقف القائلين بأن التصوف الإسلامى إنما هو وليد الفلسفة الأفلاطونية. وقيل : الصوفية من الصوف لاشتهارهم بلبسه، وقيل : من الصفة أى صفّة مسجد رسول الله ﷺ ، وقيل : من الصفاء، وقيل : من الصف الأول . أبو سعيد الخراز يقول (الصوفيّ من صفا ربّه قلبه نوراً، ومن

---

(١) الرسالة القشيرية تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف ط ٢ ص ٥٥٢ وص ٥٥٤ .

(٢) سورة طه ىلآية رقم (٤١) .

(٣) ذاته ص ٥٥٥ .

دخل فى عين اللذة بذكر الله) هرب إلى مصر أيام محنة الصوفية ببغداد .

أبو محمد الجريرى (ت ٣١١ هـ) يقول : (التصوف هو الدخل فى كل خلق سنى والخروج من كل خلق دنى) .

أبو بكر الكتانى (ت ٣٢٢ هـ) يقول : (التصوف خلق، فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى الصفاء) ويقول كذلك : (التصوف صفاء ومشاهدة) . جعفر الخالدى (ت ٣٤٨ هـ) يقول (التصوف طرح النفس فى العبودية، والخروج من البشرية، والنظر إلى الحق بالكلية). الشبلى : يقول : (التصوف بدؤه معرفة الله ونهايته توحيده). ويقول أيضاً (التصوف الجلوس مع الله بلا هم أى ملازمة طاعة الله[1]. والقشيرى : هو صاحب الرسالة القشيرية يقول : (الورع ترك الشبهات) .

ومن شخصياتهم المشهورة رابعة العدوية المتوفاة سنة ١٣٥ هـ أو ١٨٠ هـ أو ١٨٥ هـ وقد جمعت بين الزهد والحب أو ما يسمونه بالعشق الإلهى . كما أنها ساهمت فى إثراء الأدب الصوفى .

ومنهم إبراهيم بن أدهم (ت ١٦١هـ) حيث أنه ترك الملك والسلطان وأقبل على الزهد والتصوف .

وكذلك سفيان الثورى (٩٧ - ١٦١هـ) من العلماء الزهاد، يقول: (الزهد فى الدنيا هو قصر الأمل، وليس بأكل الخشن ولا بلبس

---

(١) الرسالة القشيرية للقشيرى تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ومحمود شريف ط٢ ص ٥٥٤ .

العباء) . ذو النون المصرى (ت ٢٤٥ هـ) من مدرسة الزهد ينحدر من أصل قبطى أو نوبى هو أول من مهد لظهور مذهب المعرفة فى التصوف حيث يقول : (عرفت ربى بربى ولولا ربى لما عرفت ربى). أبو القاسم الجنيد (ت ٢٩٧هـ) أصله من نهاوند، ولد ونشأ بالعراق، وهو تلميذ الحارس المحاسبى يقول : (التصوف هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به) . وقد سئل عن قوم من أهل المعرفة يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل فقال : (إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال وهذه عندى عظيمة، والذى يسرق ويزنى أحسن حالاً من الذى يقول هذا) .

أبو يزيد البسطامى (ت ٢٣٤ هـ أو ٢٦١هـ) كان جده مجوسياً وأبوه من أتباع زرداشت، روى بأنه ذهب إلى رجل مقصود مشهور بالزهد مشاهدة فشاهده يرمى ببصاقة تجاه القبلة فانصرف عنه ولم يسلم عليه قائلاً : (هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه) .

– أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج (٢٤٤ – ٣٠٩ هـ) ولد بفارس حفيداً لرجل زرداشى، ونشأ فى واسط بالعراق وهو أشهر الحلوليين والاتحاديين، رمى بالكفر وقتل مصلوباً لتهم أربع وجهت إليه: (١) لاتصاله بالقرامطة . (٢) لقوله : (أنا الحق) . (٣) لاعتقاد أتباعه بألوهيته . (٤) قوله فى الحج حيث يرى بأن الحج إلى البيت الحرام ليس من الفرائض الواجب أداؤها فى شخصيته كثير من الغموض، فضلاً عن كونه متشدداً وعنيداً ومغالياً، له كتاب (الطواسين) الذى اخرجه وحققه ماسينيون .

- أبو حامد الغزالى الملقب بحجـة الإسـلام (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ) ولد بطوس من إقليم خراسان، رحل إلى جرجان ونيسابور، ولازم نظام الملك، درّس فى فى المدرسة النظامية ببغداد، واعتكف فى منارة مسجد دمشق، ورحل إلى القدس ومنها إلى الحجاز ثـم عـاد إلـى موطنـه، وقـد ألف عدداً من الكتب منها (تهـافت الفلاسـفة - والمنقذ مـن الضـلال) وأهمها (إحياء علوم الدين) ويعد الغزالى رئيـس مدرسـة الكشـف فـى المعرفـة، ومـن جليل أعمالـه هدمـه للفلسـفة اليونانيـة وكشـفه لفضـائح الباطنية . .

- أبو الفتوح شهاب الديـن السـهروردى (٥٤٩ - ٥٨٧ هـ) ولـد بسهرود بإيران، تنقـل كثـيراً، صـاحب مدرسـة الإشـراق الفلسـفية التـى أساسها الجمع بين أراء مستمدة من ديانات الفرس القديمة ومذاهبها فـى ثنائية الوجود وبين الفلسفة اليونانيـة فـى صـورتهـا الأفلاطونيـة الحديثـة ومذهبها فى الفيض او الظهور المستمر . وقد حوكـم وقتـل بفتـوى مـن علماء حلب بسوريا، من كتبه (حكمة الإشراق) و(هياكل النـور) و(التلويحات العرشية) و(المقامات) .

نجى الدين بن عربى الملقب الشـيخ الأكبر (٥٦٠ - ٦٣٨ هـ) رئيس مدرسـة وحدة الوجود، يعتبر نفسه خاتم الأوليـاء، ولـد بـالأندلس، ورحل إلى مصر، وحج، وزار بغـداد، واسـتقر فـى دمشـق حيـث مـات ودفن، وله فيها الأن قبر يزار، طرح نظرية الإنسان الكامل التـى تقـوم على أن الإنسان وحده من بيـن المخلوقـات يمكـن أن تتجلـى فيـه جميـع الصفات الألـهية إذا تيسر له الاستغراق فى وحدانية الله، وله كتب كثيرة يصل بعضهم بها إلـى ٤٠٠ كتـاب ورسـالة مـا يـزال بعضـها محفوظـاً

بمكتبة يوسف أغا بقونية ومكتبات تركية أخرى، وأشهر كتبه (روح القدس) و(ترجمان الأشواق) وأبرزها (الفتوحات المكية) و(نصوص الحكم) .

– أبو الحسن الشاذلى (٥٩٣ – ٦٥٦هـ) وهو صاحب الطريقة الشاذلية، من أقواله (إننا لننظر إلى الله ببصائر الإيمان والإتقان، فأغنانا بذلك عن الدليل والبرهان) .

– الأقطاب الأربعة : عبدالقادر الجيلانى، وأحمد الرفاعى وأحمد البدوى، وإبراهيم الدسوقى – منهم الفيلسوف الفرنسى رينيه جينو الذى أسلم وتصوف فى أوروبا وسمى نفسه (عبدالواحد يحيى) وقد دافع عن الروحانية الإسلامية مبيناً سمو التصوف الإسلامى – على حسب رأيه – من كتبه (أزمة العالم الحديث) و(رمزية الصليب) و(الشرق والغرب) وحركة الزهد والرهبنة والتبتل إلى الله عز وجل فى كثرة كاثرة فى الأديرة والصوامع، والكهوف من الجبال، وفى الفلوات وذلك فى كثير من الأديان السماوية القديمة كما كانت موجودة فى الديانات الوثنية، ومن البلاد التى عرفت بذلك من قديم الزمان حتى يومنا هذا" الهند" التى ما تزال على وثنيتها من عبادة الأبقار، والزهد هو المعنى العام للتصوف الإسلامى،أما التصوف بمعناه الخاص فهو إسلامى لحمة وسدى . يقول القشيرى : (أما بعد رضى الله عنكم فقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم، وجعل قلوبهم معادن أسراره واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره، فهم الغيث للخلق، والدائرون فى عموم أحوالهم مع الحق، بالحق صفاهم من كدورات البشرية ورفعهم إلى

محال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية، ووفقهم للقيام بآداب العبودية وأشهدهم مجارى أحكام الربوبية، فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف وتحققوا بما منّه سبحانه لهم من التقليب والتصريف، ثم رجعوا إلى الله تعالى بصدق الافتقار ونعت الإنكسار، ولم يتكلموا على ما حصل من الأعمال أو صفا لهم من الأحوال، علماً منهم بأنه جل وعلا يفعل ما يريد ويختارمن يشاء من العبيد، وثوابه ابتداء فضل وعذابه به حكم عدل وأمره قضاء[1] ".ويقول الهراودى (إعلموا رحمكم الله أن شيوخ هذه الطائفة ويعنى (الصوفية) بنوا قواعدهم على أصول صحيحة فى التوحيد صانوا بها عقائدهم عن البدع ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل وعرفوا ما هو حق القدم، وتحققوا بما هو نعت الموجود عن العدم، ولذلك قال سيد هذه الطريقة (الجنيد) رحمه الله"التوحيد هو(إفراد القدم من الحدث . وأحكموا أصول العقائد بواضح الدلائل ولائح الشواهد)[2] فالقرآن الكريم مشرع التصوف بآياته الباعثة على التقوى والآمرة بالإخلاص واليقين والتوكل وحسن العبودية لله وغير ذلك وتلك الآيات تشغل من القرآن الكريم ما يقارب نصف مجموعه، والباقى فى تشريع العبادات والمعاملات وقصص السالفين لتكون عبرة وذكرى للمتذكرين ولكل من كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد)[3] ففى قوله تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً ﴾[4] وفى قوله تعالى : ﴿

---

(١)الرسالة القشيرية ط ص

(٢)عوارف المعارف للسهرودى .

(٣) المدخل إلى التصوف الإسلامى للمنوفى .

(٤) سورة الروم الآية ٣٠ .

واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ﴾[1] وفى قوله تعالى : ﴿ لمن كان له قلب ﴾[2] وفى قوله سبحانه : ﴿ إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾[3] وفى قوله : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[4] أى العلماء بالله وفى قوله : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ﴾[5] وفى قوله عز وجل : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألاّ تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ﴾[6] وفى قوله : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾[7] ففى قوله : ﴿ لنهدينهم سبلنا ﴾ وفى قوله : ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئ عليم ﴾[8] وفى قوله تعالى : ﴿ عبادى ﴾ و﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ و﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ وسائر الآيات التى تذكر المحسنين والصادقين والقانتين والمخبتين والصابرين

---

(١) سورة الكهف الآية ٢٨ .

(٢) سورة ق الآية ٣٧ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٩٠ : ١٩١ .

(٤) سورة فاطر الآية ٢٨ .

(٥) سورة الفرقان ٦٣ ، ٦٤ .

(٦) سورة فصلت الآية ٣٠ .

(٧) سورة العنكبوت الآية ٦٩ .

(٨) الحديد آية رقم (٣) .

والراضين والمتوسمين، وسائر الآيات أيضاً التى ورد فيها قوله تعالى : ﴿ أولائك حزب الله ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إن أكرمكم عند اللـه أتقاكم ﴾[1] وجميع الآيات القرآنية الواردة فـى كتاب الله عز وجل، والتـى تحث على النظر فى خلق السماوات والأرض، وفـى الأنفس كقولـه تعـالى : ﴿وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾[2] وقولـه تعـالى : ﴿ فلينظـر الإنسـان إلـى طعامه ﴾[3] وكذلك الآيات الواردة فى الآفـاق، وفـى الكـون جميـع ذلك يدل دلالة حاسمة على ان التصوف الإسلامى مقبوس ومستمد من كتاب الله عز وجل وسنة رسـوله ﷺ . ويذهـب المستشـرق ماسـنيون إلـى أن التصوف دخيل علـى الإسلام فيقول : إن علماء الإسلاميات حائرون فـى تعليل الخلاف الكبير فى العقيدة بين مذاهب التصوف، وبين مذاهب أهل السنة ومن ثم ذهب إلى أن التصوف دخيل على الإسلام بعيد عن روحه ولم يذكر المستشرق ماسـنيون مـن علمـاء الإسـلاميات الذيـن دار بينهـم الخلاف ولو عالمـاً واحـداً، كمـا أنـه لم يسق دليـلاً علـى دعـواه . أمـا المستشرق ماركس فيقول : إن التصـوف الإسلامى مأخوذ مـن رهبانيـة الشام خاضع للروحانية المسيحية وذلك منطق لم يعرف إلا من مـاركس وأمثاله الحاقدين على الإسلام والذيـن نراهـم يـرددون دائمـاً أن الإسـلام عقيدة جافة بمنأى عن الروحانيـة فلمـا أن وجهـوا بـالتصوف الإسـلامى وما فيه من روحانيـات وزهـد وورع واتصـال بـالملكوت الأعلـى عن طريـق الكشـف والمشـاهدة تعـالت صيحـاتهم المحمومـة الحـاقدة أن

---

(١) الحجرات آية رقم (١٣) .

(٢) الذاريات آية رقم (٢١) .

(٣) عبس آية رقم (٢٤) .

التصوف الإسلامى مقبوس من الرهبنة المسيحية . ويذهب المستشرق (جونس) إلى أن التصوف الإسلامى مأخوذ من أفلاطونية اليونان الحديثة، أو من زرداشتية الفرس، أو بمعنى آخر يريد أن يقول أن التصوف الإسلامى وثنى حيث أن فلسفة اليونان وثنية، وكذلك الفلسفة الفارسية، ويذهب (نيكلسون) إلى أن الزهاد المسلمين ويعنى بهم الصوفية قد تشبهوا برهبان النصارى فى لبس الصوف، وحذى حذوه فى هذا الزعم المستشرق (ماسنيون)[1] ويدعى (نيكلسون) أن التصوف الإسلامى قد تكون من تأثيرات خارجية غير إسلامية وهى المسيحية والأفلاطونية الحديثة والبوذية، وأنه ليس فى القرآن أصل للتفسير الصوفى للإسلام وأن الرافد الأصيل لحب الله عند الصوفية منتزع من المسيحية[2] وهنا يفرق (نيكلسون) بين حركة الزهد والعبادة كحركة عامة إنسانية قديمة، وبين حركة التصوف الإسلامى كحركة إسلامية خالصة نشأت فى بيئة الإسلام الأولى، وترعرعت فى ظلاله وذلك لغرض فى نفس يعقوب، فالتصوف بمعناه العام قديم موغل فى التاريخ كقدم النزعة التى دعت إليه وهى نزعة تصفية القلب وإخلاص العبودية لله، ولكنه لما وجد تحت ظلال الإسلام، وأحيط بآداب القرآن ، دخل فى دور جديد[3] ورد مصطفى عبد الرازق على جولد زيهر فى زعمه بأنه يجب عند النظر فى التصوف الإسلامى نظراً تاريخياً تقدير النصيب الهندى الذى أسهم فى تكوين هذه الطريقة

---

(١) التصوف عند المستشرقين العدد ٢٧ من سلسلة الثقافة الإسلامية بالقاهرة ص١٤ .

(٢) ذاته ص١٧ .

(٣) دائرة معارف القرن العشرين للأستاذ محمد فريد وجدى وأيضاً التصوف عند المستشرقين للدكتور أحمد الشرباصى ص١٩ .

الدينية المتولدة من المذهب الأفلاطوني الجديد، مما تابع فيه زميله نيكلسون أو أن نيكلسون على الأصح قد تابعه فيه [1] .

إن منابع التصوف الإسلامي هي منابع إسلامية صرفة، وفي ذلك يقول الإمام الجنيد : مذهبنا هذا - التصوف - مقيد بأصول الكتاب والسنة ويقول : علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ ، ويقول : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة .إنما هو ثمرة العلم والتقوى فيوفق صاحبها للخير ويلهم الرشد . فأما أن يترك العلم ويقول : إنه يعتمد على الإلهام والخواطر فليس هذا بشئ، إذ لولا العلم النقلي ما عرفنا ما يقع في النفس . أمن الإلهام للخير، أو الوسوسة من الشيطان . واعلم أن العلم الإلهامي الملقى في القلوب لا يكفي عن العلم المنقول، كما أن العلوم العقلية لا تكفي عن العلوم الشرعية، فإن العقلية كالأغذية، والشرعية كالأدوية ولا ينوب هذا عن هذا[2] . وقيل "ما أخلص عبد قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه" [3] ويقول الشعراني " التصوف عبارة عن علم انقدح في قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة فكل من عمل بهما انقدح له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها[4] . ونحن لسنا مع مذهب من يرجع المعاني التي تناولها الصوفيون إلى أدب أو تصوف الفرس والهند واليونان مع القرآن والسنة والذوق، ولكنا نقول : إن توافق الأفكار بين

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية - مادة تصوف .

(٢) ذاته ص٣٢٢ .

(٣) الرسالة القشيرية ط١ ص ٩٦ .

(٤) الطبقات الكبرى للشعراني ج ١ ص٤ وأيضاً الأدب الصوفي للدكتور محمود فرج القفده ص٦٢ .

شاعر وشاعر وكاتب وكاتب أكثر تبادراً إلى الذهن من محاولة إثبات الأخذ، ولو صح أن صوفياً أخذ معنى حكمة قديمة وعبر عنها بأسلوبه فليس فى ذلك خير لأن الثقافات تتصل فى نفس الأديب والشاعر بشعور وبلا شعور، ولأن من طبيعة اختلاف العصور والثقافات أن يأخذ المتأخر من المتقدم، ونحن لا نبحث عن العوارض المشتركة بين الأدب الصوفى وغيره، وإنما نبحث عن المميزات الأصيلة له، والسمات الواضحة فيه[1]. ونحن إلى هذا الرأى أميل .

نعم إن المسيحية هى دين الزهد، ولكن الزهد هو المعنى العام للتصوف لا المعنى الخاص الذى كان عليه التصوف الإسلامى، ونجد أن المسيحية وهى تقول بطبيعة .

واحدة للمسيح عندما تلتقى بالتفكير الوثنى الإغريقى والرومانى فى جامعة الإسكندرية وغيرها تعود فتقول بالتثليث لأن عادة التفكير الوثنى تأليه البشر، والقول بألوهية بعض الناس، وكذلك نرى فكرة التثليث واضحة فى مصر القديمة (إيزيس، أوزوريس، هورس) . والأفلاطونية الجديدة ليست إلا أثراً لاتصال الفكر الشرقى بالفكر الإغريقى فى جامعة الإسكندرية القديمة، هذا الاتصال الذى نشر فكرة التثليث فى المسيحية هو راهب مصرى لم يلبس أن أصبح البابا العشرين لكنيسة الإسكندرية (٣٢٦ - ٣٧٣ م) واسمه أثناسيوس[2]، وكانت أوديسا مركزاً للقائلين بطبيعة واحدة للمسيح، وكان النصارى الساميون يحاربون التماثيل الوثنية، وعقدت المؤتمرات الدينية للبحث

---

(١) دراسات فى الأدب الصوفى دكتور محمد عبدالمنعم خفاجى ج١ ص١١٠ .

(٢) تاريخ الكنيسة المصرية - مجلة الهلال - عدد ديسمبر ١٩٢٧ .

فى طبيعة المسيح وإدخال الصور والتماثيل ولقد وقف المستشرقون من الإسلام نفسه موقفاً أعجب فذهب نيكلسون إلى أن الإسلام بجملته وتفصيله مردود فى أصوله وفروعه إلى الرهبنة المسيحية .

ويذهب جولد زيهر إلى أن الآرية أعظم من السامية، وكذلك رينان الذى فصل بين العقلية الآرية والعقلية السامية، أى بين العقلية الشرقية والأوروبية، ورأى أن الغرب يبدع والشرق يحاول فهم إبداع المدركات الأوروبية . وعلى هذا النمط يفكر غوستاف لوبون صاحب "حضارة العرب" الذى ابتدع للإسلام أصلاً من الأسطورية اليونانية والرهبنة المسيحية . وعلى هذا المنهج يفكر كايتانى الإيطالى صاحب "حوليات الإسلام" . والأب لامنسى البلجيكى، وماسينيون الفرنسى، ونيكلسون الإنجليزى وسواهم . وتترنم بعض الآداب المصرية القديمة بفكرة تمجيد الله والتبتل فى محبته وطاعته، وقد عمل إخناتون على نشر فكرة التوحيد، ولكنه أخفق وقضى على مذهبه بعد وفاته[1] ولا يصح أن نسمى ذلك تصوفاً، ونذهب إلى أنه منبع من منابع التصوف الإسلامى، وكذلك لا يصح أن نربط بين التصوف وبين بعض الأفكار الفارسية، القديمة، والمذاهب الهندية القديمة فى الزهد كذلك . وإذا كان الرهبان والأحبار فى الأديرة والصوامع قد لجأوا إلى الزهد، وعاشوا به وعليه، فإن حركتهم هذه ليست لها صلة بالتصوف الإسلامى [2].

والسلف من الصوفية كانوا أهل علم وعمل، يقول ابن الجوزى :

---

(١) راجع كتاب إخناتون لعبدالمنعم أبو بكر – سلسلة المكتبة الثقافية .

(٢) دراسات التصوف الإسلامى ظلاله فى الأدب العربى تأليف / محمد عبدالمنعم خفاجى الناشر مكتبة القاهرة ص٦٦ .

(وقد كان أوائل الصوفية يقرون بأن التعويل على الكتاب والسنة وإنما لبّس الشيطان عليهم لقلة علمهم) (١). يقول أبو يزيد (لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتفع فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود(٢) .

وبإسناد عن أبى موسى يقول : سمعت أبا يزيد البسطامى قال : " من ترك قراءة القرآن، والتقشف، ولزوم الجماعة، وحضور الجنائز، وعيادة المرضى، وادعى بهذا الشأن فهو مبتدع " (٣) . وبالإسناد عن عبدالحميد الحبلى يقول : (سمعت سرياً يقول : من ادّعى باطن علم ينقض ظاهر حكم فهو غالط) (٤).

وعن الجنيد أنه قال (مذهبنا هذا مقيد بالأصول "الكتاب والسنة") وقال أيضاً "علمنا منوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به "(٥) . وقال أيضاً (ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، لكن عن الجوع وترك الدنيا، وقطع المألوفات والمستحسنات، لأن التصوف من صفاء المعاملة مع الله سبحانه وتعالى. وأصله التفرق عن الدنيا كما قال حارثة " عرفت نفسى فى الدنيا فأسهرت ليلى، وأظمأت نهارى" (٦) .

---

(١) تلبيس إبليس للحافظ الإمام جمال الدين أبى الفرج عبدالرحمن بن الجوزى البغدادى ص١٦٨ مكتبة الإمام ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م .

(٢) ذاته .

(٣) ذاته .

(٤) ذاته .

(٥) ذاته .

(٦) ذاته ص١٦٨ .

وعن أبى بكر الشفاف (من ضيع حدود الأمر والنهى فى الظاهر حرم مشاهدة القلب فى الباطن " وقال الحسين النورى لبعض أصحابه " من رأيته يدعى مع الله عز وجل حالة تخرجه عن حد علم الشرع فلا تقربنه، ومن رأيته يدعى حالة لا يدل عليها دليل، ولا يشهد لها حفظ ظاهر فاتهمه على دينه " .

وعن الجريرى قال : (أمرنا هذا كله مجموع على فضل واحد هو أن تلزم قلبك المراقبة ويكون العلم على ظاهرك قائماً) .

وعن أبى جعفر قال (من لم يزن أقواله وأفعاله وأحواله بالكتاب والسنة، ولم يتهم خاطره فلا تعده فى ديوان الرجال) [١]. ويقول ابن الجوزى أيضاً : (وما كان المتقدمون فى التصوف إلا رؤوساً فى القرآن والفقه والحديث والتفسير، ولكن هؤلاء أحبوا البطالة)[٢] . ولا ننكر أنه إذا طهر القلب، انصبت عليه أنوار الهدى فينظر بنور الله، إلا أنه ينبغى أن يكون تطهيره بمقتضى العلم لا بما ينافيه، فإن الجوع الشديد والسهر وتضييع الزمان فى التخيلات أمور ينهى الشرع عنها فلا يستفاد من صاحب الشرع شئ ينسب إلى ما نهى عنه، كما لا تستباح الرخص فى سفر قد نهى عنه، ثم لا تنافى بين العلم والرياضة بل العلم يعلم كيفية الرياضة، ويعين على تصحيحها، وأن الله عز وجل يلهم الإنسان الشيء كما قال النبى ﷺ "إن فى الأمم محدثين، وإن يكن فى أمتى فعمر" [٣] والمراد بالتحديث إلهام الخير . إلا أن الملهم لو ألهم ما يخالف العلم لم يجز له أن يعمل عليه . وأما الخضر فقد قيل إنه نبى ولا ينكر للأنبياء الاطلاع بالوحى على العواقب، وليس الإلهام من العلم فى شئ .

---

(١) ذاته .

(٢) ذاته ص٣٢٣ .

(٣) ذاته ص٣٢٢ .

الطرق الصوفية :

- **القادرية** : تنتسب إلى عبدالقادر الجيلانى (٤٧٠ - ٥٦١ هـ) المدفون فى بغداد حيث تزوره كل عام جموع كثيرة من أتباعه للتبرك به، اطلع على كثير من علوم عصره، وقد نسب أتباعه إليه كثيراً من الكرامات، رزق بتسعة وأربعين ولداً حمل أحد عشر منهم تعاليمه ونشروها فى العالم الإسلامى .

الرفاعية : تنسب إلى أحمد الرفاعى (ت ٥٨٠ هـ) من بنى رفاعة قبيلة من العرب، وجماعته يستخدمون السيوف والحراب فى إثبات الكرامات، كان زاهداً كثير الرياضة النفسية انتشرت طريقتهم فى غرب أسيا .

الأحمدية: وتنسب إلى أحمد البدوى أكبر أولياء مصر (٥٩٦-٦٣٤هـ) ولد بفاس، حج ورحل إلى العراق، واستقر فى طنطا حتى وفاته، وله فيها ضريح مقصود، امتاز بالفروسية عكف على العبادة وامتنع عن الزواج، وأتباعه منتشرون فى جميع أرجاء مصر ولهم فيها فروع كالبيومية والشناوية وأولاد نوح والشعبية، وشارتهم العمامة الحمراء .

الدسوقية : تنسب إلى إبراهيم الدسوقى (٦٣٣ - ٦٧٦ هـ) وطريقته تدعو إلى الخروج عن النفس وحظوظها، رأس مالهم المحبة لجميع الخلق والتسليم والسكوت تحت مراد الشيخ وأمره، إنها تدعوإلى العلم والعمل به مع عدم استحباب الخلوة إلا إذا كانت بامر من الشيخ .

الأكبرية : نسبة إلى الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى، وتقوم طريقته على الصمت والعزلة والجوع والسهر، ولها ثلاث صفات الصبر على البلاء، والشكر على الرخاء، والرضا بالقضاء .

الشاذلية : نسبة إلى أبي الحسن الشاذلي (٥٩٣ - ٦٥٦ هـ) وهذه طريقة أقرب مغربية وانتقل إلى تونس وحج عدة مرات ثم دخل العراق ومات أخيرا في صحراء عيذاب في طريقه إلى الحج قيل عنه " إنه سهل الطريقة على الخليقة " لأن طريقته أسهل الطرق وأقربها فهي تقوم على كثرة العلم والذكر وليس فيها كثير مجاهدة انتشرت طريقته في مصر واليمن وبلاد المغرب وأهل مدينة (صفا) يدينون له بالتقدير والاعتقاد العميق في ولايته وانتشرت طريقته كذلك في مراكش وغرب الجزائر وفي شمال أفريقيا وغيرها .

البكتاشية : كان الأتراك العثمانيون ينتمون إلى هذه الطريقة وهي ما تزال منتشرة في ألبانيا كما أنها أقرب إلى التصوف الشيعي منها إلى التصوف السني وقد كان لهذه الطريقة دور بارز في نشر الإسلام بين الأتراك والمغول وكان لها سلطان عظيم على الحكام العثمانيين ذاتهم .

المولوية : أنشأها الشاعر الفارسي جلال الدين الرومي (ت ٦٧٢ هـ) والمنتمون بقونيه يتميزون بإدخال الرقص والإيقاعات في حلقات الذكر وقد انتشروا في تركيا وآسيا الغربية ولم يبق لهم في الأيام الحاضرة إلا بعض التكايا في تركيا وفي حلب وفي بعض أقطار المشرق .

النقشبندية : تنسب إلى الشيخ بهاء الدين محمد بن محمد البخاري الملقب بشاه نقشبند (٦١٨ - ٧٩١ هـ) وهي طريقة سهلة كالشاذلية انتشرت في فارس وبلاد الهند وآسيا الغربية .

الملامتية : مؤسسها أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمارة المعروف بالقصار (ت ٢٧١ هـ) أباح بعضهم منافاة الناس بنية

جهادها ومحاربة نقائصها، وقد تؤدي المغالاة في تركهما حتماً بدعوى الإباحية والاستهتار ورفض كل أمر دون مراعاة الأوامر والنواهي الشرعية .

درجات السلوك :

هناك فرق بين الصوفيّ والعابد والزاهد إلا أن لكل واحد منهم أسلوباً ومنهجاً وهدفاً .

المقامات : وهي المنازل الروحية التي يمر بها السالك إلى الله فيقف حقبة من الزمن مجاهداً في إطارها حتى ينتقل إلى المنزل الثاني، ولا بد للانتقال من جهاد وتزكية .

الأحوال : إنها النسمات التي تهب على السالك فتنتعش بها نفسه لحظات خاطفة ثم تمر تاركة عطراً تتشوق الروح للعودة إلى تنسم أريجه . قال الجنيد : الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم .

الأحوال : مواهب، والمقامات : مكاسب، ويعبرون عن ذلك بقولهم الأحوال تأتي من عين الجود، والمقامات تحصل ببذل المجهود . وأول درجات السلوك حب الله ورسوله، ودليله الاقتداء برسول الله ﷺ، ثم الأسوة الحسنة قال تعالى : (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً)[1] ثم التوبة ويكون ذلك بالإقلاع عن المعصية، والندم على فعلها، والعزم على أن لا يعود إليها، وإبراء صاحبها إن كانت تتعلق بآدمي . يقول ابن القيم

---

(١) سورة الأحزاب آية رقم (٢١) .

الجوزية[1] وشرائط التوبة ثلاثة : الندم، الإقلاع، الاعتذار . فحقيقة التوبة هى الندم على ما سلف منه فى الماضى، والإقلاع عنه فى الحال، والعزم على أن لا يعاوده فى المستقبل والثلاثة تجتمع فى الوقت الذى تقع فيه التوبة فإنه فى ذلك الوقت يندم، ويقلع، ويعزم . فحينئذ يرجع إلى العبودية التى خلق لها، وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة، ولما كان متوقفاً على تلك الثلاثة جعلت شرائط لها . فأما الندم فإنه لا تتحقق التوبة إلا به وأما الإقلاع فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب . وأما الاعتذار ففيه إشكال فإن من الناس من يقول : من تمام التوبة ترك الاعتذار، وترك الاعتذار اعتراف بها ولا تصح التوبة إلا بعد الاعتراف وفى ذلك يقول بعض الشعراء لرئيسه وقد عقب عليه فى شئ :

وما قابلت عتبك باعتذار ولكنى أقول كما تقول
وأطرق باب عفوك بانكسار ويحكم بيننا الخلق الجميل [2]

فلما سمع الرئيس مقالته قام وركب إليه من فوره، وأزال عتبه عليه . فتمام الاعتراف . ترك الاعتذار بأن يكون فى قلبه ولسانه (اللهم لا براءة لى من ذنب فاعتذر، ولا قوة لى فانتصر، ولكنى مذنب مستغفر. اللهم لا عذر لى وإنما هو محض حقك، ومحض جنايتى . فإن عفوت وإلا فالحق لك[3] الورع : وهو ان يترك السائل كل ما فيه

---

(١) مدارج السالكين ج١ ص٢٠٢،٢٠٣ .
(٢) ذاته .
(٣) ذاته .

شبهة، وهو يكون فى الحديث والقلب والعمل . ويقول ابن قيم الجوزية[1] الورع وهو توق مستعصى على حذر، وتحرج على تعظيم) يعنى أن يتوقى الحرام والشبه، والتوقى والحذر متقاربان إلا أن (التوقى) فعل الجوارح، و(الحذر) فعل القلب . فقد يتوقى العبد الشئ لا على وجه الحذروالخوف ولكن لأمور أخرى من إظهار ونزاهة، وعزة وتصوف مثل توقى الذين لا يؤمنون بمعاد ولا جنة ولا نار. وقوله أو تحرج على تعظيم يعنى أن الباعث على الورع عن المحارم والشبه، إما حذر حلول الوعيد، وإما تعظيم الرب جلّ جلاله، وإجلالاً له أن يتعرض لما نهى عنه . فالورع عن المعصية إما تخوف أو تعظيم . وهو آخر مقام الزهد للعامة، وأول مقام الزهد للمريد[2] . وللورع منزلة عظيمة إذ به تمام إصلاح الأعمال والأخلاق حيث إن نجاسة الظاهر تورث نجاسة الباطن، فالورع يطهر دنس القلب كما يطهر الماء دنس الثوب ونجاسته وبين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة وباطنة ولذلك تدل ثياب المرء فى المنام على قلبه وحاله . وقد جمع النبى ﷺ الورع كله فى كلمة واحدة فقال عليه السلام (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) . فهذا يعم الترك لما لا يعنى من الكلام، والنظر، والاستماع، والبطش والمشى، والفكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة فهذه الكلمة كافية شافية فى الورع . يقول إبراهيم بن أدهم (الورع ترك كل شبهة، وترك ما لا يعنيك هو ترك الفضلات

---

(١) ذاته ج٢ ص٢٣ .

(٢) ذاته ص٢٤ .

وفى الترمذى مرفوعاً إلى النبى ﷺ : (يا أبا هريرة كن ورعاً تكن أعبد الناس)[١] ويقول أبو سليمان الدرانى : (الورع أول الزهد، كما أن القناعة أول الرضا) وقال يحيى بن معاذ : الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل، والورع على وجهين : ورع فى الظاهر، وورع فى الباطن . فورع الظاهر أن لا يتحرك إلا لله، وورع الباطن هو : أن لا تدخل قلبك سواه، وقال أيضاً : من لم ينظر فى الدقيق من الورع لم يصل إلى الجليل من العطاء، وقيل من دق فى الدنيا ورعه – أو – نظره – جلّ فى القيامة خطره وقال سفيان الثورى : ما رأيت أسهل من الورع، ما حاك فى نفسك فاتركه، وقال الحسن : مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة . وقال أبو هريرة : (جلساء الله غداً أهل الورع والزهد) وقال الصحابة رضى الله عنهم كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن تقع فى باب من الحرام[٢] والورع على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : تجنب القبائح لصون النفس، وتوفير الحسنات، وصيانة الإيمان .

الدرجة الثانية : (هى حفظ الحدود عندما لا بأس به، إبقاءً على الصيانة والتقوى، وصعوداً عن الدناءة، وتخلصاً عن اقتحام الحدود) .

الدرجة الثالثة : التورع عن كل داعية تدعو إلى شتات الوقت، والتعلق بالتفرق، وعارض يعارض حال الجميع[٣].

---

(١) ذاته ص٢٢ .

(٢) ذاته ص٢٣ .

(٣) ذاته ص٣٤ – ٢٨ .

ثمار : الخوف يثمر الورع، والاستعانة وقصر الأمل وقوة الإيمان باللقاء تثمر الزهد، والمعرفة تثمر المحبة . والخوف والرجاء والقناعة تثمر الرضا، والذكر يثمر حياة القلب، والإيمان بالقدر يثمر التوكل، ودوام تأمل الأسماء والصفات يثمر المعرفة، والورع يثمر الزهد، والتوبة تثمر المحبة، ودوام الذكر يثمرها، والرضا يثمر الشكر، والعزيمة والصبر يثمران جميع الأحوال والمقامات، والإخلاص والصدق كل منهما يثمر الآخر ويقتضيه، والمعرفة تثمر الخلق، والفكر يثمر العزيمة، والمراقبة تثمر عمارة الوقت، وحفظ الأيام والحياء والخشية والإنابة وإماتة النفس وإذلالها وكسرها : يوجب حياة القلب وعزه وصبره، ومعرفة النفس ومقتها يوجب الحياء من الله عز وجل، واستكثار ما منه، واستقلال ما منك من الطاعات، ومحو أثر الدعوى من القلب واللسان وصحة البصيرة : تثمر اليقين، وحسن التأمل لما ترى وتسمع من الآيات المشهودة والمتلوة يثمر صحة البصيرة (١) وملاك ذلك كله أمران :

أحدهما : أن تنقل قلبك من وطن الدنيا فتسكنه في وطن الآخرة .

ثانيهما : ثم تقبل به كله على معانى القرآن واستجلائها وتدبرها، وفهم ما يراد منه وما نزل لأجله، وأخذ نصيبك وحظك من كل آية من آياته، وتنزلها على داء قلبك . فهذه طريقة مختصرة قريبة سهلة، موصلة إلى الرفيق الأعلى ، آمنة لا يلحق سالكها خوف ولا عطب ولا جوع ولا عطش ، ولا فيها آفة من آفات الطرق البتة، وعليها من الله حارس وحافظ يكلأ السالكين فيها ويحميهم ويدفع عنهم(٢) .

---

(١) ذاته ص ٢٩ .

(٢) ذاته ص ٢٩ .

ولا يعرف قدر هذه الطريقة إلا من عرف طرق الناس وغوائلها وآفاتها وقطاعها.

الزهد : وهو يعنى أن تكون الدنيا على ظهر يده، وقلبه معلق بما فى يد الله .التوكل : يقولون أن التوكل بداية، والتسليم واسطة، والتعويض نهاية إن كان للثقة فى الله نهاية ويقول سهل التسترى (التوكل هو الاسترسال مع الله تعالى على ما يريد) .

المحبة : يقول الحسن البصرى : (فعلامة المحبة الموافقة للمحبوب والتجارى مع طرقاته فى كل الأمور، والتقرب إليه بكل صلة والهرب من كل ما لا يعنيه على مذهبه) .

الرضا : يقول أحدهم (الرضا بالله الأعظم وجنة الدنيا، وهو أن يكون قلب العبد ساكناً تحت حكم الله عز وجل، ويقول آخر الرضا آخر المقامات ثم يقتفى من بعد ذلك أحوال أرباب القلوب، ومطالعة الغيوب، وتهذيب الأسرار لصفاء الأذكار وحقائق الأحوال) يقول الله عز وجل (رضى الله عنهم ورضوا عنه)[1] وعن جابر قال : قال رسول الله ﷺ بينا أهل الجنة فى مجلس لهم، إذ سطع لهم نور على باب الجنة، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب تعالى قد أشرق عليهم فقال : يا أهل الجنة سلونى فقالوا : نسألك الرضا عنا، قال تعالى : رضاى قد أحلكم دارى وأنالكم كرامتى، هذا أوانها فاسألونى . قالوا : نسألك الزيادة قال : فيؤتون بنجائب من ياقوت أحمر .. أزمتها زمرد أخضر، وياقوت احمر، فجاءوا عليها، تضع حوافرها عند منتهى طرفها[2]، فيأمر الله

---

(١) سورة البينة الآية رقم (٨) .

(٢) أى بصرها .

بأشجار عليها الثمار وتجئ جوارٍ من الحور العين ، وهنّ يقلن، نحن الناعمات فلا نبؤس، ونحن الخالدات فلا نموت، أزواج قوم مؤمنين كرام، ويأمر الله سبحانه بكثبان[1] من مسك أبيض أنفر، فتثير عليهم ريحاً يقال لها (المثيرة) حتى تنتهى بهم إلى جنة عدن، وهى (قصبة)[2] الجنة، فتقول الملائكة : يا ربنا، قد جاء القوم، فيقول الله : مرحباً بالصادقين .. مرحباً بالطائعين . قال : فيكشف لهم الحجاب ... فينظرون إلى الله عز وجل ... فيتمتعون بنور الرحمن، حتى لا يبصر بعضهم بعضاً، ثم يقول : أرجعوهم إلى القصور بالتحف . قال : فيرجعون، وقد أبصر بعضهم بعضاً فقال رسول الله ﷺ : فذلك قوله تعالى (نزلاً من غفور رحيم[3])[4] وقد اختلف العراقيون والخراسانيون فى الرضا هل هو من الأحوال أو من المقامات ؟ فأهل خراسان قالوا : الرضا من جملة المقامات، وهو نهاية التوكل ومعناه أنه يؤول إلى أنه مما يتوصل إليه العبد باكتسابه، وأما العراقيون فإنهم قالوا : الرضا : من جملة الأحوال، وليس ذلك كسباً للعبد بل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الأحوال، ويمكن الجمع بين القولين فيقال : بداية الرضا مكتسبة[5] للعبد وهى من المقامات، ونهايته من جملة الأحوال وليست بمكتسبة.

---

(١) الكثبان جمع كثيب وهو مجتمع الرمل .

(٢) أى وسطها والمراد أحسنها .

(٣) الرسالة القشيرية للقشيرى تحقيق الدكتور عبدالحليم محمود ومحمود بن الشريف ج٢ ص٤٢١، ٤٢٢ .

(٤) الرسالة القشيرية ج٢ ص٤٢٢ .

(٥) سورة فصلت الآية ٣٢ .

وللعلماء في الرضا أقوال متباينة وإن كان مؤداها ومعناها لايختلف كثيراً عن القصد والمراد، بل يكاد يكون المعنى متحداً وإن اختلفت الألفاظ وإليك طائفة من أقوال علماء التصوف، فيقول أبو عليّ الدقاق (ليس الرضا أن لا تحس بالبلاء، إنما الرضا أن لا تعترض على الحكم والقضاء . وقالوا : الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا[1] وقال موسى عليه السلام : الهى، دلنى على عمل إذا عملته رضيت به عنى. فقال إنك لا تطيق ذلك، فخر موسى عليه السلام ساجداً له متضرعاً فأوحى الله تعالى إليه يا ابن عمران إن رضاى فى رضاك بقضائى . ويقول أبو سليمان الدارانى : إذا سلا العبد عن الشهوات فهو راض . ويقول رويم : الرضا أن لو جعل الله جهنم على يمينه ما سأل أن يحولها إلى يساره [2]. وقال أبوبكر بن طاهر الرضا إخراج الكراهية من القلب، حتى لا يكون فيه إلا فرح وسرور . وسئلت رابعة العدوية متى يكون العبد راضياً ؟ فقالت إذا سرّته المصيبة كما سرّته النعمة [3]. وسئل أبو عثمان عن قول النبى ﷺ (أسألك الرضا بعد القضاء) فقال : لأن الرضا قبل القضاء عزم على الرضا والرضا بعد القضاء هو الرضا)[4] . ويقول أبو تراب النخشبيّ : ليس ينال الرضا من للدنيا فى قلبه مقدار [5]. وعن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله ﷺ (ذاق طعم الإيمان من رضى الله ربا) وكتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنهما . أما بعد : فإن الخير كله فى الرضا، فإن استطعت أن ترضى، وإلا فاصبر وقيل أن

---

(١) ذاته ص٤٢٣ .

(٢) ذاته ص٤٢٤ .

(٣) ذاته .

(٤) ص٤٢٥ .

(٥) ذاته ص٤٢٦ .

عتبة الغلام بات ليلة يقول إلى الصباح (إن تعذبنى فأنا لك محب، وإن ترحمني فأنا لك محب) وقال أبو عثمان منذ أربعين سنة ما أقامنى الله عز وجل فى حال فكرهته، وما نقلنى إلى غيره فسخطه [1] .

أفكار المتصوفة :

للمتصوفة أفكار ومعتقدات تخصهم، فهم يعتقدون أن الدين شريعة وحقيقة . فالشريعة هى الظاهر من الدين وأنها الباب الذى يلج منه الجميع، والحقيقة هى الباطن الذى لا يصل إليه إلا الصفوة من المتصوفة أو المسلمين أجمعين الذين اصطفاهم الله واختارهم، وجعلهم منة أهل محبته ونحن نرى أن هذا الاعتقاد صحيح ولا يتطرق إليه الريب ودليلنا على ذلك قصة الخضر مع سيدنا موسى عليه السلام فخرق موسى للسفينة . هذا الأمر فى الظاهر وفى الشريعة أمر ينكره الناس والرأى العام وفى الحقيقة أمر مستحسن وكان عين الصواب وقتله للغلام فى ظاهر الأمر وتعاليم الشريعة حرام حيث أنه قتل نفساً زكيه بغير نفس ودون وجه حق، وفى الحقيقة كان قتل الغلام واجباً وإقامته للجدار كان كذلك . ثم نرى الخضر يفسر هذه التصرفات لموسى عليه السلام بما حكاه القرآن الكريم فقال تعالى : (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً، وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من

---

(١) ذاته ص٤٢٦، ٤٢٧ .

ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً)[1] وعن أبيّ بن كعب عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسأل أي الناس أعلم ؟ فقال : أنا، فعتب الله عز وجل عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه أن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى يا رب فكيف لي به ؟ قال : تأخذ حوتاً فتجعله في مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم، فانطلق موسى : ومعه فتاه (يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً – قال ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به – فقال فتاه ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً﴾[2] قال فكان للحوت مسرباً ولموسى وفتاه عجباً فقال موسى ﴿ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً ﴾[3] قال رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا هو مسجّى بثوب فسلّم عليه موسى فقال الخضر : وأنّى بأرضك السلام من أنت ؟ قال : أنا موسى، قال موسى بني إسرائيل ؟ قال نعم أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا ﴿ قال إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾[4] . يا موسى إني على علم من علم الله لا تعلمه

---

(١) سورة الكهف آية رقم ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢ .

(٢) سورة الكهف الآية ٦٣ .

(٣) سورة الكهف الآية ٦٤ .

(٤) سورة الكهف الآية ٦٧ .

علّمنيه، وأنت على علم من علم الله علّمكه لا أعلمه[1] .

ويروى أن الخضر كان يجلس مع موسى عليهما السلام فجاء طائر ووقع على ورك الخضر ثم طار ونقر ماء البحر بمنقاره فقال الخضر لموسى أتعرف ما يقوله لي هذا الطائر؟ قال له موسى : لا فقال الخضر إنه يقول لي (إن الله علّم موسى علماً من علمه لم يعلمه للخضر، وعلّم الخضر علماً من علمه لم يعلمه لموسى، وعلّمني (الطائر) علماً من علمه لم يعلمه لك ولا لموسى وما مثل علمي وعلمك وعلم موسى إلا كهذه القطرة التي علقت بمنقاره من البحر . فقال موسى ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً ﴾[2] فقال له الخضر : ﴿ فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً﴾[3] فانطلقا يمشيان على الساحل فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول – أي بدون أجر – فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى : قوم قد حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿ لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً ﴾[4] وقال رسول الله ﷺ : وكانت الأولى من موسى نسياناً، وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر : ما علمي وعلمك من علم الله تعالى إلا مثل ما نقص العصفور من هذا البحر، ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه فقتله، فقال له موسى ﴿ أقتلت نفساً زكية

---

(١) الطبري ج١٥ ص٢٨٩ .

(٢) سورة الكهف الآية ٦٩ .

(٣) سورة الكهف الآية ٧٠ .

(٤) سورة الكهف الآية ٧١ .

بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً ﴾[1] قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً قال سفيان : وهذه أشد من الأولى ﴿ قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذراً ﴾[2] فانطلقا ﴿حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض ﴾[3] فقال الخضر بيده هكذا – أى أشار بيده – فأقامه فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا، ولم يضيفونا ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجراً ﴾[4] قال الخضر : ﴿ هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴾[5] قال رسول الله ﷺ : يرحم الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقص الله علينا من أخبارهما"!! أخرجه الشيخان وقال العلامة القرطبى : "كرامات الأنبياء ثابتة على ما دلت عليه الأخبار والآيات المتواترة، ولا ينكرها إلا المبتدع الجاحد أو الفاسق الحاسد ، فالآيات ما أخبر الله تعالى فى حق مريم من ظهور الفواكه الشتوية فى الصيف، والصيفية فى الشتاء، وما ظهر على يدها حيث هزّت النخلة وكانت يابسة فأثمرت، وهى ليست بنبيه، ويدل أيضاً ما ظهر على يد الخضر من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار"[6] .

والتصوف من وجهة نظرهم : طريقةً وحقيقةً معاً كما أنه لا بد

---

(١) سورة الكهف الآية ٧٤ .

(٢) سورة الكهف الآية ٧٦ .

(٣) سورة الكهف الآية ٧٧ .

(٤) سورة الكهف الآية ٧٧ .

(٥) سورة الكهف الآية ٧٨ .

(٦) صفوة التفاسير تأليف محمد على الصابونى – المجلد الثانى دار القرآن الكريم ببيروت – الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م ص٢٠٣ .

فى التصوف من التأثير الروحى وتركيز الذهن فى الملأ الأعلى، وأعلى الدرجات لديهم (درجة الولى) كما يرون الالتزام بالشريعة من الأمور الضرورية يقول سهل التسترى : أصول طريقنا سبعة : التمسك بالكتاب ويعنى القرآن الكريم،والاقتداء بالسنة، وأكل الحلال، وكف الأذى، وتجنب المعاصى، ولزوم التسوية، وأداء الحقوق) . ويقول أبو الحسن الشاذلى : (إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف) فهذا دليل حاسم على أن التصوف مقبوس من الكتاب والسنة وليس بخارج عنهما ويقول أيضاً (إذا لم يواظب الفقير ويعنى الصوفى على حضور الصلوات الخمس فى جماعة فلا تعبأ به، وقال أيضاً : من لم يؤد الصلوات الخمس فى أوقاتها فليس بصوفىّ ولو طار فى الهواء أو مشى على الماء . وهذه دعوة من الشاذلى للمتصوفة إلى الالتزام بالكتاب والسنة والحفاظ على تأدية الصلاة فى أوقاتها . ولكن ما نراه من المتصوفة أو أدعياء التصوّف فى هذا العصر الأنكد وما يسمون بالدراويش من أن بعضهم أو جلّهم يدعى افتراءً وكذباً أن الصلاة مرفوعة عنه وأنه غير مكلف بها حيث قد بلغ مرحلة من مراحل التصوف أدت به إلى الكشف والمشاهدة فذلك محض افتراء حيث إن المتصوفة العلماء دعوا إلى التمسك بالكتاب والسنة وعدم التقصير فى الصلاة حيث إنها من أركان الإسلام، بل هى الركن الثانى وقدمت على الصوم والزكاة والحج وجاء ذكرها بعد الشهادتين مباشرة لأهميتها ولأنها صلة بين العبد وربه فكيف يدعى الكشف والمشاهدة وينكر ركناً من أركان الإسلام . إن المسلم الذى يدعى هذا الادعاء معتقداً هذا الاعتقاد فإنه ليس بصوفىّ بل هو كافر دعىّ . فإن الصلاة لم ترفع عن أحد حتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ويقول أبو يزيد البسطامى (لو نظرتم إلى رجل أعطى من

الكرامات حتى يرتقى فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه فى الأمر والنهى) . أى كيف حاله وسلوكه فى اتباع الأوامر واجتناب النواهى، ويقول الإمام الغزالى : (لو رأيت إنساناً يطير فى الهواء ويمشى على الماء وهو يتعاطى أمراً يخالف الشرع فاعلم أنه شيطان) وما نراه من سلوك (الصوفية) والدراويش فى هذا العصر إنما هو وصمة عار فى جبين الإسلام والمسلمين حيث إن لهم من التصرفات والعادات والأعراف ما يكون سبباً فى وصف الإسلام بما هو منه براء فنحن نرى ونشاهد فى الموالد والأذكار التى يقيمونها ويحضر فيها حشد كبير وتجمعات غفيرة سلوكيات تشمأز منها النفس المسلمة حيث ترى اختلاط النساء بالرجال بحجة أنها أخته فى الطريقة وينامون سوياً على الأرصفة والطرقات على مرأى ومسمع من الناس وهذا أمر يتنافى وخلق المسلم وبخاصة إذا كان منخرطاً فى سلك المتصوفة، ومعدوداً من بين صفوفهم . كما أن حلقات الذكر التى يقيمونها هؤلاء ويتمايلون فيها على نغمات الدف والمزامير والآلات الموسيقية الحديثة وتعالى الصيحات أحياناً بألفاظ مبهمة تشبه الطقوس الغامضة والتى تؤدى دون فهم لمعانيها وألفاظها لدى غير المسلمين فإن ذلك جميعه ليس من الإسلام، بل هو تشويه لصورة الإسلام ذات الرونق والبهاء . وبخاصة لدى المستشرقين الذين يكيدون للإسلام كيدا، ودأبوا على دس السم فى الدسم فيأخذون هذه الصور المشينة ويصورون الإسلام بصورة لا تليق . كما أنهم يسمون التمايل على أصوات الأناشيد ونغمات الموسيقى (بالرقص الدينى) فهم يسمونه رقصاً وبذلك يشوهون صورة الإسلام بما يرتكبه المسلمون أو المتصوفة من المسلمين من مخالفات لشرع الله فيما يقيمونه من موالد لدى أضرحة الأولياء فالتصوف إسلامى لحمة وسدى وهو مقبوس من

الكتاب والسنة فكل من يرتكب مخالفة من مثل هذه المخالفات فليس بصوفيّ ولو ظهرت على يديه بعض الكرامات . فإنه شيطان . كما ان الموالد التى تقام فى المناسبات ولدى أضرحة الأولياء والعارفين ترتكب فى ساحاتها المناكر والآثام، بل أصبحت مركزاً لتجمعات الشباب والشواب مما يتنافى وأخلاق ديننا الحنيف . والأفضل أن يكون احتفال الصوفية بالأولياء والعارفين بإلقاء المحاضرات عن الإسلام، والتصوف الإسلامى، والتعريف بهذا الولى وتاريخه وسلوكه ونشأته وحياته ليتخذ الناس هذا الولى قدوة حسنة فى السلوك والالتزام وطرح الترهات، وما يحدث من هؤلاء من شعبذات وخرافات تشوه صورة الإسلام والمسلمين وهما من ذلك براء .

بين الزهد والتصوف :

إن الزهد هو أول حركات التصوف فى الإسلام وقد انتشرت حركة الزهد فى عصر الرسول وبعده، وبخاصة بعد ثراء المسلمين وحكمهم للعالم القديم المعروف آنذاك . وبون شاسع بين الزهد والتصوف فالتصوف زهد فى الدنيا لكسب رضاء الله، والزهد بعد عن الدنيا لكسب ثواب الآخرة . والتصوف دخول فى جمال الملأ الأعلى وروحه ورحمته، والزهد دخول فى مجال التقوى خوفاً من عذاب الله ونقمته وجبروته، والتصوف فلسفة روحية فى الإسلام . والزهد منهج عملى من مناهج بعض المسلمين(1)، ويقول صاحب المنازل (الزهد هو أول إسقاط الرغبة عن الشيء بالكلية) ويريد بالشيء المزهود فيه ما سوى الله . والإسقاط عنه إزالته عن القلب وإسقاط تعلق الرغبة به وقوله (بالكلية) أى بحيث لا يلتفت إليه، ولا يتشوق إليه، وهو للعامة

---

(١) المدخل إلى التصوف الإسلامى للأستاذ محمود أبو الفيض المنوفى ص٣٠:٢٥ .

قربة، وللمريد ضرورة، وللخاصة خشية . يعنى أن العامة تتقرب بـــه إلى الله (والقربة) ما يتقرب به المتقرب إلـــى محبوبـــة[1] ، وهـــو ضرورة للمريد كضرورته إلى الطعام والشراب[2] ، والزهد فى لغـــة العرب والتى هى لغة الإسلام تعنى الانصراف عن الشيء احتقاراً لـــه، وتصغيراً لشأنه، وذلك للاستغناء عنه بخير منه ولم يرد فـــى القـــرآن الكريم إلا فى شأن الذين شروا يوسف عليه السلام قال تعالى : ﴿وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ﴾[3] والزهد فيما أنعم الله وتفضل به على الإنسان فى هذه الحياة بما يجعلـــه بـــلاءاً وعونـــاً للمهتدين على الإيمان والهدى وصالح الأعمال للمتقيـــن فيكـــون باقيـــاً صالحاً للآخرة، وعوناً على الكفر والفسوق والعصيان عنـــد الغـــافلين الكافرين، والزهد فى ذلك إعراض عن نعم الله وتحقير لها وليس هـــذا من هدى رسول الله ﷺ، ولا هدى أصحابه، وإنما كان هداهم تقدير هـــذه النعم وحبها والفرح بفضل الله عليهم بها وشكرها بالاستعانة بها علـــى النجاح والفلاح فيما ابتلاهم الله به[4] . والآيات القرآنية الـــواردة فـــى الزهد كثرة كاثرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قوله ســبحانه ﴿ما عندكم ينفذ وما عند الله باق ﴾[5] وقال تعالى ﴿ اعلموا إنما الحيـــاة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل

---

(١) مدارك السالكين لابن قيم الجوزية ج٢ ص١٥ دار الكتب العلميـة بيروت – لبنـان – بدون تاريخ .

(٢) ذاته .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٢٠ .

(٤) ذاته ص٩ هامش رقم ١ .

(٥) سورة النحل آية رقم (٩٦).

غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾[1] وقال عز وجل ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾[2] وقوله سبحانه ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً ﴾[3] وقوله سبحانه ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ﴾[4] وقوله عز وجل ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقف من فضة ومعارج عليها يظهرون ﴾[5] وقوله عز وجل ﴿ والآخرة عند ربك خير للمتقين ﴾[6] وقد أكثر الناس من الكلام فى (الزهد) وكل أشار إلى ذوقه، ونطق عن حاله وشاهده، فإن غالب عبارات القوم عن أذواقهم وأحوالهم والكلام بلسان العلم أوسع من الكلام بلسان الذوق وأقرب إلى الحجة والبرهان . يقول ابن تيمية : الزهد ترك ما لا ينفع فى الآخرة، والورع ترك ما تخاف ضرورة فى الآخرة، وهذه العبارة من أحسن ما قيل فى الزهد والورع أجمعها . وقال سفيان الثورى : الزهد فى الدنيا قصر الأمل . ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباء . وقال الجنيد : سمعت سرياً يقول :

---

(١) سورة الحديد آية رقم (٢٠) .

(٢) سورة يونس آية رقم (٢٤) .

(٣) النساء آية رقم (٧٧) .

(٤) سورة الأعلى (١٦،١٧).

(٥) سورة الزخرف آية رقم (٣٣) .

(٦) الزخرف آية رقم (٣٥) .

(إن الله عز وجل سلب الدنيا عن أوليائه، وحماها عن أصفيائه وأخرجها من قلوب أهل وداده . لأنه لم يرضها لهم . وقال الزهد فى قوله تعالى ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور ﴾[1] فالزاهد لا يفرح من الدنيا بموجود، ولا يأسف منها على مفقود[2]، ولقد كان رسول الله ﷺ فى أسعد عيش وأرغده فى حياته كلها . يملأ الله يديه بالخير فيضعه حيث أحب ربه ومات رسول الله ﷺ وعنده بما أفاء عليه من بنى النضير وخيبر وغيرهما ما كان سبباً فى خصومة على والعباس رضى الله عنهما لأبى بكر وعمر . وكان ﷺ يحب الطيبات ويستمتع بها فى غير سرف ولا مخيلة . وخير الهدى هدى محمد ﷺ . ويقول يحيى بن معاذ : الزهد يورث السخاء بالملك، والحب يورث السخاء بالروح . وقال ابن الجلاء : الزهد هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال، فتصغر فى عينيك، فيسهل عليك الإعراض عنها . وقال ابن خفيف : الزهد وجود الراحة فى الخروج من الملك، . وقال الجنيد : الزهد هو خلو القلب عما خلت منه اليد[3] . وقال عبدالله بن المبارك : هو الثقة بالله مع حب الفقر، وقيل الزهد فى الدينار والدرهم . وقال يحيى بن معاذ : لا يبلغ أحد حقيقة الزهد حتى يكون فيه ثلاث خصال : عمل بلا علاقة، وقول بلا طمع، وعز بلا رياسة، والذى أجمع عليه العارفون أن الزهد هو سفر القلب من وطن الدنيا وأخذه فى منازل الآخرة، ومتعلقة ستة أشياء لا يستحق العبد اسم (الزهد) حتى يزهد فيها وهى: المال، والصور،

---

(١) الحديد آية رقم (٢٣) .

(٢) مدارك السالكين لابن قيم الجوزية ج٢ ص١١ .

(٣) ذاته ص١١ .

والرياسة، والناس، والنفس، وكل ما دون الله[1] . وليس معنى ذلــك أن نترك الدنيا لغيرنا يكدح فيها ويجد، ويبتكر ويخترع وإنما ألزمنا الإسلام بالعمل للدارين بحيث لا تطغى كفة على أخرى قال تعــالى : ﴿ وقــل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾[2] وقال ﷺ (لو قــامت القيامة وفى يد أحدكم فسيلة فليغرسها) وقد عمل الأنبياء عليهم السلام، قال عليه الصلاة والسلام : (ما بعث نبى إلا وهو راع للغنم) وقد كــان سليمان وداود عليهما السلام من أزهد أهل زمانهما، ولهما مــن المــال والملك والنساء ما لهما . وكان نبينا ﷺ من أزهد البشر على الإطــلاق وله تسع نسوة، وكان على بن أبى طالب وعبدالرحمــن بــن عــوف، والزبير بن العوام وعثمان بن عفان رضى الله عنهم أجمعين من الزهاد مع ما كان معهم من الأموال وكان الحسن بن على رضى الله عنه مــن الزهاد مع أنه كان من أكثر الأمة محبة للنساء ونكاحاً لهن، وأغنــاهم . وكان عبدالله بن المبارك من الأئمة الزهاد، وكان له مال كثير وكذلــك الليث بن سعد كان له مال كثير وكان يقول لولا هو لتمندل بنا هــؤلاء، ومن أحسن ما قيل فى الزهد كلام الحسن وغيره : ليس الزهد فى الدنيا بتجريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن أن تكون بما فى يد الله أوثــق منك بما فى يدك، وأن تكون فى ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغــب منك فيها لولم تصبك وهذا من أجمع الكلام فــى الزهــد وأحســنه[3] .

والزهد على ثلاث درجات :

---

(١) ذاته ص١٣ .

(٢) سورة التوبة الآية ١٠٥ .

(٣) ذاته ص١٣،١٤ .

الدرجة الأولى : الزهد فى الشبهة بعد ترك الحرام بالحذر من المعتبة، والأنفة من المنقصة، وكراهة مشاركة الفساق .

أما الزهد فى الشبهة فهو : ترك ما يشتبهه على العبد هل هو حلال أم حرام ؟ كما فى حديث النعمان بن بشير رضى الله عنهما عن النبى ﷺ : (الحلال بيّن والحرام بيّن وبين ذلك أمور مشتبهات لا يعلمهنّ كثير من الناس فمن اتقى الشبهات اتقى الحرام . ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه . ألا وإن لكل ملك حمى . ألا وإن حمى الله محارمه . ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد . ألا وهى القلب)[1] .

فالشبهات برزخ بين الحلال والحرام وقد جعل الله عز وجل بين كل متباينين برزخاً، كما جعل الموت وما بعده برزخاً بين الدنيا والآخرة، وجعل المعاصى برزخاً بين الإيمان والكفر، وجعل الأعراف برزخاً بين الجنة والنار [2] .

الدرجة الثانية : الزهد فى الفضول : وهو ما زاد على المسكة والبلاغ من القوت، باغتنام التفرغ إلى عمارة الوقت . وحسم الجأش، والتحلى بحلية الأنبياء والصديقين)[3] .

فالفضول ما يفضل عن قدر الحاجة، والمسكة ما يمسك النفس من القوت والشراب واللباس والمسكن والزواج إذا احتاج إليه، والبلاغ وهو

---

(١) ذاته ص١٦ .

(٢) ذاته ص١٦ .

(٣) ذاته ص١٧ .

البلغة من ذلك يتبلغ به المسافر فى منازل السفر فيزهد فيما وراء ذلك اغتناماً لتفرغه لعمارة وقته وعمارة الوقت الاشتغال فى جميع إنائه بما يقرب إلى الله أو يعين على ذلك من مأكل أو مشرب أو منكح أو منام أو راحة فإنه متى أخذها بنية القوة على ما يحبه الله، وتجنب ما يسخطه كانت من عمارة الوقت، وإن كان له فيها أتم لذة فلا تحسب عمارة الوقت بهجر اللذات والطيبات[1] . بل لا تحسب عمارة الوقت بالصلاة ونحوها فحسب . فإن عمارة الوقت بالعمل الصالح شكراً لله بالزراعة والصناعة، والعمل فى عمارة الأرض واستخراج كنوزها وإصلاحها، وتنمية الثروات وإعداد القوة والعدد لتكون الأمة قادرة على تمكين دينها، وإقامة شرائع الإسلام وقد ظل عدله ورحمته على الناس، وإخراجهم به من الظلمات إلى النور، وكذلك حسن العشرة مع الأهل والولد والجار بكل ما يجعل العشرة حسنة من مأكل ومشرب وملبس ومباعلة للزوج وغير ذلك مما يهيئ الحياة الرغيدة، والعيش السعيد للأسرة لتكون فى جو وبيئة صالحة كريمة لإنشاء جيل جديد من أبناء صالحين نافعين عاملين لقوة الأمة وعزتها . وكذلك التمّهر فى الصناعات والحرف التى تسبق بها الأمة غيرها فى مضمار العمران . كل ذلك ونحوه من شكر الله على نعمه فيما أعطى، وحسن الانتفاع به. ومن الغفلة التى جرتها الصوفية على المسلمين، فردتهم على أعقابهم فى ميدان الحياة . زعمهم أن لزوم المساجد والانقطاع للصلاة والصيام بالتقليد الأعمى وتكرير كلمات وأوراد من القرآن الكريم أو غيره بدون فقه ولا تدبر والزعم أن ذلك هو الذى يعمر الوقت فذلك جهل بالقرآن

---

(١) ذاته ص١٨ .

الكريم وجهل أيضاً بسنة رسول الله ﷺ . فإن الإسلام دين مرن ويساير العصر ولقد دعا الإسلام إلى العمل وعده من أبواب الجهاد فى سبيل الله فقال تعالى : ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾[1] وقال ﷺ : (لو قامت القيامة وفى يد أحدكم فسيلة فليغرسها) إلى غير ذلك من النصوص الواردة فى الكتاب والسنة مما يضيق المقام عن ذكرها واستحصائها . وحسم الجأش فهو قطع اضطراب القلب المتعلق بأسباب الدنيا رغبة ورهبة وحباً وبغضاً فلا يصح الزهد للعبد حتى يقطع هذا الاضطراب من قلبه حيث أن الزهد زهد القلب، وليس زهد الترك من اليد والتحلى بحلية الأنبياء والصدقين فإنهم أهل الزهد فى الدنيا حقاً [2] .

الدرجة الثالثة : الزهد فى الزهد . وهو بثلاثة أشياء :

أولاً : استحقار ما زهدت فيه .

ثانياً : استواء الحالات فيه عندك .

ثالثاً : الذهاب عن شهود الاكتساب ناظراً إلى وادى الحقائق وقد فسر الشيخ مراده بالزهد فى الزهد بثلاثة أشياء .

أحدها : احتقاره ما زهد فيه فإن من امتلأ قلبه بمحبة الله وتعظيمه لا يرى أن ما تركه لأجله من الدنيا يستحق أن يجعل قرباناً . لأن الدنيا يراها لا تساوى عند الله جناح بعوضة فالعارف لا يرى زهده فيها كبير أمر يعتد به ويحتفل له . وأما استواء الحالات فيه عنده فهو

---

(١) التوبة آية رقم (١٠٥) .

(٢) ذاته ص١٩ .

أن يرى ترك ما زهد فيه وأخذه متساويين عنده، إذ ليس له عنده قـــدر، وهذا من دقائق فقه الزهد . فيكون زاهداً فى حال أخذه، كما هو زاهـــد فى حال تركه [1] . وأما الذهاب عن شهود الاكتساب فمعناه أن من لـــه من استصغر الدنيا بقلبه، واستوت الحالات فى أخذها وتركها عنده لـــم ير أنه اكتسب بتركها عند الله درجة البته، لأنها أصغر فى عينيه من أن يرى أنه اكتسب بتركها الدرجات . وفيه معنى آخر وهو أن يشاهد تفرد الله عز وجل بالعطاء والمنع، فلا يرى أنه ترك شيئاً، ولا أخذ شيئاً بـــل الله وحده هو المعطى المانع . فما أخذه هو مجـــرى لعطـــاء الله إيـــاه كمجرى الماء فى النهر، وما تركه لله فالله سبحانه وتعالى هو الذى منعه منه، فيذهب بمشاهدة الفعال وحده عن شهود كسبه وتركه فـــإذا نظـــر للأشياء بعين الجمع وسلك فى وادى الحقيقة غاب عن شهود اكتســـابه وهو معنى قوله (ناظرا إلى وادى الحقائق) وهذا أليق المعنيين بكلامه فهذا زهد الخاصة . قال الشاعر :

إذا زهدتنى فى الهوى خشية الردى   جلت لى عن وجه يزهد فى الزهد

اصطلاحات الصوفية :

الألف : إشارة يشار به إلى الذات الأحدية، أى الحق من حيث هو أول الأشياء فى أزل الآزال .

الاتحاد : هو شهود الوجود الحق الواحد الذى الكل بـه موجـود بالحق، فيتحد به الكل مـن حيـث كـون كـل شـىء موجـوداً بـه، معدومـاً بنفسه، لا من حيث أن له وجوداً خاصاً اتحد به فإنه محال .

الأحد : هـو اسـم الـذات باعتبـار انتفـاء تعـدد الصفـات والأسـماء والنسب والتعينات عنها، والأحدية اعتبارها مع إسقاط الجمع .

---

(١) ذاته ص٢٠ .

الأحوال : هى المواهب الفائضة علــى العبد من ربـه، إمـا واردة عليه ميراثاً للعمل الصالح المزكّى للنفس المصفى للقلب، وإما نازلة من الحق امتناناً محضاً . وإنما سميت أحوالاً لتحول العبد بهـا مـن الرسـوم الخلقية ودركات البعد إلى الصفات الخفية ودرجـات القـرب، وذلـك هـو معنى الترقى وتعتبر الأحوال فى رأى القاشانى ثمرة طبيعيـة للإحصـاء الذى يرقـى الإنسـان مـن خلالـه حتـى يصـل فـى النهايـة إلـى التحقـق بالأسماء الإلهية والصفات الحسنى والترتيب الذى ذكره القاشانى هنا فى الأحوال ترتيب صـاعداً يبدأ بالأدنى وينتهى بالأرقى فـالأحوال إن كـانت واردة على الإنسان إرثاً من صالح العمل فالعبد فــى جنـة الأفعـال، وإن كانت مفاضة من مقام المنة والإحسان فالعبد إنما يراد له تجاوز الحـدود الخلقية أى الارتباط بالخلق ورسومهم . وقطع دركات البعد والانقطـاع وتجاوزها والدخول فى صفات الحق ودرجات القرب وحـدوث الـترقى الحقيقى[1] .

الإحسـان : هـو التحقق بالعبودية علـى مشـاهدة حضـرة ربوبيتـه بنور البصيرة أى رؤية الحق موصوفاً بصفاتـه بعيـن صفتـه فهـو يـراه تعيناً ولا يراه حقيقةً . ولهذا قال عليه السلام : " كأنك تراه " لأنه يـراه من وراء حجب صفاته بتعيين صفاته . فلا يرى الحقيقـة بالحقيقـة لأنـه تعالى هو الرائـى، وصفـه بوصفـه وهـو دون مقـام المشـاهدة فـى مقـام الروح . ويلاحظ أن الشيخ الأكبر محيـى الديـن بـن عربـى فـى تفسـيره للإحسـان يسـتند إلـى الحديث النبوى المشـهور الـذى يذكـر فيـه سـؤال

---

(١) اصطلاحات الصوفية للشيخ كمال الدين عبدالرازق القاشانى تحقيق وتعليق الدكتـور محمد كمال ابراهيم جعفر . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨١ م ص٢٦ .

جبريل للنبى صلوات الله وسلامه عليه عن الإسلام والإيمان والإحسان وقد ورد فيه أن الإحسان " هو أن تعبد الله كأنك تراه – فإن لم تكن تراه فإنه يراك " وفى هذا يفرق القاشانى تفرقة دقيقة بين رؤية الله بنور البصيرة تعييناً واستحضاراً، ورؤيته حقيقية وجهاراً ويستند فى هذا إلى نصوص الألفاظ الواردة فى الحديث " كأنك تراه " وهى تشير بأنه لا يراه حقيقة. والضمير فى قوله وراء حجب صفاته يعود على لفظ الجلالة ويكون المعنى أن العبد يرى الله جل جلاله من وراء حجب صفاته العلية فلا يراه ذاتاً على الحقيقة لأنه لا يرى الذات على الحقيقة إلا الذات على الحقيقة وهذا هو ما أشار إليه الصوفية الأول برؤية الذات فى ميدان الفاعلية والتدبير وآثار الصفات وتعدد الجهات والإحاطة وبهذا أوضح القاشانى أن مثل هذه الرؤية تقل فى المقام عن المشاهدة فى مقام الروح حيث لا تحجب الصفات ونرى أن الحسن والإحسان إنما تحقق فى هذا المقام لدوام مراعاة العبد لمقتضيات هذه الرؤية التى إن لم تكن على الحقيقة فهى فى مجال الاستحضار الذات كأنها على الحقيقة لتحقق ثمراتها [1] .

الإرادة : جمرة من نار المحبة فى القلب، مقتضية لإجابة دواعى الحقيقة ويعرف ابن عربى الإرادة بأنها " هى لوعة فى القلب يطلقونها ويريدون بها إرادة التمنى وهى منة وإرادة الطبع ومتعلقها الحظ النفسى وإرادة الحق ومتعلقها الإخلاص "[2] .

---

(١) ذاته ص٢٧ .

(٢) كتاب اصطلاح الصوفية لابن عربى ج١ الأولى ١٣١٧ هـ ١٩٤٨ م مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية ص٢ . وورد هذا الكتاب ضمن رسائل ابن عربى ج١ إحياء التراث العربى بيروت – لبنان .

أرائك التوحيد : هى الأسماء الذاتية لكونها مظاهر الذات، إذ هو فى الحضرة الواحدية .

الاسم : باصطلاحهم ليس هو اللفظ بل " هو ذات " المسمى باعتبار صفة وجودية كالعليم والقدير، أو عدمية كالقدوس والسلام .

الأسماء الذاتية : هى التى لا يتوقف وجودها على وجود الغير وإن توقف على اعتباره وتعقله كالعليم والقدير وتسمى الأسماء الأولية، ومفاتيح الغيب، وأئمة الأسماء . ويخالف القاشانى هنا العرف اللغوى فى التفرقة بين الاسم وذات المسمى إذ يرى أن الصوفية يوحدون بين الاسم والمسمى فى الذات الإلهية من حيث دلالته على صفة وجودية أو صفة عدمية ولا يقصد بالجانب العدمى أو السلبى إلا جانب التنزيه الممثل لبعد الذات عما لا يليق وإلا فدلالة القدوس والسلام ليست عدمية بالمعنى العام أى لا أثر لها ففى التقدس والجلال الوجه الإيجابى الموحى بالصفاء والقدس والسلام والأمان وما إلى ذلك[1] .

الاسم الأعظم : هو الاسم الجامع لجميع الأسماء، وقيل هو الله لأنه اسم الذات الموصوفة بجميع الصفات، أى المسماة بجميع الأسماء، ولهذا يطلقون الحضرة الإلهية : من حيث هى ، هى على حضرة الذات من جميع الأسماء . وعندنا هو اسم الذات الإلهية من حيث هى هى أى المطلقة الصادقة عليها : مع جمعيتها كقوله تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى ﴾[2] . أو مع بعضها كقوله تعالى : ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً﴾[3] أو لا مع واحد منها كقوله تعالى : ﴿ قل هو الله أحد﴾[4] .

(١) اصطلاحات الصوفية – للشيخ كمال الدين عبد الرازق القاشانى . ص٢٨ .

(٢) سورة الإعراف الآية ١٨٠ .

(٣) وردت فى أكثر من آية ومن هذه الآيات .. الآية ١٠٠ سورة النساء .

(٤) سورة الإخلاص الآية رقم ١ .

وتعريف القاشانى للاسم الأعظم يطابقه تعريع سهل التسترى ت ٢٨٣ هـ وتعريف ابن مسرة الأندلس ت ٣١٩ هـ وقد ذهب سهل فى " رسالة الحروف " إلى أن الاسم الأعظم تضمه سورة يس وقد كشف البونى فى شمس المعارف على أنه المعنى بقوله تعالى : ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾[١] باعتباره متضمناً للرحمة العامة، على حين أنه فى نصوص أخرى لسهل يشير إلى أنه لفظ الجلالة " الله " وقد ذكر ابن مسرة ذلك بالإشارة إلى ما يسميه " الاسم المضمر " وهو " الله " بغير أداة التعريف . وقد رأى بعض العلماء أن أصل اشتقاق هذا الاسم هو من " لاه " بمعنى " احتجب " واختفى من قولهم " لاهت العروس " أى احتجبت على أن تكون أداة التعريف هنا رمزاً للخلق لأن بالخلق عرف الله جل جلاله بناء على القول المأثور الذى تُحمل عليه صفة الحديث القدسى " كنت كنزاً مخفياً " وقد يذهب بعض الصوفية إلى عكس ذلك وهو أن الخلق إنما يعرف بالله بمعنى أن الصوفى يعرف إلهه أولاً، ثم يعرف أن له خلقاً، وذلك تميزاً له عن سنن علماء الكلام والفلاسفة على أن هناك آراء أخرى فى أصل اشتقاق لفظ الجلالة " الله " . وروى المنذرى عن ابى الهيثم أنه سأله عن اشتقاق اسم الله تعالى فى اللغة فقال : كان حقه " الاه " أدخلت الألف واللام تعريفاً فقيل " الإلاه " ثم حذفت العرب الهمزة استثقالاً لها، فلما تركوا الهمزة حولوا كسرتها[٢] فى اللام التى هى لام التعريف، وذهبت الهمزة أصلاً فقالوا " ألَلاه " فحركوا لام التعريف التى لا تكون إلا ساكنة ثم التقى لامان فتحركتان

---

(١) سورة يس الآية ٥٨ .

(٢) لسان العرب لابن منظور مادة " أله " ص١١٤ ج١ دار المعارف بالقاهرة .

فأدغموا الأولى فى الثانية فقالوا " الله " كما قال الله عز وجل : ﴿ لكنّا هو الله ربى ﴾ وقد قالت العرب "باسم الله" بغير مادة اللام وحذف مادة " لاه " وقال أبو الهيثم " فالله " أصله " إلاه " قال الله عز وجل : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله إذاً لذهب كل إله بما خلق ﴾[1] والإلاهة : الشمس الحارة . والإلاهة والألوهة والألوهية : العبادة . والإلاهة أيضاً : الحية العظيمة . وإلاهة : اسم موضع بالجزيرة . قال الشاعر :

كفى حزناً أن يرحل الركب غدوة وأصبح فى عليا إلاهة ثاويا

وألاهة : اسم (مغارة سماوة كلب) وبها دفن قاتل هذا البيت وهو الشاعر " أفتون التغلبىّ " واسمه " صريم بن معشر "[2] .

والمقصود هنا أن لفظ الألوهية يحتوى بالضرورة على خلاصة جمل الأسماء الحسنى كلها بالنسبة لذات الله سبحانه وتعالى من غير مراعاة لأية إضافات يقتضيها النظر إلى آثاره أو لخلقه[3] .

الأفق الأعلى : هو نهاية مقام الروح، وهى الحضرة الواحدية والحضرة الإلهية .

الأفق المبين : هو نهاية مقام القلب[4] .

الأمناء : هم الملامتية . والملامتية : لفظ يستعمله القاشانى هنا

---

(١) سورة المؤمنون الأية ٩١ .

(٢) لسان العرب لابن منظور مادة "آله " ص١١٥،١١٦ . ج١ دار المعارف بالقاهرة .

(٣) اصطلاحات الصوفية ص٢٩ .

(٤) ذاته ص٣١ .

ولا يريد به تلك الفرقة المشهورة في خراسان التى تعمدت المبالغة فى إخفاء وسائل قربها من الله أو صلاحها فى الحال وقد نقدهم بعض الناضجين من الصوفية نقداً دقيقاً حيث نبه إلى أن المبالغة فى الاحتراس من الناس تعنى أن الناس يحتلون من نفس الملامتى مكاناً هاماً فقد أدى ملاحظة ترك الناس وعدم الاهتمام بأحكامهم إلى عكس ما قصد منه حتى قيل إن إخلاص الملامتى فى هذا يحتاج إلى إخلاص، والأصوب هو الاسترسال مع الله سبحانه على ما يريد وعلى ما أتاح من ظرف وهيأ من أسباب فليس إخفاء الطاعة أمراً محبوباً على الدوام فقد يكون إظهارها أنفع وأتم فى بعض المواقف من أجل الاقتداء أو من أجل قبول النصح والاكتمال والنقد . ويلاحظ أن القاشانى لقبهم بالأمناء حيث أنهم لم يفشوا أسرارهم ولم يظهروا ما فى بواطنهم من معان وحقائق . ولعل فرقة الملامتية المشهورة معتبرة فى نظر القاشانى من تلامذة هؤلاء الأمناء لا أنهم هم الأمناء أنفسهم والملامتية فرقة تنتمى إلى حمدون القصار وقد اشتق اسمها من الحال التى لازمت هؤلاء من حيث كثرة لومهم لأنفسهم، فى كل آن[1] .

وهم الذين لم يظهر لما فى بواطنهم أثر ظواهرهم، وتلامذتهم يتقلبون فى مقامات أهل الفتوى[2] .

الإمامان : هما الشخصان اللذان أحدهما عن يمين الغوث أى القطب ونظره فى الملكوت، والآخر عن يساره ونظره فى الملك وهو أعلى من صاحبه وهو الذى يخلف القطب .

---

(١) ذاته ص٣١ والملامتية وأهل الفتوى للمرحوم الدكتور أبو العلا عفيفى .

(٢) اصطلاحات الصوفية ص٣٢ .

أم الكتاب : وهو العقل الأول .

الأنانية : الحقيقة التي يضاف إليها كل شيء من العبد كقوله نفسي وروحي وقلبي ويدي[1] .

الإنّيّة : تحقق الوجود العيني من حيث رتبته الذاتية .

الانزعاج : تحرك القلب إلى الله تعالى بتأثير الوعظ والسماع فيه.

الأوتاد : هم الرجال الأربعة الذين على منازل الجهات الأربع من العالم أي الشرق والغرب والشمال والجنوب، بهم يحفظ الله تعالى الجهات لكونهم محل نظره تعالى[2] .

أئمة الأسماء : هي الأسماء السبعة الأول المسماة بالأسماء الإلهية وهي الحي، والعالم، والمريد، والقادر، والسميع، والبصير، والمتكلم، وهي أصول الأسماء كلها، وبعضهم أورد مكان السميع والبصير . والجواد، والمقسط . وعندي أنهما من الأسماء التالية، لاحتياج الجود والعدل إلى العلم والإرادة والقدرة بل إلى الجميع لتوقفهما على رؤية استعداد المحل الذي يفيض عليه الجواد الفيض بالقسط، وعلى سماع دعاء السائل بلسان الاستعداد، وعلى إجابة دعائه بكلمة " كن " على الوجه الذي يقتضيه استعداد السائل من الأعيان الثابتة فهما كالموجد والخالق والرازق التي من أسماء الربوبية وجعلوا " الحي " إمام الأئمة لتقدمه على العالم بالذات لأن الحياة شرط في العلم

---

(١) ذاته ص٣٣ .

(٢) ذاته .

والشرط متقدم على المشروط طبعاً . وعندى أن " العالم " بذلك أولى لأن الإمامة أمر نسبى يقتضى بعد الذى قام به معلوماً . والحياة لا تقتضى غير الحى فهو عين الذات غير مقتضية للنسبة . وأما كون العلم أشرف منها فظاهر . ولهذا قالوا إن العلم هو أول ما يتعين به الذات دون الحى، لأنه فى كونه غير مقتضى للنسبة كالوجود والواجب ولا يلزم من التقدم بالطبع الإمامة ألا ترى أن المزاج المعتدل للبدن شرط الحياة ؟ ولا شك أن الحياة متقدمة عليه بالشرف[1] .

---

(١) ذاته ص٣٤ .

باب الباء

الباء : يشار به إلى أول الموجودات الممكنة وهو المرتبة الثانية من الموجودات .

البارقة : هى لائح يرد من الجناب الأقدس وينطفىء سريعاً وهى من أوائل الكشف ومبادئه .

الباطل : ما سوى الحق، وهو العدم إذ لا وجود فى الحقيقة إلا للحق لقوله عليه السلام " أصدق بيت قاله العرب قول لبيد "[١]:

ألا كل شىء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

البدلاء : هم سبعة رجال يسافر أحدهم عن موضع ويترك فيه جسداً على صورته بحيث لا يعرف أحد أنه فقد وذلك معنى البدل لا غير، وهم على قلب إبراهيم عليه السلام[٢] .

البرق : أول ما يبدو للعبد من اللائح النورى فيدعوه إلى الدخول فى حضرة القرب من الرب للسير فى الله .

البرزخ : هو الحائل بين الشيئين، ويعبّر به عن عالم المثال أعنى الحاجز بين الأجساد الكثيفة وعالم الأرواح المجردة أعنى الدنيا والآخرة، ومنه الكشف الصورى[٣] .

---

(١) اصطلاحات الصوفية ص٣٥ .

(٢) ذاته ص٣٦ .

(٣) ذاته ص٣٦ .

البسط : فى مقام القلب بمثابة الرجاء فى مقام النفس . وهو وارد يقتضيه إشارة إلى قبول ولطف ورحمة وأنس . ويقابله وارد القبض كالخوف فى مقابلة الرجاء فى مقام النفس والبسط فى مقام الحق، وهو أن يبسط الله العبد مع الخلق ظاهراً ويقبضه الله إليه باطناً رحمة للخلق، وهو يسع الأشياء ولا يسعه شيء[1] . ويقول ابن عربى : يسع الأشياء ولا يسعه شيء، وقيل هو حال الرجاء وقيل هو وارد توجيه إشارة إلى قبول ورحمة وأنس[2] .

البصيرة : قوة للقلب منورة بنور القدس يرى بها حقائق الأشياء وبواطنها بمثابة البصر للنفس الذى ترى به صور الأشياء وظواهرها وهى القوة التى يسميها الحكماء القوة العاقلة النظرية . أما إذا تنورت بنور القدس، وانكشف حجابها بهداية الحق فيسميها الحكيم القوة القدسية[3] .

بيت الحكمة : هو القلب الغالب عليه الإخلاص .

بيت العزة : وهو القلب الواصل إلى مقام الجمع حال الفناء فى الحق .

البيت المحرم : وهو قلب الإنسان الكامل الذى حرم على غير الحق [4] .

---

(١) ذاته ص٣٧ .

(٢) اصطلاح الصوفية لابن عربى ص٥ .

(٣) ذاته ص٣٨ .

(٤) ذاته .

باب الجيم

الجذبة : هى تقريب العبد بمقتضى العناية الإلهية المهيئة له كل ما يحتاج إليه فى طى المنازل إلى الحق بلا كلفة وسعى منه .

الجرس : إجمال الخطاب بضرب من القهر .

الجسد : ما ظهر من الأرواح وتمثل فى جسم نارى أو نورى .

الجلاء : هو ظهور الذات المتقدمة لذاتها فى ذاتها ولاستجلاء ظهورها لذاتها فى تعيناتها [١] .

الجلال : هو احتجاب الحق تعالى عنّا بعزته أن نعرفه بحقيقته وهويته كما يعرف هو ذاته فإن ذاته سبحانه لا يراها أحد على ما هى عليه إلا هو[٢] .

الجمال : هو تجلّيه تعالى بوجهه لذاته فلجماله المطلق جلال هو قهّاريته للكل عند تجلّيه بوجهه، فلم يبق أحد حتى يراه وهو علو الجمال وله دنو يدنو به منا وهو : ظهوره فى الكل كما قيل :

جمالك فى كل الحقائق سافر ... وليس له إلا جلالك ساتر

ولهذا الجمال جلال، هو احتجابه بتعينات الأكوان، فلكل جمال جلال ووراء كل جلال جمال، ولما كان فى الجلال ونعوته معنى الاحتجاب والعزة، لزمه العلو والقهر من الحضرة الإلهية والخضو والهيبة منا . ولما كان فى الجمال والجلال ونعوته معنى الدنو والسفور، لزمه اللطف والرحمة والعطف من الحضرة الإلهية والأنس

(١) اصطلاحات الصوفية ص٣٩ .

(٢) ذاته ص٤٠ .

منا . وقد عرف محيى الدين بن عربى الجمال بأنه " نعــوت الرحمــة والألطاف من الحضرة الإلهية " وما ذكره القاشانى أكثر استيعابا وإفادة فى هذا الباب لا سيما معالجة العلاقة بين الجلال والجمال وتلازمـــهما مع اختلاف آثارهما [١] . ويقول ابن عربى هو[٢] : " نعــوت الرحمــة والألطاف من الحضرة الإلهية " .

الجمع : شهود الحق بلا خلق – ويقول ابن عربى (الجمع إشارة إلى حق بلا خلق) .

جمع الجمع : شهود الخلق قائما بالحق، ويسمى الفرق بعد الجمع ويقول ابن عربى (هو الاستهلاك بالكلية فى الله) .

جنة الوراثة : هى جنة الأخلاق الحاصلة لحسن متابعة النبى ﷺ.

جنة الصفات : وهى الجنة المعنوية من تجليات الصفات والأسماء الإلهية، وهى جنة القلب .

جنة الذات : هى مشاهدة الجمال الأحدى ، وهى جنة الروح [٣].

---

(١) ذاته .

(٢) اصطلاح الصوفية لمحيى الدين بن عربى ص٦ .

(٣) ذاته ص٤١ وأيضا اصطلاح ابن عربى ص٦ .

جواهر العلوم والأنبياء والمعارف :

هى الحقائق التى لا تتبدل ولا تتغير باختلاف الشرائع والأمم والأزمنة [١] كما قال الله تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾[٢].

باب الدال

الدبور : صولـه داعية هوى النفس واستيلائها ، شبهت بريح الدبّور التى تأتى من جهة المغرب لإنشائها من جهة الطبيعة الجسمانية التى هى مغرب النور ويقابلها القبول وهى ريح الصبا التى تأتى من جهة المشرق : وهى صوله داعية الروح واستيلائها، ولهذا قال عليه السلام " نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور " .

الدرة البيضاء : هى العقل الأول لقوله عليه السلام " أول ما خلق الله درة بيضاء" وأول ما خلق الله العقل " والدرة البيضاء : يقتصر ابن عربى فى تفسير هذا المصطلح على ما ورد دون أن يشير إلى النص الأصلى الذى استند إليه فى هذا المعنى[٣] .

باب الهاء

الهباء : هى المادة التى فتح الله فيها صور العالم، وهو العنقاء المسماة بالهيولى[٤] . والهباء سماه ابن عربى السبخة (اصطلاح – ١٢) كلمة استعملت فى الأصل لتدل على التفاهة والحقارة وعدم الأهمية

---

(١) ذاته ص٤٣ .

(٢) سورة الشورى آية رقم (١٣) .

(٣) ذاته ص٤٤ . واصطلاح الصوفية لابن عربى ص١٢ " مرجع سابق "

(٤) ذاته ص٤٥ .

والتناهى فى الصغر وهوان الشأن كما تدل على العدم أحياناً كما جاء فى القرآن الكريم (سورة الفرقان – ٢٣) ثم استعملت لتؤدى معنى كونياً يشرح عملية الخلق من حيث تحول غير المرئى إلى المرئى بواسطة النور[١]. وانتقلت الكلمة إلى المجال الصوفى حيث اكتسبت خصائص روحية فاستعملت لتدل على الطاقة الكلية الإلهية .

ويستعمل ابن عربى هذه الكلمة فى نفس المعنى الذى استعمله فيه من قبله سهل التسترى، ويذكر صراحة نسبة هذا المعنى إلى الإمام على كرم الله وجهه [٢] .

الهوى : هو ميل النفس إلى مقتضيات الطبع، والإعراض عن الجهة العلوية بالتوجه إلى الجهة السفلية .

الهواجس : هى الخواطر النفسانية . الهواجس : يذكرها القاشانى بالجمع ويذكرها ابن عربى بالإفراد ويعرفه بأنه الخاطر الأول ويقول ابن عربى " هو لا يخطىء أبداً " وقد يسميه سهل التسترى (متوفى سنة ٢٨٣ هـ) السبب الأول ونقر الخاطر، وإذا تحقق فى النفس سموه إرادة، وإذا تردد الثالثة سموه هماً، وفى الرابعة سموه عزماً، وعند التوجه إلى الفعل إن كان خاطر فعل سموه قصداً، ومع الشروع فى الفعل سموه نية (اصطلاح – ٢) .

الهواجم : ما يرد على القلب بقوة الوقت، من غير تعمد من العبد – وهى البوادة المذكورة [٣].

---

(١) بول كراوس– جابر بن حيان – ٢ – ١٥٤ هـ – ٦) .

(٢) القرطبى تفسير ١٣ ص٢٢ الكشاف للزمخشرى ج٣ ص٣٢٥ والتهانوى كشاف اصطلاحات ٩٢، ١٥٣٨ .

(٣) اصطلاحات الصوفية ص٤٦ .

باب الواو

الواو : هو الوجه المطلق فى الكل .

الواحد : اسم الذات بهذا الاعتبار .

الوارد : كل ما يرد على القلب من المعانى من غير تعمد العبد - ويقول ابن عربى (هو ما يرد على القلوب من الخواطر المحمودة من غير تعمد ويطلق بإيزاء كل ما يرد من كل اسم على القلب .

الواقعة : كل ما يرد على القلب من عالم الغيب بأى طريق كان[1] . ويقول ابن عربى (هو ما يرد على القلب من ذلك العالم بأى طريق كان من خطاب أو مثال)[2] .

وجه الحق : هو ما به يكون الشيء حقاً، إذ لا حقيقة لشيء إلا به تعالى، وهو المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾[3] وهو عين الحق المقيم بجميع الأشياء، فمن رأى قيومية الحق للأشياء، فهو الذى يرى وجه الحق فى كل شيء[4] .

وجهة جميع العابدين :

هى الحضرة الألوهية[5] .

الوفاء بالعهد : هو الخروج عن عهدة ما قيل عند الإقرار بالربوبية بقول بلى حيث قال الله : ﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾[6] . وهو

---

(١) ذاته ص ٤٧ .

(٢) اصطلاح الصوفية لابن عربى ص٧ .

(٣) سورة البقرة الآية ١١٥ .

(٤) اصطلاحات الصوفية للقاشانى ص٤٩ .

(٥) ذاته ص٤٩ .

(٦) سورة الإعراف الآية ١٧٢ .

للعامة العبادة رغبة في الوعد ورهبة من الوعيد . وللخاصة العبودية على الوقوف مع الأمر (النفس الأمر) وقوفاً عند ما حدّ ووفاءً بما أخذ على العبد لا رغبة ولا رهبة ولا غرضاً . ولخاصة الخاصة العبودية على التبرى من الحول والقوة . وللمحب صون قلبه عن الاتساع لغير المحبوب . ومن لوازم الوفاء بعهد العبودية أن ترى كل نقص يبدو منك راجعاً إليك . ولا ترى كمالاً لغير ربك[1] .

الوقت :

ما حضرك في الحال، فإن كان من تصريف الحق فعليك الرضا والاستسلام حتى تكون بحكم الوقت و يخطر ببالك غيره، وإن كان مما يتعلق بكسبك فالزم ما أهمك فيه لا تعلق لك بالمضى والمستقبل . فإن تدارك الماضى تضييع للوقت الحاضر، وكذلك الفكر فيما يستقبل فإنه عسى أن لا تبلغه وقد فاتك الوقت . ولهذا قال المحقق : الصوفى ابن الوقت . ويعرفه محيى الدين بن عربى بأنه (عبارة عن حالك في زمن الحال، لا تعلق له بالماضى والمستقبل) (اصطلاح ٣) .

الولى : من تولى الله أمره وحفظه من العصيان، ولم يخله ونفسه بالخذلان حتى يبلغه في الكمال مبلغ الرجال قال الله تعالى : ﴿ وهو يتولى الصالحين[2] ﴾ [3].

الزاجر : واعظ الله في قلب المؤمن وهو النور المقذوف فيه الداعى له إلى الحق[4] .

---

(١) ذاته ص٥٢، ٥٣ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٩٦ .

(٣) ذاته ص٥٤ .

(٤) ذاته ص٥٥ .

الزيتونة : هى النفس المستعدة للاشتعال بنور القدس بقوة الفكر .

الزيت : نور استعدادها الأصلى[1] .

الحال : ما يرد على القلب بمحض الموهبة من غير تعمل (واجتلاب) كحزن أو خوف، أو بسط، أو قبض، أو شوق، أو ذوق يزول بظهور صفات النفس سواءً أعقبه المثل أو لا . فإذا دام وصار ملكاً يسمى مقاماً[2] .

حفظ العهد : هو الوقوف عند ما حدّه الله تعالى لعباده، فلا يفقد حيث ما أمر، ولا يوجد حيث ما نهى .

حقيقة الحقائق : هى الذات الأحدية الجامعة لجميع الحقائق وتسمى حضرة الجمع، وحضرة الوجود[3] .

الحقيقة المحمدية : هى الذات مع التعين الأول فله الأسماء الحسنى كلها وهو الاسم الأعظم . والحقيقة المحمدية : ينظر إلى هذا المصطلح من زاويتين : الجانب الإبداعي بمعنى أن تكون هذه الحقيقة وسيلة الإبداع لما سواها، والجانب التقريرى الخاص بأبعادها النورانية وأسبقيتها وفضلها من حيث كونها مصدراً لكل هداية ومجمعاً لكل مكرمة وكونها البدء والختام . أما بالنسبة للجانب الأول فيلاحظ مثلاً أن سهلاً التسترى - ٢٨٣ هـ لم يذكر صراحة أن النبى محمداً فى (حقيقته) هو وسيلة الإبداع والخلق ولكن حديثه عن خلق آدم قد يفهم

---

(١) ذاته ص٥٦ .

(٢) ذاته ص٥٧ .

(٣) ذاته ص ٥٩ .

منه ما يدنو من هذه الفكرة إلا أنه يعنى التنبيه على أولوية النبى فى الشرف والأبوة الروحية[1] - ويلاحظ أن ابن عربى يذكر صراحة كون الحقيقة المحمدية آلة الخلق، وهو يتبع خط ابن برجان فى تسمية الحقيقة المحمدية (بالحق المخلوق به) على حين يستعمل التسترى لفظ العدل بمعنى الحق وهو يسميه السبب الأول، لكنه يرتبط فى نظر التسترى بمجال يختلف عن المجال الذى يرتبط به لدى ابن عربى .. فلفظ العدل يستعمل عند ابن عربى مأخوذاً من قولهم (عدل عن الطريق) أى انصرف عنه ومال ويريد بذلك ميل الذات من التفرد والذاتية المنزهة التى لا تدرك إلى الربوبية بما تستتبع من وجود الكائنات التى هى مربوبة لله[2] . أما التسترى فيربطه بالمجال الإنسانى أكثر من ربطه بالمجال الإلهى ليشير بذلك إلى كيفية صدور الأفعال ووقوع الأعمال من المخلوقين أما الجانب الثانى فيمكن استيعابه من تأمل العلاقة التى رسمها الصوفية وبعض المفكرين بين (الشمس) وبين (يس) من حيث أن كلاً منهما يرسل أشعته ويفيض نوره على ما ومن حوله والمقارنة هنا بين الشمس وبين النبى فالشمس بالنسبة للكائنات الظاهرة مصدر الحياة والحيوية والقوة والحركة لكل من الإنسان والحيوان والنبات، ويس مصدر الحياة الروحية والحيوية بالنسبة لقلوب المؤمنين، كما اعتبرت النفوس بمنزلة القمر الذى يتلقى الضوء من غيره - وهناك أسس قرآنية لخلع صفات النورانية والإشراق والإضاءة على الرسول وقد استند إليها هؤلاء الصوفية[3] من ذلك قوله تعالى : ﴿يا أيها

---

(١) رسالة الحروف للتسترى .

(٢) الفتوحات- ٢ - ٧٩ قارن رسائل ابن عربى ٢ (مصطلحات)

(٣) اصطلاحات الصوفية ص٦٠

النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا﴾[1].

حق اليقين : وشهود الحق حقيقته فى مقام عين الجمع الأحدية. ويقول ابن عربى (هو ما حصل من العلم بما أريد له من ذلك المشهود) .

الحكمة : هى العلم بحقائق الأشياء، وأوصافها، وخواصها وأحكمها، على ما هى عليه وارتباط الأسباب بالمسببات وسر انضباط نظام الموجودات والعمل بمقتضاه[2](ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً)[3].الحكمة مفهوم هذه الكلمة فى الاستعمال العربى يدل على تنوع لا نظير له . ومن الصحيح أن استعمال الكلمة كان يقصد به فى كثير من الأحيان وبخاصة فى المراحل المبكرة للإسلام : الاتجاه إلى الجانب السلوكى الذى يتسم بالسداد والتوفيق والإصابة بأيسر الطرق لكنه المصطلح بعد ذلك ربط بالشرائع كما هو عند التفتازانى وقد ذكر التهانوى أن هذا لا ينافى ما ذكر من أن السالكين بطريق أهل النظر والاستدلال وطريق أهل الرياضة والمجاهدة إن اتبعوا ملة فهم المتكلمون والصوفية وإلا فهم الحكماء المشائيون والإشراقيون إذ لا يلزم منه ألا يكون المتكلم والصوفى حكيماً، بل غاية ما يلزم منه ألا يكون حكيماً مشائياً أو إشراقياً . ومن المعانى التى فسرت بها كلمة حكمة على الترتيب : القرآن وذلك استناداً إلى حديث نبوى، النبوة وبه

---

(١) سورة الأحزاب آية ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) ذاته ص٦١ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٦٩ .

فسرت الآية القرآنية ﴿ .... وآتيناه الحكمة .... ﴾[1] أى النبوة الفقه والفهم عن الله وقد ترتبط الكلمة بالمجال الفكرى العام دون التقيد ضرورة بجانب دينى، وقد تربط بالمجال النفسي والموقف السلوكى كقولهم الحكمة (خشية الله) ويلاحظ بعضهم أن العرب تقول (حكمة الرجل) إذا منعته من الضرر والخروج عن الحق . ومن هنا استنبط أن الحكمة جماع العلوم كلها وقد ورد فى القرآن عن الحكمة أنها الخير الكثير وفسرت فى الآية الكريمة (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة)[2] بالسنة وقد فسرت فى غير ذلك بالكمال الحاصل للنفس الخارجة من القوة إلى الفعل، وقد تتطابق مع الفلسفة كما هو الحال عند ابن سينا، ويرى الغزالى أن أطراف الحكمة فى جوانب ثلاثة جانب الاعتقادات، جانب الأقوال، ثم جانب الأفعال فيقول حقيقة الحكمة معرفة الحق من الباطل فى الاعتقادات، والصدق والكذب فى الأقوال والحسن والقبيح فى الأفعال[3] .ويرد العاملى تعريف يصور نظرة المتأخرين من الصوفية إذ يقول (إنها العلم بحقائق الأشياء على ما هى عليه، وارتباط الأسباب بالمسببات وأسرار انضباط نظام الموجودات والعمل بمقتضاه [4] . ومن استقراء أقوال الصوفية يفهم أن الحكمة نوعان : منطوق بها وهى العلوم الشرعية والنظرية ومسكوت عنها وهى أسرار الحقيقة ولعل القاشانى يؤيد هذا الرأى وقد أورد صاحب البحر المحيط تسعة وعشرين رأياً فى تحديد مفهوم الحكمة[5] .

---

(١) سورة ص الآية ٢٠ .

(٢) الأحزاب آية رقم ٣٣ .

(٣) روضة الطالبين ص٣٢٥ .

(٤) الكشكول للعاملى ج٢ ص٤١٣ .

(٥) ذاته ص٦١ .

الحكمة المنطوق بها :

هى : علوم الشريعة والطريقة .

الحكمة المسكوت عنها :

هى أسرار الحقيقة التى لا يفهمها علماء الرسوم والعوام على ما ينبغى فيضرهم أو يهلكهم، كما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجتاز فى بعض سكك المدينة ومعه أصحابه فأقسمت عليهم امرأة أن يدخلوا منزلها فدخلوا، فرأوا ناراً مضرمة وأولاد المرأة يلعبون حولها فقالت : يا نبى الله آلله أرحم بعباده أم أنا بأولادى؟ فقال : (بل الله أرحم الراحمين) فقالت : (أتراني يا رسول الله أحب أن ألقى ولدى فى النار ؟) قال : لا، قالت : (فكيف يلقى الله عبيده فيها وهو أرحم الراحمين ؟) قال الراوى : فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: (هكذا أوحى إلىّ)[1] .

الحكمة المجهولة :

عندنا هى ما خفى علينا وجه الحكمة فى إيجاده كايلام بعض العباد، وموت الأطفال، والخلود فى النار فيجب الإيمان به، والرضا بوقوعه، واعتقاد كونه عدلاً وحقاً[2] .

الحكمة الجامعة :

معرفة الحق، والعمل به، ومعرفة الباطل والاجتناب عنه كما قال صلى الله عليه وسلم : (اللهم

---

(١) ذاته ص٦٢ .

(٢) ذاته ص٦٢ .

أرنـــا الحـــق حقـــاً وارزقنـــا اتباعـــه، وأرنـــا البـــاطل بـــاطلاً وارزقنـــا اجتنابـــه)(اللهـــم أرنـــا الأشـــياء كمـــا هـــى)[1] .

الكتاب المبين :

وهو اللوح المحفوظ المراد بقوله تعالى : ﴿ ولا رطـب ولا يـابس إلا فى كتاب مبين ﴾[2] .

كلمة الحضرة :

إشارة إلى قوله (كن) كقوله : ﴿ إنما قولنـا لشـىء إذا أردنـاه أن نقول له كن فيكون ﴾[3] فهى صورة الإرادة الكلّية .

كلمة الحضرة الإلهية كن : يلاحظ اتباع ابن مسرة لسهل التسترى فى رأيه فى الكلمة الإلهية (كن) من حيث كونه تحقيقـاً لصـورة ذاتيـة الشىء المكون (بصيغة اسم المفعول) وإخراجه إلى الفعل ويؤيـد ذلـك ابـن عربـى مـع إضافـة إيجابيـة الشـىء المكـون معتمـداً علـى أن الآيـة القرآنية (يس – ٨١) تذكر أن الشىء يكون (مبنى للمعلوم) لا يكون (مبنى للمجهول) وفيه إشارة إلى حتمية الوقوع وطبيعته، كما يفترض ابن عربى سبق وجود العين أو الذات التى توجه إليها هـذه الكلمـة التـى هى فى الواقـع فعـل وليسـت قـولاً ويسـجل ابـن عربـى ذلـك فـى أبياتـه المشهورة حيث يقول :

فاعلـــم بأن الذى سمعت   من قول (كن) منه قد خلقت

---

(١) ذاته ص٦٣ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٥٩ .

(٣) سورة النمل الآية ٤٠ .

فظاهر الأمر كـان قــولاً   وباطـــن الأمر أنت كنت

لو لم تكن ثم يــا حبيبــى   إذ قال (كن)لم تكن سمعت

ومن قبل ذهب الكرامية إلى هذا الرأى الذى نقده البغدادى ولا ينبغى أن يفهم من رأى التسترى أو ابن مسرة أو ابن عربى تشخص الكلمة وصيرورتها شيئاً مستقلاً يقف واسطة بين الله والخلق كما زعم ذلك بعض المستشرقين ومن شايعهم من الدارسين العرب – لأن هذا الرأى وقف على الباطنية والإسماعيلية بصفة خاصة الذين يرون تمثيل الكلمة إما لبعض الأفلاك أو لبعض أشخاص الأئمة ويرون أن (كن) مكونة من حرفين : الكاف وهى تشير إلى (السابق) والنون : وهى تشير إلى (التالى) ويذهب بعض الباحثين إلى أن المسلمين استقوا أفكارهم حول الكلمة (كن) من أبيانوس الحكيم ذلك الفيلسوف الفيثاغورى الذى ذاع صيته فى القرن الأول الهجرى، ويستند إلى وجود مخطوطة له كتبت فى جمادى الآخرة ٩٨٥ هـ لكنها مأخوذة من مخطوطة أسبق ٣٤٣ هـ كما يرى مقابلة هذا الاستعمال لاستعمال مصطلح (اللوجوس) الذى كان يعنى فلسفياً فى الأصل (القانون العام) ثم تطور استعماله على يد فيلون السكندرى فى القرن الأول الميلادى . ونرى أن الاستعمال الأساسى يجد أصلاً واضحاً فى القرآن الكريم حيث يتصل ذلك بلفظ الكلمة ذاته فقد فسرت (كلمات الله) بخلق الله ومخلوقاته ومن الطريف أن نعلم أن الممثلين للفلسفة الدينية المثالية فى روسيا حاولوا إحياء فكرة اللوجس الإلهى أما فى الفلسفة الشرقية فيمكن أن يوجد ما يناظر فكرة اللوجس مثل (التاو) وإلى حد ما (ذارما) ولكن الملاحظ أن هذا المصطلح لا يستعمل فى الأدب الماركسى[1] .

---

(١) ذاته ص٦٩ والأدب الماركسى للدكتور جعفر – ومذاهب المسلمين فى الكلمة – مجلة كلية الآداب ١٩٣٥ وتعليقاته على نصوص الحكم لابن عربى .

اللطيفة : كل إشارة دقيقة المعنى، يلوح منها فى الفهم معنى لا تسعه العبارة[١] – ويقول ابن عربى (هى كل إشارة رقيقة المعنى تلوح فى الفهم لا تسعها العبارة وقد تطلق بإذاء النفس الناطقة) .

المجذوب : من اصطنعه الحق لنفسه، واصطفاه لحضرة أنسه، وطهره بماء قدسه فحاز من المنح والمواهب ما فاز به بجميع المقامات والمراتب بلا كلفة المكاسب والمتاعب[٢] .

المحق : فناء وجود العبد فى ذات الحق . كما أن المحو فناء أفعاله فى فعل الحق . والطمس فناء الصفات فى صفات الحق . فالأول لا يرى فى الوجود فعلاً لشئ إلا للحق، والثانى لا يرى لشىء صفة إلا للحق[٣] .

المحاضرة : حضور القلب مع الحق فى الاستفاضة من أسمائه تعالى[٤] . وهى عند ابن عربى (حضور القلب بتواتر البرهان وعندنا مجاراة الأسماء بينها بما هى عليها من الحقائق) .

سجود القلب : هو فناؤه فى الحق عند شهوده إياه بحيث لا يشغله ولا يصرفه عند استعمال الجوارح[٥] .

سدرة المنتهى : هى البرزخية الكبرى التى ينتهى إليها سير الكل وأعمالهم وعلومهم . وهى نهاية المراتب الأسمائية التى لا تعلوها رتبة.

---

(١) اصطلاحات الصوفية ص٧٣ .

(٢) ذاته ص٧٧ .

(٣) ذاته ص٨١ .

(٤) ذاته ص٨١ وابن عربى ص٩ .

(٥) ذاته ص١٠٠ .

وسجود القلب : مسألة سجود القلب كانت من المشكلات التى عرضت للسهل التسترى فى صباه ومن أجل العثور على جواب شافى بشأنها طاف فى البلاد حتى أراحه حمزة العبادانى فى عبادان فلزمه ولم ينصرف حتى أذن له، وقد وصف ابن عربى التسترى بساجد القلب ويسجل ابن عربى مناقشة دارت بينه وبين سهل فى بعض آراؤه حول فكرة التوحيد ونور المعرفة حيث قال ابن عربى ناقداً سهلاً فى تصوره تعدد نور المعرفة بتعدد مصدريها العقل والإيمان (لقد قيدته من حيث لا تشعر ولهذا سجد قلبك من أول الطريق فوقع الخطأ)[1] .

سر التجليات : هو شهود كل شيء، وذلك بانكشاف التجلى الأول للقلب، فيشهد الأحدية الجمعية بين الأسماء كلها، لاتصاف كل اسم بجميع الأسماء لاتحادها بالذات الأحدية وامتيازها بالتعينات التى تظهر فى الأكوان التى هى صورها، فيشهد كل شيء فى كل شيء .

سر القدر : ما علمه الله تعالى من كل عين فى الأزل مما انطبع فيها من الأحوال التى يظهر عليها عند وجودها . فلا يحكم على شيء إلا بما علمه الله من عينه فى حال ثبوتها[2] .

سر الربوبية : هو توقفها على المربوب، لكونها نسبةً لا بد لها من المنتسبين وإحدى المنتسبين هو المربوب وليس إلا الأعيان الثابتة فى العدم والموقوف على المعدوم معدوم، ولهذا قال سهل إن للربوبية سرّاً لو ظهر لبطلت الربوبية . وذلك البطلان ما يتوقف عليه[3] .

---

(١) ذاته ص١٠٠ .

(٢) ذاته ص١٠١ .

(٣) ذاته ص ١٠٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العارف : من أشهده الله ذاته وصفاته وأسماؤه وأفعاله فالمعرفة حال تحدث عن شهود .

العالم : من أطلعه الله على ذلك لا عن شهود بل عن يقين([1]) .

العامة : هم الذين اقتصر علمهم على الشريعة . ويسمى علمائهم علماء الرسوم([2]) .

القطب : هو الواحد الذى هو موضع (نظر الله تعالى من العالم فى كل زمان وهو على قلب إسرافيل عليه السلام) .

القطبية الكبرى : هى مرتبة قطب الأقطاب وهو باطن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ولا يكون إلا لورثته، لاختصاصه عليه السلام بالأكملية، فلا يكون خاتم الولاية وقطب الأقطاب إلا على باطن خاتم النبوة([3]) .

الرّاعى : هو المتحقق بمعرفة العلوم السياسية المتمكن من تدبير النظام الموجب إصلاح نظام العام .

الرّان : هو الحجاب الحائل بين القلب وبين عالم القدس باستيلاء الهيئات النفسانية عليه، ورسوخ الظلمانية الجسمانية فيه، حيث ينحجب عن أنوار الربوبية بالكلية([4]) .

---

(١) اصطلاحات الصوفية ص ١٠٦ .

(٢) ذاته ص ١٠٧ .

(٣) ذاته ص١٤٥ .

(٤) ذاته ص١٤٧ .

شواهد التوحيد :

تعينات الأشياء فكل شيء له أحدية خاص يمتاز بها عن كل ما عداه كما قيل ففي كل شيء له آية : تدل على أنه واحد[١] .

الخاطر : ما يرد على القلب من الخطاب أو الوارد الذى لا تعمل للعبد فيه[٢] ويقول ابن عربى (هو ما يرد على القلب والضمير من الخطاب ربانياً كان أو ملكياً أو نفسياً أو شيطانياً من غير إقامة وقد يكون لكل وارد لا تعمل لك فيه)[٣].

السُكر : (غيبة بوارد قوى).

الذوق : (أول مبادىء التجليات الإلهية).

الشرب : (هو أوسط التجليات).

الرىّ : (غاياتها فى كل مقام)[٤].

القرب : (القيام بالطاعة،وقد يطلق القرب علىحقيقة قاب قوسين).

البعد : (الإقامة على المخالفات، وقد يكون البعد منك ويختلف باختلاف الأحوال فيدل على ما يراد به قرائن الأحوال وكذلك القرب).

الحقيقة : ﴿ سلب آثار أوصافك عنك بأوصافه بأنه الفاعل بك فيك. منك لا أنت "ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ﴾[٥].

---

(١) ذاته ص١٥٤ .

(٢) ذاته ص١٥٨ .

(٣) اصطلاح الصوفية لمحيىالدين بن عربى ص٧ .

(٤) اصطلاح الصوفية لابن عربى، ص٦.

(٥) سورة هود الآية٥٦ .

شطحات الصوفية

مدخل :

" شطح " بالكسر وتشديد الطاء " شطّح " زجر للعريض من أولاد المعز، لم يتعرض لها ولما قبلها أكثر أئمة اللغة وإنما ذكر بعض أهل الصرف هذا اللفظ الذى ذكره المصنف فى " أسرار الأصوات " . قال شيخنا واشتهر بين المتصوفة " الشطحات " وهى فى اصطلاحهم عبارة عن كلمات تصدر منهم فى حالة الغيبوبة، وغلبة شهود الحق تعالى عليهم، بحيث لا يشعرون حينئذ بغير الحق كقول بعضهم " أنا الحق " ، " ليس فى الجبة إلا الله " ونحو ذلك . وذكر الإمام " أبو الحسن اليوس " شيخ شيوخنا فى حاشيته الكبرى، وقد ذكر الشيخ " السنوس " فى إسناده " الشطحات " " لم أقف على لفظ الشطحات فيما رأيت من كتب اللغة كأنها عامية وتستعمل فى اصطلاح " التصوف[1]" ويقول صاحب اللسان : " مادة " شطح " يقول : وزاد أيضاً " شطح " بكسر أوله وثانيه المشدد . زجر للعريض من أولاد المعز[2] .ويقول صاحب المعجم الوسيط " شطح " فى السير أو فى القول يعنى تباعد واسترسل . الشطحة فيقال لفلان الصوفى له أحوال وشطحات [3] ونحن نرى صدق ما ذهب إليه الشيخ " السنوس " حيث إننا راجعنا جلّ المعاجم اللغوية فلم نرى معنى لهذه الكلمة يشفى الغلة ويبل الأوام ويبدو أنها عامية

---

(١) تاج العروس من جواهر القاموس – محمد مرتضى الزبيدى – منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت – لبنان مادة (شطح) ج٢ ص١٧٣ .

(٢) لسان العرب لابن منظور . ج٢ ص٤٩٨ دار صادر بيروت لبنان .

(٣) المعجم الوسيط ج١ ص٥٠١ مادة (شطح) – مجمع اللغة العربية الطبقة الثالثة ربيع الأول سنة ١٣٩٢ هـ مايو سنة ١٩٧٠ م .

أشتهرت بين أهل التصوف، واستحدثت كمصطلح لهم وهو الانتقال من حال إلى حال، مما يؤدى بالمتصوف إلى الشطح وهو البعد عن الحقائق والألفاظ المعروفة إلى كلمات غريبة مبهمة لدى السامعين لا يفطن معناها إلا من كان من جملتهم .

والشطح فى لغة العرب : هو (الحركة) يقال شطح يشطح إذا تحرك، ويقال للبيت الذى يحوزون فيه الدقيق (المشطاح) قال الشاعر:

قف بشط الفرات مشرعة الخيل قبيل الطريق بالمشطاح
بالطواحين من حجارة بطريق بدير الغزلان دير الملاح

وإذا لاح بالمسناة ظبى قد كساه الإشراق ضوء الصباح
فاقر ذاك الغزال منى سلاما كلما صاح صائح بفلاح[٤]

وإنما سمى ذلك البيت (المشطاح) من كثرة ما يحركون فيه الدقيق فوق ذلك الموضع الذى يتحلون به، وربما يفيض من جانبه من كثرة ما يحركونه، فالشطح : لفظة مأخوذة من الحركة، لأنها حركة أسرار الواجدين إذا قوى وجدهم فعبّروا عن وجدهم ذلك بعبارة يستغرب سامعها، فمفتون هالك بالإنكار والطعن عليها إذا سمعها، وسالم ناج برفع الإنكار عنها والبحث عما يشكل عليه منها بالسؤال عمن يعلم علمها، ويكون ذلك من شأنها . ألا ترى أن الماء الكثير إذا جرى فى نهر ضيق فيفيض من حافتيه ؟ يقال شطح الماء فى النهر فكذلك المريد الواجد : إذا قوى وجده، ولم يطق حمل ما يرد على قلبه

---

(٤) اللمع للطوس ص٤٥٣ تحقيق الإمام د/ عبدالحليم محمود وطه سرور . سنة ١٣٨٠ هـ سنة١٩٦٠ م .

من سطوة أنوار حقائقه، سطع ذلك على لسانه، فيترجم عنها بعبارة مستغربة مشكلة على فهوم سامعيها، إلا من كان أهلها، ويكون مُتبحّراً فى علمها فسُمّى ذلك على لسان أهل الاصطلاح : شطحاً(٥) . ومعناه : " عبارة مستغربة فى وصف وجد فاض بقوته، وهاج بشدة غليانه وغلبته "(٦) . وبعد فإن الله تعالى فتح قلوب أوليائه وأذن لهم بالإشراف على درجات متعالية، وقد جاء الحق تعالى على أهل صفوته والمتحققين بالتوجه والانقطاع إليه بكشف ما كان مستتراً عنهم قبل ذلك من مراتب صفوته ودرجات أهل الخصوص من عباده . فكل واحد منهم ينطق بحقيقة ما وجد ويصدق عن حاله ويصف ما ورد عن سره بنطقه ومقاله، لأنهم لا يرون حالاً أعلى من حالهم حتى يحكموها، فإذا أحكموها فعند ذلك يسمون بهممهم إلى حالة أعلى من ذلك حتى تنتهى الطرق والأحوال والأماكن إلى غاية ونهاية، هى أعلى النهايات وغاية الغايات . قال الله تعالى : (وفوق كل ذى علم عليم)(٧) وقال : (ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات)(٨) وقال :(أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض)(٩) وليس لأحد أن يبسط لسانه بالواقعية فى أوليائه ويقيس بفهمه ورأيه ما يسمع من ألفاظهم وما يشكل على فهمه من كلامهم، لأنهم فى أوقاتهم متفاوتون، وفى أحوالهم متفاضلون ومتشاكلون ومتجانسون بعضهم لبعض، ولهم أشكال ونظراء معروفون، فمن بان شرفه وفضله على أشكاله، بفضل علمه وسعة معرفته، فله أن

---

(٥) ذاته ص٤٥٤ .

(٦) ذاته ص٤٥٣ .

(٧) سورة يوسف : ٧٦ .

(٨) الزخرف : ٣٢ .

(٩) الإسراء : ٢١ .

يتكلم فى عللهم وإصابتهم، ونقصانهم وزيادتهم، ومن لم يسلك سبلهم، ولم ينح نحوهم ولا يقصد مقاصدهم، فالسلامة له فى رفع الإنكار عنهم، وأن يكل أمورهم إلى الله تعالى (ويتّهم نفسه بالغلط فيما ينسبهم إليه من الخطأ)[١٠] .

شطحات الصوفية :

سلك بعضهم طريق تحضير الأرواح معتقدا بأن ذلك من التصوف، كما سلك آخرون طريق الشعوذة والدجل . وقد اهتموا ببناء الأضرحة وقبور الأولياء وإنارتها وزيارتها والتمسح بها وكل ذلك من البدع التى ما أنزل الله بها من سلطان - يقول بعضهم بارتفاع التكاليف عن الولى أى أن العبادة تصير لا لزوم لها بالنسبة إليه لأنه وصل إلى مقام لا يحتاج معه إلى القيام بذلك، ولأنه لو اشتغل بوظائف الشرع وظواهره انقطع عن حفظ الباطن وتشوش عليه الالتفات عن أنواع الواردات الباطنية إلى مراعاة الظاهر - وينقل عن الغزالى انتقاده لمن غليهم الغرور ويعدد فرقهم :

- فرقة اغتروا بالزى والهيئة والمنطق .
- وفرقة ادعت علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاوزة المقامات والأحوال .
- وفرقة وقعت فى الإباحة وطووا بساط الشرع ورفضوا الأحوال وسووا بين الحلال والحرام . وبعضهم يقول :

الأعمال بالجوارح لا وزن لها وإنما النظر إلى القلوب، وقلوبنا والهة بحب الله وواصلة إلى معرفة الله، وإنما نخوض فى الدنيا بأيدينا

(١٠) اللمع : ص٤٥٤ .

وقلوبنا عاكفة فى الحضرة الربوبية فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب .

- هنالك أقوال تنسب لأبى يزيد البسطامى، ولكن كلاً من عبدالله الهروى (ت ٤٨١ هـ) والمستشرق نيكلسون يشككان فى صحة نسبة هذه الأقوال وهى : - قوله (سبحانى ما أعظم شأنى) . وقوله " إنى لا إله إلا أنا فاعبدون " . وقوله : " جزت بحراً وقف الأنبياء عند سواحله " وقوله : " صعدت إلى السماء وضربت قبتى بإزاء العرش " .

- للحلاج الذى يعتبر صاحب مدرسة الاتحاد والحلول أقوال منها:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا   نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتنى أبصرته   وإذا أبصرته أبصرتنا

فرجت روحك فى روحى كما   تمزج الخمرة فى الماء الزلال

فإذا مسك شىء مسنى   فإذا أنت أنا فى كل حال

يستخدم الصوفيون لفظ (الغوث والغياث)، لكن ابن تيمية يقول فى ص٤٣٧ من كتاب التصوف (مجموع الفتاوى) : فأما لفظ (الغوث والغياث) فلا يستحقه إلا الله، فهو غوث المستغيثين، فلا يجوز لأحد الاستغاثة بغيره لا بملك مقرب ولا نبى مرسل . لقد أجمعت كل الطرق على ضرورة الذكر، وهو عند النقشبندية لفظ (الله) مع ملاحظة المعنى، وعند الشاذلية (لا إله إلا الله)، وعند غيرهم مثل ذلك مع الاستغفار والصلاة على النبى، وبعضهم يقول عند اشتداد الذكر : هو هو، بلفظ الضمير . لكن ابن تيمية يقول فى كتاب السلوك من مجموع

الفتاوى ص٢٢٩ : (وأما الاقتصار على الاسم المفرد مظهراً أو مضمراً فلا أصل له، فضلاً عن أن يكون من ذكر الخاصة والعارفين، بل هو وسيلة إلى أنواع من البدع والضلالات وذريعة إلى تصورات أحوال فاسدة من أحوال أهل الإلحاد وأهل الاتحاد) .

– ويقول ص٢٢٧ أيضاً (من قال : يا هو يا هو، أو هو هو، ونحو ذلك لم يكن الضمير عائداً إلا إلى ما يصوره القلب، والقلب قد يهتدى وقد يضل) . يأتى بعض المنتسبين إلى التصوف بأعمال عجيبة وخوارق، وابن تيمية ص٤٩٤ من كتاب التصوف يقول : " وأما كشف الرؤوس وتفتيل الشعر وحمل الحيات فليس هذا من شعار أحدهم من الصالحين ولا من الصحابة ولا من التابعين ولا شيوخ المسلمين ولا من المتقدمين ولا من المتأخرين ولا الشيخ أحمد بن الرفاعى وإنما ابتدع هذا بعد موت الشيخ بمدة طويلة " . يقول ابن تيمية ص٥٠٤ من كتاب التصوف : " وأما التدللموتى من الأنبياء والمسائخ وغيرهم أو لقبورهم أو المقيمين عند قبورهم فهو نذر شرك ومعصية لله تعالى " . ويقول ص٥٠٦ من كتاب التصوف : " وأما الحلف بغير الله من الملائكة والأنبياء، والمشائخ والملوك وغيرهم فإنه منهى عنه " . ويقول ص٥٠٥ من كتاب التصوف : (وأما مؤاخاة الرجال النساء الأجانب وخلوتهم بهن ونظرهم إلى الزينة الباطنة فهذا حرام باتفاق المسلمين ومن جعل ذلك من الدين فهو من إخوان الشياطين) . فى مقام الفناء عند شهود ما سوى الرب وهو الفناء عن الإرادة يقول ابن تيمية ص٣٣٧ من كتاب السلوك : " وفى هذا الفناء قد يقول : أنا الحق أو سبحانى أو ما فى الجبة إلا الله، إذا فنى بمشهودة عن شهوده وبموجودة عن وجوده وفى مثل هذا المقام يقع السكر الذى يسقط التمييز مع وجود

حلاوة الإيمان كما يحصل بسكر الخمر وسكر عشيق الصور .. ويحكم على هؤلاء أن أحدهم إذا زال عقله بسبب غير محرم فلا جناح عليهم فيما يصدر عنهم من الأقوال والأفعال المحرمة بخلاف ما إذا كان سبب زوال العقل والغلبة أمراً محرماً .. وكما أنه لا جناح عليهم فلا يجوز الاقتداء بهم ولا حمل كلامهم وأفعالهم على الصحة، بل هم فى الخاصة مثل الغافل والمجنون فى التكاليف الظاهرة " . أما فى مقام الفناء عن وجود السوى فيقول ص٣٣٧ من كتاب السلوك أيضاً : " الثالث : فناء عن وجود السوى بمعنى أنه يرى أن الله هو الوجود وأنه لا وجود لسواه، لا به ولا بغيره، وهذا القول والحال للاتحادية الزنادقة من المتأخرين كالبلياني والتلمساني والقونوى ونحوهم، الذين يجعلون الحقيقة أنه عين الموجودات وحقيقة الكائنات وأنه لا وجود لغيره، لا بمعنى أنه قيام الأشياء به ووجودها به لكنهم يريدون أنه عين الموجودات فهذا كفر وضلال .

الجذور الفكرية والعقائدية :

-إن المجاهدات الصوفية إنما ترجع إلى زمن سحيق فى القدم من وقت أن شعر الإنسان بحاجة إلى رياضة نفسه ومغالبة أهوائه – لا شك أن ما يدعوا إليه الصوفيون من الزهد، والورع والتوبة والرضا.. إنما هى أمور من الإسلام، وأن الإسلام يحث على التمسك بها والعمل من أجلها . لكن الذى وصل إليه بعضهم من الحلول والاتحاد والفناء، وسلوك طريق المجاهدات الصعبة، إنما انحدرت هذه الأمور إليه من مصادر دخيلة على الإسلام كالهندوسية والجينية والبوذية والأفلاطونية والزرداشتية

والمسيحية- المستشرق ميركس يرى بأن التصوف إنما جاء من رهبانية الشام - المستشرق جونس يرده إلى فيدا الهنود - نيكلسون يقول بأنه وليد الاتحاد الفكر اليوناني والديانات الشرقية، أو بعبارة أدق وليد لاتحاد الفلسفة الأفلاطونية الحديثة والديانات المسيحية والمذهب الغنوصي . إن السقوط في دائرة العدمية بإسقاط التكاليف وتجاوز الأمور الشرعية إنما هو أمر عرفته البرهمية حيث يقول البرهمي (حيث أكون منحدراً مع براهما لا أكون مكلفاً بعمل أو فريضة)

- قول الحلاج في الحلول، وقول ابن عربي في الإنسان الكامل يوافق مذهب النصارى في عيسى عليه السلام . لقد كان التصوف المنحرف باباً كبيراً دخلت منه كثير من الشرور على المسلمين مثل التواكل، والسلبية، وإلغاء شخصية الإنسان، وتعظيم شخصية الشيخ، فضلاً عن كثير من الضلالات التي يخرج بعضها صاحبه من الإسلام .

الانتشار ومواقع النفوذ :

لقد عملت الطرق الصوفية على نشر الإسلام في كثير من الأماكن التي لم تفتحها الجيوش وذلك بما لديهم من تأثير روحي يسمونه (الجذب) مثل إندونيسيا ومعظم إفريقيا وغيرها من الأقطار النائية .

لقد اعتمد الحكام على أقطاب الصوفية في التعبئة الروحية للجهاد ولصد غارات الكفار ومن هؤلاء أحمد البدوي وإبراهيم الدسوقي والشاذلي .

-انتشر التصوف على مدار الزمان وشمل معظم العالم الإسلامي،

وقد نشأت فرقهم وتوسعت في مصر والعراق وشمال غرب إفريقيا ووسط وشرق أسيا .

- لقد تركوا أثراً مهماً في الشعر والنثر والموسيقى وفنون الغناء والإنشاد، وكانت لهم آثار في إنشاء الزوايا والتكايا والملاجيء والمستشفيات والمرابط .

-لقد كان للروحانية أثر في جذب الغربيين الماديين إلى الإسلام ومن أولئك (مارتن لنجز الذي يقول : إنني أوروبي وقد وجدت خلاص روحي ونجاتها في التصوف) .

وتراجعت الصوفية وذلك ابتداءً من نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ولم يعد لها ذلك السلطان الذي كان لها فيما قبل.



الشعر الصوفى

سماته وألوانه


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشعر لغة الوجدان، ورقة الإحساس، ودفق المشاعر وفيض الخاطر، وما سمت العرب الشعر شعراً إلا لأنها شعرت به وفطنت إليه. وكانت العرب لا تقيم الموائد والاحتفالات إلا إذا ولد لأحدهم مولود ذكر، أو فرس أنتجت . أو نبغ فيهم شاعر، وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إنما الشعر كلاماً مؤلف فما وافق الحق منه فهو حسن، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه، وقال عليه الصلاة والسلام إنما الشعر كلام فمن الكلام خبيث وطيب) . وقالت عائشة رضى الله عنها (الشعر فيه كلام حسن وقبيح، فخذ الحسن، واترك القبيح)[1] . وعنها أيضاً أن النبى صلى الله عليه وسلم بنى لحسان بن ثابت فى المسجد منبراً ينشد عليه الشعر . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه (الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه)[2] وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : (الشعر ميزان القول) ورواه بعضهم (الشعر ميزان القوم) وروى ابن عائشة يرفعه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الشعر كلام من كلام العرب جزل، تتكلم به فى بواديها، وتسل به الظعائن من بيتها . وأنشد ابن عائشة قول " أعشى بنى قيس بن ثعلبة " :

قلدتك الشعر يا سلامة ذا	فايش والشيء حيثما جوال
والشعر يستنزل الكريم كما	ينزل رعد السحابة السبلا[3]

---

(١) العمدة لابن رشيق القيروانى ج١ ص٢٧ تحقيق محمد محيىالدين عبدالحميد – دار الجيل – بيروت – لبنان ج١ الخامسة ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م .

(٢) ذاته .

(٣) ذاته ص٢٨ .

ويروى أن عمر بن الخطاب مرّ " بحسان " وهو ينشد الشعر فى مسجد رسول الله ﷺ ثم قال : أرغاءٌ كرغاء البكر؟ فقال حسان : دعنى عنك يا عمر، فوالله إنك لتعلم لقد كنت أنشد فى هذا المسجد من هو خير منك فما يغير علىّ ذلك، فقال عمر صدقت . وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى : من قبلك بتعلم الشعر فإنه يدل على معالى الأخلاق، وصواب الرأى، ومعرفة الأنساب[1] . وقال معاوية رحمه الله : يجب على الرجل تأديب ولده. والشعر أعلى مراتب الأدب وقال : (اجعلوا الشعر أكبر همكم، وأكثر دأبكم، فلقد رأتنى ليلة الهرير بصفين وقد أتيت بفرس أغل محجل، بعيد البطن من الأرض وأنا أريد الهرب لشدة البلوى، فما حملنى على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الإطنابة :

أبت لى همتى وأبى بلائى ... وأخذى الحمد بالثمن الربيح

وإقحامى على المكروه نفسى ... وضربى هامة البطل المشيح

وقولى كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدى أو تستريحى

لأدفع عن مآثر صالحات ... وأحمى بعد عن عرض صحيح[2]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكماً) وقيل "لحكمة " فقرن صلى الله عليه وسلم البيان بالسحر فصاحة منه عليه السلام وجعل من الشعر حكماً، لأن السحر يخيل للإنسان ما لم يكن، وذلك لطاقته وحيلة صاحبه، وكذلك

(١) ذاته .

(٢) ذاته ص٢٨، ٢٩ .

البيان يتصور فيه الحق بصورة الباطل، والباطل بصورة الحق وذلك لرقة معناه، ولطف موقعه، وأبلغ البيانين عند العلماء الشعر بلا مدافعة يقول رؤبة :

لقد خشيت أن تكون ساحراً   راوية مرّاً ومرّاً شاعراً

فقرن الشعر أيضاً بالسحر لتلك العلة[1] .

والشعر الصوفى لون من ألوان الشعر الإسلامى الرفيع الذى عنى بالنفس الإنسانية والحديث عنها عناية فائقة، وهو يلجأ إلى أسلوب التحليل النفسى الدقيق يقول ابن الفارض :

وفى عالم التذكار للنفس علمها   المقدم تستهديه منى فتيتى[2]

والعلماء يعدون ابن الفارض بهذا البيت المتقدم هو مكتشف علم النفس كما عرفه علماء النفس فى العصر الحديث فابن الفارض يرى أن النفس الإنسانية تكتسب علمها الأول من التذكر لكل ما يستقر فيها من مشاعر وخيالات وصور، فالعلم ليس منبعه العقل، بل منبعه النفس، وليس مصدره المعرفة العقلية بل الإلهام النفسى، وليس منهجه ترتيب المعلومات وفهمها، بل هو تذكر المعلومات الإنسانية عن طريق الوحى والإلهام والتذكر، والنفس عالم كبير، والتذكر النفسى عالم أوسع، وبهذا يوضح ابن الفارض جانباً كبيراً مما كتب حوله الصوفيون من دراسة للنفس الإنسانية، ومن أدب التحليل النفسى الذى أبدع فيه الصوفيون[3].

---

(١) ذاته ص ٢٧ .

(٢) الديوان ص .

(٣) دراسات فى التصوف الإسلامى للدكتور محمد عبدالمنعم خفاجى ج٢ ص١٤٠ بتصرف .

والشعر الصوفي برمزتيه الأسلوبية والموضوعية صاحب نزعة سريالية ذلك المذهب الذي يدعوا إلى التحلل من كل المنطق التقليدي، وبين دور اللاوعي في العمل الفني، مؤكداً التداخل بين الأحلام والواقع، فالسريالية هي التعبير عن الفكرة في غيبة أية رقابة قد يمارسها العقل وبعيداً عن أي اهتمام جمالي وكذلك ينزع الشعر الصوفي الذي يتحدث عن أعماق النفس، حديث الرؤى والأحلام والعقل والباطن(١) . لقد نزع الصوفيون في شعرهم نزعة ذاتية عميقة، فضربوا في عالم ما وراء الحس، وحاولوا الوصول بقلوبهم إلى ما لا يتسنى للعقل والحواس الوصول إليه، وبذلك قد أثرى الصوفيون الشعر العربي بهذه السريالية وبتلك الرمزية الصوفية إثراءاً عظيماً حيث فتحوا أمام الشعر النوافذ والأبواب ووسعوا جوانبه ومذاهبه في الأداء والتعبير وطرقوا عالم الأرواح يجولون في أسراره وأنواره، وبهتهم في ذلك الحقيقة، ودافعهم الحب، ورغبتهم الظفر بالوصول والمشاهدة جامعين في ذلك بين مناهج الرمزية الصوفية الأدبية، ومعالم السريالية في الأخذ من الباطن ومن اللاشعور . وقد عبر الشعر الصوفي عن الحب الإلهي أعظم تعبير واتخذه مذهباً له في الحياة واحترقوا بناره وفي ذلك يقول ابن الفارض :

وعن مذهبي في الحب مالي مذهب	وإن ملت يوماً عنه فارقت ملتي
ولو خطرت لي في سواك إرادة	على خاطري سهواً قضيت بردتي
لك الحكم في أمري فما شئت فاصنعي	فلم تك إلا فيك لا عنك رغبتي

---

(١) ذاته ص١٤٠ بتصرف .

ويتميز الشعر الصوفى بالتحليق فى عالم الروح، ولذلك ترى بوناً شاسعاً بين المرميين : مرمى الغزل الصوفى، ومرمى الغزل الحسى ولذا رد كثير من العلماء غزل الشاعر " عمر الخيام " وخمرياته إلى التصوف وردها قوم إلى الحب المادى ونحن نرى بل نكاد نجزم أن غزل الخيام وخمرياته تصوف إسلامى، وشعر صوفى أسلوبه الرمز والتمثيل والتخيل[1] . والشعر الصوفى واسع الخيال ثرى المعنى متنوع الأغراض مع القدرة على استخدام الألفاظ كما يتميز الشعر الصوفى بأنه تعبير عن وجدان الشاعر وذاته وأعماق نفسه، فهو أدب وجدانى، ومذهب رومانسى حالم، والشعر الصوفى متنوع فى موضوعاته بين الزهد، والحب الإلهى، والمدائح النبوية، وشعر الآداب والحكم، والدعاء، والتسبيح . ومن فنونه أيضاً " الاستغاثة " وهى لون من ألوان الأدب الرفيع، ومن موضوعات الدعاء، وبون بين الاستغاثة، والأحزاب والأوراد حيث أن الاستغاثة تكون شعراً ونثراً، أما الأحزاب والأوراد لا تكون إلا نثراً وهى دعاء الله بإلحاح قال ﷺ (إن الله يحب العبد اللحوح عليه فى الدعاء) ومن أقدم الاستغاثات الشعرية منظومة السهيلى التى يقول فيها :

يا من يرجى للشدائد كلها	يا من إليه المشتكى والمفزع
يا من خزائن رزقه فى قول كن	امنن فإن الخير عندك أجمع
ما لى سوى فقرى إليك وسيلة	وبالافتقار إليك فقرى أدفع
ما لى سوى قرعى لبابك حيلة	فلئن رددت فأى باب أقرع
ومن الذى أدعو وأهتف باسمه	إن كان فضلك عن فقيرك يمنع

---

(١) عمر الخيام للشيخ مبشر الطرازى . نشر القاهرة عام ١٩٦٠م .

ومن الاستغاثات النثرية الرائعة،استغاثات ابن عطاء الله السكندرى ومنها (إلهى أنا الفقير فى غناى، فكيف لا أكون فقيراً فى فقرى، إلهى أنا الجاهل فى علمى فكيف لا أكون جهولاً فى جهلى)[1]، إلهى وصفت نفسك باللطف والرأفة بى قبل وجود ضعفى، أفتمنعنى منهما بعد وجود ضعفى، إلهى منى ما يليق بلؤمى ومنك ما يليق بكرمك، إلهى هذا ذلى ظاهر بين يديك، وهذا حالى لا يخفى عليك، إلهى كلما أخرسنى لؤمى أنطقنى كرمك، وكلما آيستنى أوصافى، أطمعتنى منتك[2] وللصوفية مذاهب جديدة فى النقد وصور الأداء تستحق الوقوف أمامها طويلاً ومنها نقد ناقد (لمحيى الدين بن عربى) فى قوله :

حار أرباب الهوى فى الهوى وارتبكوا

فقال : يا عجباً كيف يبقى للمشغوف فضلة يحار بها، والهوى شأنه التعميم، يخدر الحواس، ويذهب العقول، ويدهش الخواطر، ويذهب بصاحبه فى الذاهبين، فأين الحيرة وما هنا باق فيحار، والطريق لسان الصدر .

ويقول اليافعى عفيف الدين صاحب كتاب (روض الرياحين فى مناقب الصالحين) وكتاب (نشر المحاسن الغالية فى فضل أصحاب المقامات العالية) :

وقائلة ما المجد للمرء ما الفخر؟ فقلت لها شىء لبيض العلا مهر

---

(١) دراسات فى الأدب الصوفى د/ خفاجى بتصرف ص١٤٢، ١٤٣ .

(٢) شرح الرندى على الحكم ج٢ ص٨٩ – ٩٩ بتصرف .

فأما بنـو الدنيا ففخرهم الغنـى كزهر نضير فى غد ييبس الزهر

وأما بنو الأخرى ففى الفقر فخرهم نضارته تزداد ما بقى الدهـر[1]

فيصـف الفقر بالنضـارة، والفقر لا يوصـف بالنضـارة إلا عنـد الصوفية وفى عرفهم[2].

ومن الشعر الصوفى الرائـق الذى يفيض بالمشـاعر والأحاسـيس والحب الإلهـى، وحب الرسولﷺ شـعر الإمـام " البوصـيرى " وهـو (شرف الدين أبو عبدالله محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن عبداللـه ابن حيان بن صنهاج بن ملاك الصنهاجى البوصيرى أو الدّلامـى فلقبـه شرف الدين ويكنى بأبى عبدالله وهو من قبيلة " صنهاجة " التى عاشـت فـى المغرب واختلـف أمرهـا أبربريـة هـى أم عربيـة[3]، ويؤكـد ابـن خلدون[4] أنها عربية يمنية . والحق الذى تشـهد بـه المواطـن والعجمـة أنهم من " البربر " بمعزل عن العرب إلا مـا زعمـه نسـابة العرب فـى "صنهاجة ولواته " وقبيلة " صنهاجة " إحدى قبائل المغرب وتفرقت فـى الشـمال الإفريقـى كلـه فـالبوصيرى عربـى وإن كـان عهـده بالعروبـة الصحيحة بعيداً لطول إقامة " صنهاجة " بالمغرب وتأثرها بلغة الـبربر، وهو إن فاته من نسبه العربى سلامة الملكة لا يفوتـه كثـير مـن صفـات العرب التى عرفوا بها لأن هذه الصفات لم يغير منها إقامة " صنهاجة " بين البربر إذ كانت معيشتهم وحالة اجتماعهم لا تختلفان عما للعرب فى جزيرتهم . وكان صريحاً فى قوله شديداً فى الحق وقد ولـد"البوصـيرى"

---

(١) نشر المحاسن ج٢ ص٤١ .

(٢) التصوف الإسلامى لزكى مبارك ج١ ص٢٤٢ .

(٣) دراسات فى الأدب الصوفى د/ خفاجى ج٢ ص١٨٣ بتصرف .

(٤) مقدمة ابن خلدون، والأعلام للزركلى .

رضى الله عنه فى مصر عام ٦٠٨ هـ وعاش بها وتوفى فى مصر عام ٦٧٥ هـ وكان أحد أبويه من " أبو صير " والآخر من " دلاص " فركب له نسب منهما فقيل له " الدلاصيرى " ولكنه اشتهر "بالبوصيرى" ودلاص، وأبوصير . من أعمال محافظة " بنى سويف " ويرجح أن "دلاص " بلدة والده، " وبوصير " بلدة والدته وأنه ولد بدلاص ونشأ بأبوصير[1] ويعد علماً من أعلام الشعراء فى عصره، واشتهر ببردته التى سارت مسير الشمس وكانت مضرب الأمثال فى البلاغة والروعة والبيان، وجل شعره من نسق واحد وهو شعر خال من التكلف والمحسنات المتعمدة المستكرهة، فقد كان مطبوعاً على قول الشعر وللانطباع أدلة منها : الجمع بين الغث والسمين، لأن النفس لا تكون بمثابة واحدة فى كل حال .

ثانيها : بساطة القول وعدم الاحتفال بالزينة اللفظية .

والثالث منها : طول النفس، وقد جاء طول نفسه فى الشعر لهذا الانطباع الذى وصف به، ومن شعره الذائع الصيت " الهمزية التى فصل فيها الشاعر حياة رسول الله ﷺ منذ ولادته مع ذكر معجزاته وكثرة كاثرة من غزواته ومطلعها .

كيف ترقى رقيك الأنبياء	يا سماء ما طاولتها سماء
لم يساووك فى علاك وقد حا	ل سناً منك دونهم وسناء
إنما مثلوا صفاتك للنا	س كما مثل النجوم الماء
أنت مصباح كل فضل	فما تصدر إلا عن ضوئك الأضواء

---

(١) دراسات فى الأدب الصوفى د/ خفاجى ج٢ ص١٨٤ وأيضاً ديوانه .

لك ذات العلوم من عالم الغيب ومنهـــا لآدم الأسمـــــاء
لم تزل فىضمائر الكون تختا ر لـــك الأمهـــات والآبـــاء
ما مضت فترة من الرسل إلا بشـــرت قومها بـــك الأنبياء
تتباهى بك العصـــور وتسمو بك علياء بعدهـا عليـــاء[1]

وأما قصيدته " ذخر المعاد " فهى معارضة لقصيدة كعب بن زهير المشهورة التى أولها :

بانـت سعاد فقلبـى اليوم مشغول فتيم إثرها لـم يفـــد مكبـــول

وجاءت قصيدة " البوصيرى " أطول من قصيدة " كعب " ومنها هذه الأبيات المختارة :

إلـــى متـى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمـت مسئول
فى كل يوم ترجى أن تتوب غداً وعقد عزمك بالتسويف محلـــول
أما يرى لـــك فيما سن من عمل يوماً نشاط وعما ســاء تتكيـــل
فجرد العـــزم إن الموت صارمه مجـــرد بيـــد الآجـــال مسلول
واقطع حبال الأمانى التىاتصلت فإنها حبلهـــا بالزور موصـــول
أنفقت عمرك فى مال تحصلــــه ومـــا علـــى غيـــر إثـم منـــه محصول
ورحت تعمـــر داراً لإبقـــاء لها وأنت عنها وإن عمـــرت منقول
جاء النذيـــر فشمر للمسيـــر بلا مهل فليس مـــع الإنذار تمهيـــل
وصن مشيبك عن فعل تشـــان به فكل ذى صبـــوة بالشيب معذول
لا تنكرنه وفى الفودين قد طلعت منه الثريا وفـــوق الرأس إكليل
فإن أرواحنـــا مثـــل النجوم لها من المنية تسييـــر وترحيـــل[2]

---

(١) الديوان .

(٢) الديوان .

الحــلاج

ولد أبو المغيث الحسين بن منصور بن محمى البيضاوى فى قرية الطور فى الشمال الشرقى من مدينة البيضاء من مدن مقاطعة فارس بإيران وإلى الشمال من مدينة شيراز على بعد ثلاثين كيلو متراً، فى نحو سنة ٢٤٤ هـ / ٨٥٧ م، وكان جده محمى مجوسياً - وتنقل الحلاج بين شيوخ التصوف المعاصرين حتى وصل إلى بغداد ليأخذ عن الجنيد البغدادى شيخ الطائفة الصوفية لأيامه (ت ٢٩٨ هـ / ٩١٠ - ١١ م) لكن هذا لم يقبله قبولاً حسناً لثقة الحلاج المفرطة بنفسه ومبالغته فى ممارسة الرياضيات النفسية والجسدية - قصد الحلاج مكة حاجاً ليعود منها إلى الأهواز، بالقرب من موطنه القديم، واعظاً . وإذ لم ينجح النجاح المطلوب، جعل يتنقل فى خراسان وفارس والعراق ليلقى عصا الترحال فى بغداد - لكنه رحل عنها ثانية - بعد أن ترك أسرته فيها - حاجاً ثانية، ثم لم يعد إليها مباشرة وإنما قصد إلى الهند والصين فى رحلة طويلة طوّر فيها أفكاره الصوفية وراض نفسه على التصوف الهندى، ثم عاد إلى بغداد ليستقر فيها ابتداءاً من نحو سنة ٢٩١ هـ / ٩٠٣ م وله من العمر ست وأربعون سنة [(١)] . وفى بغداد صنف الحلاج كتبه التى بلغت عنواناتها تسعة وأربعين وكان اثنان منها فى السياسة وكان من أهمية أحدهما وهو (الساسة والخلفاء والأمراء) أن وجد فى خزانة كتب على بن عيسى الوزير . ولم يبق الزمان من كتب الحلاج إلا على كتابه (الطواسين)، أى الآيات، الذى ألفه فى فترة سجنه وقبل أن يعدم . وبعد انتهاء حياة الحلاج تحول من زعيم صوفى إلى إمام قيل

---

(١) الديوان - صنعه وأصلحه الكتور كامل مصطفى الشيبى ص١١ .

بمهديته ورجعته وقامت طائفة صوفية دانت بفكرة الحلول ونسبتها إليه خطأ وكان ذلك فى منتصف القرن الخامس الهجرى وفى أيام أبى العلاء المعرى[1] . وبعد سنين قليلة انتدب الغزالى، الشافعى الأشعرى، للدفاع عن الحلاج وتفنيد المآخذ عليه ثم تلاه الشيخ عبدالقادر الجيلى الحنبلى، وكثير غيره فتحول الحلاج إلى شهيد وقديس وانتشر صيته حتى غطى العالم الإسلامى كله من القرن الخامس إلى يومنا هذا وفى مطلع القرن العشرين أحيا " ماسنيون " ذكر الحلاج حين زار بغداد سنة ١٩٠٨ م، ضمن بعثة آثارية، فصور قبر الحلاج وغيره ثم كتب عن عبارته " أنا الحق " بحثاً ألقاه فى مؤتمر المستشرقين الذى انعقد فى أثينا سنة ١٩١٢ م، ونشر ديوانه وكتابه " الطواسين " وأخباره والنصوص التى دارت حوله، وتوّج ذلك كله برسالة مطولة للدكتوراه كان عنوانها " عذاب الحلاج " فنبه بذلك الأدباء والشعراء الباحثين فى الشرق والغرب إلى أهميته الأدبية والتاريخية والفكرية كما نبههم فيتز جرالد، قبل ذلك، إلى الخيام وجمال رباعياته - وابتداءاً من الخمسينات، صار الحلاج رمز الشهيد الحر والزعيم المؤثر والنموذج الرفيع للرجل الباذل لوجوده من أجل مبدئه والإنسانية فى الأدب العربى نفسه، فكتب فى رثائه وتمجيده، فى شكل صريح ورمزى كثير من الشعراء والأدباء، من أبرزهم : شاعرنا عبدالوهاب البياتى . والشاعران السوريان على أحمد سعيد وعدنان مردم بك والقاصّ اللبنانى ميشال فريد غريب وغيرهم ممن يصلح إنتاجهم موضوعاً لكتاب برأسه[2] .

---

(١) ذاته ص١٣ .

(٢) ذاته ص١٤ .

نماذج من شعر الحلاج

" إلى مبارز من لا يراه "

إلـــى كم أنت فى بحــر الخطايا   تبارز من يـــراك ولا تــراه ؟
وسمتـك سمت ذى ورع ددـيـــن   وفعلك فعــل متّبـــع هـــواه ؟
فيا من بـــات يخلـــو بالمعاصى   وعيـــن اللـه شاهـــدة تـــراه
أتطمــع أن تنـــال العفـــو ممن   عصيت، وأنت لم تطلب رضاه ؟
أتفـــرح بالذنـــوب وبالخطايـــا   وتنســـاه ولا أحـــد ســـواه ؟
فتب قبـل الممات وقبـــل يـــوم   يلاقى العبد ماكسبـــت يـــداه[1]

(عمى الأبصار والبصائر)

وأى الأرض تخلـــو منك حتـــى   تعالوا يطلبونـــك فـــى السمـــاء
تراهم ينظرون إليـــك جهـــراً   وهم لا يبصـــرون من العماء[2]

(الإنسان والقدر)

ما يفعـــل العبـد والأقدار جارية   عليه فى كل حال، أيها الرائـى ؟
ألقاه فـــى اليمّ مكتوفـــاً وقال له   إيّـــاك إيّـــاك أن تبتلّ بالمـــاء[3]

روحان فى بدن ...

أنا من أهـــوى ومن أهـــوى أنا   نحـــن روحـــان حللنا بدنـــا
نحـــن مذ كنـــا على عهد الهوى   تضـــرب الأمثـــال للناس بنا

---

(١) ذاته ص١٧ .
(٢) ذاته ص١٨ .
(٣) ذاته ص١٩ .



فإذا أبصرتنـــى أبصـــرتـــه وإذا أبصـــرتـــه أبصـــرتنـــا

أيها السائـــل عـــن قصتنـــا لـــو تـــرانـــا لـــم تفـــرق بيننـــا

روحـــه روحى وروحى روحـــه من رأى روحين حلّت بدنـــا ؟[1]

الكيف منه معروف والغيب منه هو مجهول .

ســـر السرائـــر مطوى بإثبات من جانب الأفق من نور بطيات

فكيف والكيف معروف بظاهرة؟ فالغيـــب باطنه للذات بالذات

تاه الخلائق فى عمياء مظلمـــة قصداً ولم يعرفوا غير الإشارات

بالظنّ والوهم نحو الحق مطلبهم نحو السماء يناجون السماوات

والرب بينهم فـــى كـــل منقلب محل حالاتهم فى كل ساعات

وما خلوا منه طرف العين، لو علموا، وما خلا منهم فى كل أوقات[2]

محاورة قلبية مع الحق ..

رأيـــت ربـــى بعين قلبى فقلت : من أنت؟ قال: أنت

فليس للأيـــن منك أيـــن وليس أيـــن بحيـــث أنت

وليس للوهـــم منـــك وهم فيعلـــم الوهـــم أين أنت ؟

أنت الذى حـــزت كل أين بنحو " لا أين " فأين أنت ؟

ففـــى فنائـــى فنا فنائى وفى فنائى وجـــدت أنـــت

---

(١) ذاته ص٥٥ .

(٢) ذاته ص٢٥ .

فى محو اسمى ورسم جسمى ... سألت عنى فقلت : أنت
أشار سرّى إليك حتى ... فنيت عنى ودمت أنت
أنت حياتى وسر قلبى ... فحيثما كنت كنت أنت
أحطت علماً بكل شىء ... فكل شىء أراه أنت
فمنّ بالعفو يا إلهى ... فليس أرجو سواك أنت[1]

العشق موت وحياة..

والله لو حلف العشاق أنهم ... موتى من الحب أو قتلى لما حنثوا
قوم إذا هجروا من بعد ما وصلوا ... ماتوا، وإن عاد وصل بعده بعثوا
ترى المحبين صرعى فى ديارهم ... كفتية الكهف: لا يدرون كم لبثوا[2]

---

(١) ذاته ص٢٦ .

(٢) ذاته ص٢٧ .

ابن الفارض

هو الشاعر " شرف الدين عمر بن على المعروف بان الفارض " أشهر شعراء مصر فى عصر الدولة الأيوبية، وهو شاعر صوفى أوقف شعره على التصوف، والعشق الإلهى، وقد ورث الروح الصوفية عن والده – وبعد وفاة والده هاجر إلى مكة المكرمة، وأقام بها خمسة عشر عاماً، ثم عاد إلى القاهرة، وأقام بها حتى لقى الله عز وجلّ ودفن بسفح المقطم عن ستة وخمسين عاماً وكان من أصحاب المذهب الرمزى فى شعره الذى نحا فيه منحى كبار الصوفية، وأكثر فيه من صنعة البديع، مع الإجادة والرقة وطول النفس، مع الاتكاء على مصطلحات الصوفية ورموزهم وقد ذاع صيته واشتهر شعره بين الأدباء والشعراء والنقاد والصوفية والمستشرقين، وله ديوان شعر معروف وقد نهض بشرحه " حسن البورينى " و " عبدالغنى النابلسى " وشرحه أيضاً " رشيد بن غالب " وكان ابن الفارض ورعاً زاهداً، متصوفاً يتحلى بالصلاح والتقوى، وكان الناس يجلونه، ويقدره الملوك والأمراء وكان إذا مشى فى القاهرة يزدحم الناس عليه يلتمسون منه البركة والدعاء، مع الهيبة والوقار، فكان إذا خاطبه الخاصة من الناس فكأنما يخاطبون سلطاناً عظيماً، وكان شديد التأثر بالجمال فى كل مظهر من مظاهره يميل إلى الخلوة والتقشف، حسن العشرة، كريم السجايا مولع بالعشق الإلهى حتى سمى " سلطان العاشقين " وقد تجلت جميع هذه السمات وتلك الخصائص فى شعره وقد جاء شعره ممتلأ باصطلاحات الصوفية وعشقهم وآلامهم وأحوالهم من وجد وسكر، وصحو وهوى وشطح وتجريد، وغير ذلك من قصص حبهم الروحى الخالص، ويعد ابن الفارض أشهر شعراء الصوفيين ويغلب على شعره

أسلوب عصره، وهو عصر " القاضى الفاضل "(١) . و" العماد الأصبهانى " و " ابن النبيه " و " البهاء زهير " وابن سناء الملك وغيرهم فهو مولع بالصناعة البديعية من جناس، وطباق، ومقابلة، وطى ونشر، ومشاكلة وتورية . ويمتاز أسلوبه بلطف العبارة، والإشارة وحلاوة الجرس، ودقة الوصف، والتشبيه والتمثيل، ومما ميز شعره "الرمزية " التى اعتمد عليها اعتماداً كبيراً فى شعره، مع التعسف فى الصناعة البديعية اللفظية وأوقف جل شعره على الحب الإلهى المملوء باصطلاحات السالكين، وقد كان لعصره وبيئته وأسرته التى ترعرع فى أحضانها أثر واضح فى ثقافته وشعره . ويعد ابن الفارض من أكثر الشعراء الذين عنى النقاد بشعرهم دراسة وتحليلاً(٢) – وهذه قصيدة من شعره وهى بائية من بحر الرمل وقد نظمها الشاعر وهو مقيم فى الحجاز وهى قصيدة مشهورة بين الأدباء والنقاد، واستهل بها ديوانه وتبلغ نحو الخمسين والمائة بيتاً، ويروى أن الملك الكامل الأيوبى كان يحب أهل العلم ويحاضرهم فى مجلس مختص بهم، وكان يميل إلى فن الأدب، فتذكروا يوماً فى الشعر وأصعب القوافى، فقال الكامل من أصعبها " الياء الساكنة " فمن كان منكم يحفظ شيئاً منها فليذكره،

---

(١) ابن الفارض والحب الإلهى لمحمد مصطفى حلمى – التصوف الإسلامى لزكى مبارك ج١ ص٢٩٠ وما بعدها – تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج٣ ص١٧ .

(٢) الديوان، وفيات الأعيان لابن خلكان ج١ ص٤٨٣ والخطط المقريزية وحسن المحاضرة للسيوطى وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلى فى أخبار عام ٦٢٢ هـ بتصرف – وأيضاً أمراء الشعر العربى فى العصر العباسى لأنيس المقدسى ص٣٦٩ : ٤٠٢ .

فتذاكروا فى ذلك فلم يتجاوز أحد منهم عشرة أبيات، فقال الكامل : أنا أحفظ منها خمسين بيتاً قصيدة واحدة وذكرها، فاستحسن الحاضرون ذلك، فقال القاضى : شرف الدين كاتب سر الملك : أنا أحفظ منها مائة وخمسين بيتاً قصيدة واحدة، فقال الكامل : يا شرف الدين : جمعت فى خزائنى أكثر دووابن الشعراء فى الجاهلية والإسلام وأنا أحب هذه القافية، فلم أجد فيها أكثر مما ذكرته لكم . فأنشدنى هذه الأبيات التى ذكرت، فأنشده يائية ابن الفارض، فقال الكامل : يا شرف الدين لمن هذه القصيدة ؟ فلم أسمع بمثلها، فقال : هذه من نظم الشيخ " شرف الدين عمر بن الفارض " فبعث الملك إليه بهدية ثمينة مع كاتب سره، فرفضها ابن الفارض، فذهب الكامل لزيارته حيث كان يعتكف فى قاعة الخطابة بالأزهر الشريف، فخرج الشيخ من الجامع وسافر إلى الإسكندرية أياماً ثم رجع إلى الجامع الأزهر مريضاً فأرسل إليه الكامل يستأذنه أن يبنى له خلوة بقبة الإمام الشافعى فلم يأذن له بذلك[1] . وقد اخترنا من القصيدة هذه الأبيات وهى :

سائق الأظعان يطوى البيد طى — منعماً عرج على كثبان طى

وبذات الشيح عنى إن مررت — بحى من عريب الجزع حى

وتلطف واجر ذكرى عندهم — علهم أن ينظروا عطفاً إلىّ

قل : تركت الصب فيكم شبحاً — ماله مما براه الشوق فىّ

يا أهيل الود أنّى تنكرونى — كهلا بعد عرفانى فتى؟

---

(١) شرح رشيد ابن غالب لديوان ابن الفارض ج١ ص١٠٩، ج١ المطبعة الخيرية بالقاهرة .

نصبـــاً أكسبنى الشـــوق كمـــا تكسب الأفعــال نصـــب لام كى
رجـــع اللاحـــى عليكـــم آيـــا من رشادى وكذاك العشق غـــى
أيعينيـــه عمـــى عنكـــم كمـــا صمـــم عن عزله فـــى أذنـــى ؟
بل أسيئوا فـــى الهوى أو أحسنوا كل شـــىء حســـن منكـــم لـــدى
وروح القلـــب يذكـــر المنحنى وأعده عنـــد سمعـــى يـــا أخـــى
لم يـــرق لـــى منزل بعد القفا لا، ولا مستحســـن مـــن بعد مى
آه وأشواقى لضاحـــى وجههـــا وظمأ قلبـــى إلى ذاك اللمـــى
فبكـــل منـــه والألحـــاظ لـــى سكـــرة ، واطربا من سكرتـــى
لســـت أنســـى بالثنايـــا قولها كل من فى الحـى أسرى فى يدى
سلهمـــو مستخبـــروا أنفسهـــم هل نجت أنفسهـــم من قبضتـــى
ما رأت مثـــلك عينـــى حسنـاً وكمثلى بـــك صبا لـــم تـــرى
نسب أقرب فى شـــرع الهـــوى بيتاً من نســـب مـــن أبـــوى
ساعـــدى بالطيف إن عزت منى قصر عن نيلها فـــى ساعـــدى
كاد لولا أدمعى - أستغفر الله- يخفـى حبكـــم عـــن ملكـــى
أى صبا أى صبا هجـــت لنـــا سحراً : مـــن أيـــن ذياك الشذى
كان لى قلب بجرعـاء الحمـــى ضاع منـى هـــل لـــه رد علىّ
أى عيش مر لـــى فـــى ظلـــه أسفى إذا صار حظـى منـــه أى
ذهـــب العمـــر ضياعاً وانقضى باطـــلاً إن لم أفز منك بشـــىء

الدراسة والتحليل :

١ – السائق هو الذى يمشى خلف المطية يزعجها لتجد فى السير.

الأظعان : جمع ظعينة وهو الهودج سواء أكانت فيه امرأة أو لا .

يطوى : يقطع . – البيد : جمع بيداء وهى الفلاة . – طى : مصدر مؤكد – المنعم : المتفضل – أو هو القاصد وادى نعمان – عرّج : مل أو أقم أو أجس المطية – الكثبان : مفردها كثيب وهو مجتمع الرمل – طى : اسم القبيلة .

المعنى : أيها الحادى للإبل فى الفلوات يطوى البيداء طيّاً مسرعاً لا يتوقف قاصداً (وادى نعمان) تمهل قليلاً ومل بالإبل إلى كثبان طى حيث الأحبة والأصفياء – ويقول شارح الديوان إن السائق كناية عن الله تعالى، وكثبان طى : كناية عن المقامات المحمدية الكثيرة، فكأنه يتضرع إليه أن يوصله لما يوصل جميع المؤمنين إليها .

٢ – ذات الشيح : اسم موضع من ديار بنى يربوع – الحى : البطن من العرب – العريب : تصغير عرب وهم سكان المدن من غير العجم – الجزع : منعطف الوادى أو وسطه وهو قرية عن يمين الطائف – حى : فعل أمر مأخوذ من " حياه تحية " إذا سلم عليه .

المعنى : يقول حى نيابة عنى أحبابى وخلانى إن مررت بذات الشيح حيث هم مستقرون فى هذا المكان مع عرب الجزع . ويقول شارح الديوان إنه كنى بذات الشيح عن مقام الحيرة فى الله، وبالحى عن المشاهد العلا، وأراد بالجزع أنه موضع حط الرحال، حيث تنعطف عليه جميع الآمال .

٣ - تلطف : يعنى ارفق - أجر : اطرح - عطفاً : شفقة .

المعنى : ترفق أيها الحادى مع هؤلاء الأحبـاب، وانتهز الفرصـة المواتية لتذكرنى عندهم، وتشـرح حـالى ومـا ألاقيـه فـى حبهـم، فلعلهـم يشملونى بنظرة عطف، ويغمرونـنـى بـالحنو ومشـاعر المـودة والعطـف علىّ لتخفيف ما أعانيه فى حبهم، وشوقى إلى لقائهم، ونعيمى بمودتهم .

٤ - الصب : المتيم فى العشق : - الشـبح : الشـخص يبـدو ظلـه ولا يرى جسمه - براه : أسقمه وأضناه - الشـوق : العشـق - (فـىّ) أصلها الفىء وهو ما كان شمساً ثـم نسـخه الظـل وهـو الظـل الـذى فـاء ورجع عن الشاخص .

المعنى : قل يا أيها السائق للأحبـاب تركتـم محبكـم سـقيماً هزيـلاً أنحله الضنى حتى أضمحلّ رسمه وأصبح لا يرى ظله .

٥ - أهيل : تصغير أهل - أنـاى : بمعنـى كيـف والاستفهام هنـا بمعنى التعجب - كهلاً : يعنى شيخاً - فتىّ : تصغير فتى وهو الشاب.

المعنى : يا أهل المحبة عجباً لإنكاركم إياى كهلاً بعد معرفتكم لى وأنا شاب فتىّ .

٦ - النصـب : التعب والنصـب بسـكون الصـاد الفتـح وبينهمـا جناس- الشوق : شدة الحب .

المعنى : إن الشوق إلى الأحبة أكسبنى السقام والضنـى مثـل مـا أكسبت " لام كى " النصب للأفعال المضارعة .

٧ - اللاحى : اللائم - والآيس : اسم فاعل من " أيـس " إذا قنـط ولـم يبـق لـه طمـع فـى شـىء - الرشـاد : الاهتداء - الغـى : خـلاف الرشاد.

المعنى : رجع اللائم لى على حبكم قانطاً من هذاى، قاطعاً أمله منه فإن العشق يدفع صاحبه إلى التمادى فى الحب وترك نصح الناصحين .

٨ – أبعينه عمى؟ الاستفهام هنا للتعجب – العمى :عدم البصر – الصم : عدم السمع – العذل : الملامة – والعاذل : اللائم .

المعنى : هل عمى العزال لى فى حبكم عن الجمال الساحر الذى يتمنى حتى أشبه عمى عينيه . صمم أذنى عن لومه وعذله فلا أطيع له لوماً، ولا أسمع له عذلاً .

المعنى :

٩ – يقول للعذال : أسيئوا أو أحسنوا فكل شيء منكم مقبول منى حسن لدى فوصالكم وهجركم وقربكم وبعدكم تقر به عينى، ولا أعده منكم إساءة .

١٠ – روح القلب : أعطه الراحة – القلب : الفؤاد – الذكر : التذكر–المنحنى منعطف الوادى أى موضع انعطافه وانحنائه وهواسم مكان معروف فى بلاد الحجاز–أخىّ : بتشديد الياء: تصغير لكلمة أخ .

المعنى : أذكر أيها الصديق اسم المكان الذى فيه أحبتى ففى ذكره سلوى للقلب، وراحة لوجدانى، وكرر ذكره على سمعى ففى تكراره لذة وشفاء، من العناء والشقاء .

١١ – راق لفلان المكان : أى صفت له معيشته فيه – المنزل : مكان النزول – النقا : القطعة من الرمل – لا : تأكيد للنفى المفهوم من قوله " لم يرق لى " – مستحسن : مأخوذ من استحسنت الشيء أى

عددته حسناً – " مـى " : اسم محبوبـة ذى الرمـة، وكنـى بهـا هنـا عـن محبوبته .

المعنى : فارقت مسكنى وسكنى، فلم ألق بعدهما مـا يغنـى عنهمـا فالوطن محبوب، والحبيب لا تطيب بدونه الحياة .

١٢ – " آه " كلمة تقال عند الشكاية والتوجع والألم – الضـاحى : المشرق – الظمأ إلى الشيء : الشوق إليـه – اللمـى : مصغـر " لمـى " وهو سمرة فى الشفة وهى أمارة جمال عند العرب .

المعنى : ما أشد سقمى وشوقى إلى وجه " مىّ " الجميل المشرق، وما أكثر شوقى إلى ريقها العذب .

١٣ – الألحـاظ : مفردهـا " لحـظ " وهـى العيـون – السـكرة اسـم المرة من السكر – الطرب : الفرح وهو أيضاً الحـزن فهـو مـن أسـماء الأضداد .

المعنى : لى سكراتان، واحدة من الحبيبة وعذب ريقهـا والأخـرى من سحر لحاظها، فوا شدة شوقى من هاتين السكرتين وقريـب مـن هـذا المعنى قول ابن الفارض فى تائيته .

وبالحـدق استغنيت عن قدحى ومن … شمائله لا من شمولـى نشوتـى

١٤– الثنايا: جمع ثنية وهى العقبـة أو الحيـل أو الطريـق فيهمـا. الحى: القوم المجتمعون النازلون فى مكان. أسرى: جمع أسير.

المعنى : لقد سحرتنى حبيبتى بقولها لى فـى هـذا المكـان "إن كـل من فى هذا الحى أسرى حبى وجمالى".

١٥ – أنفس: اسم تفضيل من النفاسة وهى الشيء الثمين والمراد أحسنهم. أنفس جمع نفس، وبينهما جناس، وكنى بالقبصتين عن تمام السلطان والقدرة، والبيت كله من كلام المحبوبة.

المعنى : اسأل أيها الحبيب الحى، واستخبر من أشرافهم وأبرارهم، هل نجوا ونجت قلوبهم من سحرى وسلطانى.

١٦– الصب المتيم حبًا، والمعنى: لم تر عينى إنسانة مثلك حسنًا وجمالاً، ولن ترى مثلى بحبك صبًا مستهامًا.

١٧ – المعنى : إن الحب بيتا نسب وياله من نسب فهو أقرب وأشد صلة من نسب الأبوين، وروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لابن الفارض منامًا: يا عمر أنت منا، أنت منا، فأشار إلى ذلك فى هذا البيت.

١٨– ساعدى : أسعفى من المساعدة وهى الرعاية أو المعاونة. الطيف: خيال الأحباب فى النوم. المنى: جمع منية وهو ما يتمناه الإنسان. القصر ضد الطول. نيلها: إدراكها. ساعدى: مثنى ساعد.

المعنى : إن عز تحقيق آمالى فى لقائك وقربك ومشاهدتك وزيارتك، فزورينى طيفًا فى المنام لاشفى لواعج أحزانى وآلامى، فإن يدى تقتصران عن نيل ما أتمنى، وإدراك ما أريد.

١٩– كاد : قرب – أدمع – جمع دمع. أستغفر الله: جملة اعتراضيه.

المعنى : لولا الدموع التى تتساقط من عينى لكاد أن يخفى حبى لكم عن الملكين الموكلين بكتابة أعمالى، وأستغفر الله مما أقول.

٢٠- الصبا: ريح الشمال، وأى لنداء القريب والصبا الثانية - المحبة هجت: ثرت. الشذى تصغير شذى وهو الرائحة الطيبة.

المعنى : أيها الريح الطيبة لقد هجت لنا أرواحًا عاشقة وذكريات طيبة؛ بشذاك الطيب العطر الذى يحكى لنا شذى المحبوب وعطره.

٢١- جرعاء الحمى : اسم موضع.

المعنى : إن قلبى قد تركته عند أحبابى فى هذا المكان وافتقدته بعد ذلك فلم أجده فهل يعود إلىّ يومًا من الأيام؟.

٢٢- أى: اسم استفهام يقصد منه التهويل والتعظيم ظله: أى ظل هذا المكان المذكور قبله. الأسف: أشد الحزن.

المعنى : ما أطيب العيش وأحلاه قديمًا وأنا مقيم فى هذا المكان وما أعظم أسفى إذ صار حظى من هذا الماضى الجميل أن أتذكره أسفًا حزينًا.

٢٣- المعنى : يتأسف الشاعر على ما فات من عمره ضياعًا ويتحسر على ما انقضى باطلاً، إذ لم يقر من مراده بالمراد فأما إذا فاز منه بحظ ولو كان قليلاً فإنه يكون قد أدرك الخير الكثير والجد العظيم.

هذه القصيدة من "بحر الرمل" وهو بحر غنائى مشهور، ومع أن قافيتها صعبة وهى الياء المشددة الساكنة، ومع ذلك فقد ذللت روح ابن الفارض الغنائية الأصيلة كل أثر لهذه الصعوبة لذلك جاءت القصيدة فى قمة الحسن والإحسان والروعة والبيان والموسيقى الجياشة. والوحدة الموضوعية ظاهرة فى القصيدة حيث إنها جاءت فى موضوع واحد وهو الحب الإلهى، والوحدة الفنية أيضًا واضحة فى القصيدة حيث

جاءت الألفاظ والصور مترابطة مع التجربة ترابطًا وثيقًا، ولذلك عبرت أصدق تعبير عما فى القصيدة من انفعالات وعواطف وأفكار. والقصيدة تمثل تجربة ذاتية للشاعر وهى عاطفة الحب الإلهى كما أن فيها إيقاعات موسيقية عذبة، وتتواكب فيها صور متلاحقة تعد أجزاء مترابطة من التجربة تعبر عن حالة الشاعر الوجدانية، كما أن القصيدة تعد لوحة فنية وقد جاءت متوائمة مع الفكرة ، والصورة الشعرية فى القصيدة جاءت فى أعلى درجاتها من العذوبة، والموسيقى متفاعلة مع التجربة، وتبدوا الصور الشعرية فى أساليبه الرائعة، وفى تصوير الشاعر لمعانيه ولعواطفه ولتجربته تصويرًا دقيقًا مؤثرًا موجبًا ولابن الفارض فى هذا المضمار قدرة بارعة، وتمثل القصيدة الصناعة الفنية لدى ابن الفارض تمثيلاً قويًا حيث حرص الشاعر فيها على الجناس مثل "طى وطى" و "حى وحى" و "تصبًا ونصبًا" و "أنفسهم وأنفسهم" و"صبا وصبا" – كما حرص على الطباق والمقابلة مثل قوله "يطوى وعرج" ففيها مقابلة "ورشاد وغى" و "أسيئوا وأحسنوا" أنى تنكرونى كهلاً بعد عرفانى فتى' كما حرص على التزام مراعاة النظير فى قوله: "واشوقى وظما قلبى" و "عمى وصمم" و "سائق الأظعان ويطى" "كثبان طى" كما ترى لديه التشبيهات البليغة الرائعة كقوله "تركت الصب فيكم شبحا" أى كالشبح. وقوله "تصباً أكسبنى الشوق كما" .. وفى القصيدة كثرة كاثرة من المبالغات المقبولة والمجازات والاستعارات مثل "براه الشوق". "كل من فى الحى أسرى فى يدى" والاستعارة التمثيلية فى قوله "قصر عن نيلها فى ساعدىّ" كما ترى الغزل الرقيق العذب فى قوله: "وتلطف واجر ذكرى عندهم"، "كان لى قلب بجرعاء الحمى" وهذه

الرقة مبعثها الحب الذى أضناه، والوجد الذى تيمه، والغرام الذى أسكره، ولا يوجد بين المتصوفة من يحاكى ابن الفارض فى هذا الميدان، ويقول الدكتور خفاجي، عندما نحكم على القصيدة وفق المذهب الفقهى أو اللغوى أو البلاغى تظلم القصيدة لأننا سننظر إلى اللغة والأسلوب والتشابيه والاستعارات وصور التعبير البيانى والبديعى والمعنوى وحدها ولكننا إذ حكمنا عليها وفق المذهب الفنى فسوف ننصف القصيدة انصافًا كبيرًا ونرفع من منزلتها إلى درجة عالية، لأننا سننظر إلى تجربتها الشعرية وإلى الوحدة فى القصيدة وإلى الفكرة وإلى مادة التجربة من عاطفة أو انفعال وإلى الخيال والصور الشعرية والموسيقى، وسنخرج من كل ذلك بحكم عادل على ابن الفارض فى قصيدته هذه وهو ما فعلناه فى نقدنا لهذه القصيدة التى بدأ بها الأدباء القدامى "ديوان ابن الفارض" وعدها المحدثون من جياد شعره[1].

والرمز فى القصيدة هو نقلها إلى جو نعرف عنه بالذوق ولا نحدده بالصفة، وحول هذا الرمز يدور ابن الفارض فى تصوير الحب الإلهى، وفى القصيدة ظاهرة واضحة وهى كثرة الكلمات التى استعملها الشاعر فى قصيدته مصغرة، والتصغير إذا كان عند المتنبى تعاظمًا وكبرياء وخيلاء، فإنه عند ابن الفارض تواضع وإيناس وبشاشة. وتكثر فى شعر ابن الفارض ألفاظ: الشوق والوجد، والحب والخمر، والأفراح والهم، والسكر والوصل[2]، فبحق كان ابن الفارض إمام العاشقين وسلطانهم، وله قصيدة أخرى فى الحب الإلهى يطلب فيها رؤية الله عز وجل، وأن

---

(١) دراسات فى الأدب الصوفى للدكتور/ خفاجي، ج٢، ص٦٤، ٦٥.

(٢) ذاته بتصرف.

يسمح له بالرؤية ولا يقول له كما قال لموسى عليه (لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني)[1] ثم يعاود نفسه ويخشى ألا تتحقق له الرؤية فيحذر قلبه من اليأس والقنوط فيقول أنت وعدتني في حبهم صبرًا فإياك أن تضجر أو تضيق ذرعًا لعدم تحقق الرؤية واستجابة الرغبة فإن الغرام هو الحياة فحقك أن تموت في سبيل ذلك ولك كل العذر، ثم يخلو مع الحبيب وبينهما سر أرق من النسيم إذا سرى، فينطلق ابن الفارض يعزف على قيثارة الحب الإلهي والغرام الذي أسكره فانطلق مغردًا شاديًا عازفًا أرق الألحان وأجملها فيقول:

زدني بفرط الحب فيك تحيرًا	وارحم حشى بلظى هواك تسعرا
وإذا سألتك أن أراك حقيقة	فاسمح ولا تجعل جوابي لن ترى
يا قلبي أنت وعدتني في حبهم	صبرا فحاذر أن تضيق وتضجرا
إن الغرام هو الحياة فمت به	صبا فحقك أن تموت وتعذرا
ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا	سر أرق من النسيم إذا سرى
وأباح طرفي نظرة أملتها	فغدوت معروفاً وكنت منكراً
فدهشت بين جماله وجلاله	وغدا لسان الحال عني مخبرا
فأدر لحاظك في محاسن وجهه	تلقى جميع الحسن فيه مصورًا
لو أن كل الحسن يكمل صورة	ورآه كان مهللا ومكبرا[2]

---

(١) الأعراف، آية رقم ١٤٣.

(٢) ديوان ابن الفارض، ص

رابعة العدوية

هى المتصوفة الزاهدة (رابعة بنت إسماعيل العدوية) وتكنى بأم الخير، مولاة آل عتيك، البصرية. كانت امرأة صوفية صالحة مشهورة وهى من أهل البصرة ومولدها بها وتوفيت بالقدس[١]، يقول ابن خلكان (وقبرها يزار، وهو بظاهر القدس من شرقية على رأس جبل يسمى الطور) وقال كانت وفاتها ١٣٥هـ والذى يوافق ٧٥٢ من الميلاد. كما فى شذور العقود لابن الجوزى. وقال غيره كانت وفاتها سنة ١٨٥هـ[٢] وفى مجلة "لغة العرب" أن للسيدة "مرغريت سميث" الإنجليزية كتاباً عن "رابعة العدوية" رجحت فيه وفاتها سنة ١٨٥هـ وقالت: إنها عاشت وتوفيت ودفنت بالبصرة[٣]. ويقول الدكتور خفاجى: هى رابعة العدوية القيسية المضرية كانت زاهدة عابدة، عاشت فى البصرة، وخطبها "محمد بن سليمان الهاشمى" وكانت غلة ملكه كل يوم "ثمانين ألف درهم" ووعدها بكل ماله فكتبت إليه "أما بعد فإن الزهد فى الدنيا راحة البدن، والرغبة فيها تورث الهم والحزن، فَصم الدهر، واجعل فطرك الموت، وأما أنا فلو خولنى الله أمثال ما خولك وأضعافه ما سرنى أن أشتغل عن ذكر الله تعالى طرفة عين، والسلام". وكانت لها همة عالية، ومجاهدات عظيمة[٤]. وكانت "رابعة العدوية" هى أول من دعا إلى حب الله لذاته، لا لرغبة فى الجنة، ولا لخوف من النار، ومن جيد شعرها:

---

(١) الأعلام لخير الدين الزركلى، ج٣، ص١٠.

(٢) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، ج١، ص١٨٢.

(٣) الأعلام، ج٣، ص١٠ هامش رقم (٢) أسفل الصفحة رقم ١٠.

(٤) دراسات فى التصوف الإسلامى، ج٢، ص٧٢، هامش رقم (٣).

كلهـــم يعبدون من خوف نارٍ ويرون النجاة حظًا جزيـــلاً

أو بأن يسكنوا الجنان فيحظـوا بقصـــور ويشربــوا سلسبيلا

ليس لى فى الجنان والنار حظ أنا لا أبتغـــى بحبـــى بديلا

وهى القائلة أيضًا فى الحب الإلهى وهو ديدن الصوفية جميعًا:

أحبـك حبيـــن حب الهـــوى وحب لأنك أهـــل لذاكـــا

فأما الذى هـــــو حب الهوى فحب شغلت به عـــن سواكا

وأما الذى أنت أهل لـــــــــه فكشفك للحُجب حتى أراكـــا

فلا الحمد فـــــى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا(١)

وتقول رابعة:

إنـــى جعلتـــــك فى الفؤاد محدثى وأبحت جسمى من أراد جلوسى

فالجسم مَن للجليـــس مؤانــــــسٌ وحبيبِلإ قلبى فى الفؤادِ أنيسى(٢)

---

(١) ذاته ص٧٢، والإحياء للغزالى، ج٥، ص١٠٩.

(٢) ذاته.



النثر الأدبى لدى الصوفية



النثر الصوفى باب غزير، وبحر متلاطم الأمواج، حافل بالمعانى الجليلة، والألفاظ الرائقة، والعبارات الرائعة التى تدل على صفاء النفس، وسمو الروح،و الحب الإلهى الذى شغلهم عن الدنيا وزبرجها الكاذب، وزخرفها الخداع ، لذا جاء نثرهم الأدبى مترع بالحكمة، ومنعهم بالألفاظ المنتقاه التى وردت على ألسنتهم عفو الخاطر كثمرة من ثمار الوجد والحب الإلهى وتعلقهم بالآخرة، وعزوفهم عن اللهو وحرمانهم لأنفسهم متع الحياة ولذائذها، وانصرافهم بكليتهم إلى الآخرة والاستعداد لهذا اليوم بالسهر والتجافى عن المضاجع يدعون ربهم خوفًا وطمعًا، خوفًا من عذابه، وطمعًا فى رحمته. وهذا النثر الأدبى الصوفى جاء أيضًا خلاصة عقول مؤمنة، وقلوب متصوفة، وأنفس زاهدة. ولذلك كان للأدب الصوفى عامة ميزات مازته عن الأدب العربى الذى اتسم بسمات تميزه عن غيره فى كل الأعصر مع الاختلاف بين أعصر الأدب العربى فى الإيجاز والإطناب، والميل إلى الصنعة البديعية أو الإعراض عنها، إلى غير ذلك من الخصائص المعروفة للأدب العربى أما الأدب الصوفى فله ميزاته الخاصة به والتى تميزه عما سواه من الآداب، والعصور التى يمثلها الأدب الصوفى عصور طويلة، حيث إنه يبدأ من القرن الثانى الهجرى إلى يومنا هذا وعصرنا الذى نعيش فيه. ولا ريب فى أن الأدب الصوفى أدب يعبر عن الإسلام ويقبس منه كل معانيه، أما ما نلمحه فى الأدب الصوفى من معانٍ فلسفية، وحكم غير عربية ومن تأثره بالثقافات الأخرى أحيانًا، فإنما يرجع ذلك إلى ثقافات الصوفيين أنفسهم، فهم العلماء القارئون المثقفون الذين يطلعون على ثقافات غيرهم من الدول والأمم وليس لذلك من أثر واضح فى أدبهم

غير اتساع المعانى ورحابة الفكر. ولكن الصوفيين لهم أدبهم وألفاظهم وأذواقهم ومواجيدهم التى تخصهم وحدهم دون غيرهم فمثلاً (ذو النون المصرى) وهو أحد المتصوفة الذين يمتازون بأدبهم الراقى، وألفاظهم الجزلة، وحكمهم ونثرهم الأدبى الرفيع ومع ذلك كان صاحب ثقافة مميزة ومعرفة بالفلسفة اليونانية، وبخاصة الأفلاطونية الحديثة(١). وكان الشاعر (أبو العتاهية) يدعى العلم بفلسفة اليونان(٢)، وكان الحسين بن منصور الحلاج لديه معرفة بالطب والكيمياء(٣)، كما كان ذا معرفة واسعة بالديانة المسيحية واليهودية(٤)، وكان الجيلانى(٥) يستعين بالفلسفة اليونانية بين الحين والحين فى كتابه المعروف (الإسنان الكامل) كما كان يفعل محى الدين بن عربى حيث كان يقبس من الفلسفة اليونانية(٦)، فالصوفى (عبد الكريم الجيلانى) يدور كتابه حول ما يجب أن يعرف المريد من ألوان الثقافة الصوفية وهو يستعين فيه بالفلسفة اليونانية من حين إلى حين كما كان يفعل محى الدين بن عربى(٧)، ويقول السهروردى: ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾(٨) جعل متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم آية محبة العبد لربه، وجعل جزاء

---

(١) التصوف فى الشعر العربى تأليف عبد الحكيم حسان، ص٣٣٠ بتصرف.

(٢) الأغانى للأصفهانى، ج٤، ص٢٩.

(٣) شذرات الذهب فى خبر من ذهب لابن العماد الحنبلى، ج٢، ص٢٥٥.

(٤) التصوف الشعر العربى لعبد الحكيم حسان، ص٣٤٩، بتصرف.

(٥) التصوف الإسلامى، ج٢، ص٢٢٠.

(٦) الأدبى الصوفى للأستاذ الدكتور/ محمود فرج العقدة، ص١٦.

(٧) التصوف الإسلامى، للدكتور/ زكى مبارك، ج١، ص٢٢٠.

(٨) سورة آل عمران آية ٣١ .

العبد على حسن متابعة الرسول محبة الله إياه، فأوفر الناس حظًا من متابعة الرسول أوفرهم حظًا من محبة الله تعالى. والصوفية من بين طوائف الإسلام ظفروا بحسن المتابعة، لأنهم اتبعوا أقواله فقاموا بما أمرهم، ووقفوا عما نهاهم قال الله تعالى: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)[1] ثم اتبعوه فى أعمالهم من الجد والاجتهاد فى العبادة، والتهجد، والنوافل من الصوم والصلاة وغير ذلك ورزقوا ببركة المتابعة فى الأقوال والأفعال التخلق بأخلاقه من الحياء، والحلم، والصفح، والعفو، والرأفة والشفقة، والمداراة، والنصيحة، والتواضع، ورزقوا قسطًا من أحواله من الخشية والسكينة، والهيبة والتعظيم والرضا والصبر والزهد والتوكل، فاستوفوا جميع أقسام المتابعة وأحيوا سنته بأقصى الغايات[2] ومن أشرف ما ظفر به الصوفى من متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الوصف وهو: (دوام الافتقار ودوام الالتجاء)[3].

ويقول السهروردى فى عوارف المعارف: (بعد عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين مالت خلافة النبوة إلى أن تكون دولة سياسية وملكًا عضودًا، وانقسم أهل ذلك العصر عدة أقسام: قسم باشر هذه الفتن وزج بنفسه فيها طلبًا للخلافة وولاية الحكم، وقسم جاريهم ورأى نفسه أحق بها منهم، وقسم محايد رأى أن من شرائط

---

(١) سورة الحشر، الآية رقم ٧.

(٢) عوارف المعارف للسهروردى تحقيق الإمام الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف، ج١، ص١٣٣، ط. دار المعارف.

(٣) ذاته، ص١٣٤.

الإسلام ألا يزج بنفسه فى هذه الفتن وأن يحايدها حتى تنجلى، مثل ابن عمر، وأبى ذر، وعكاشة، ومنهم أيضًا من زج بنفسه فى غمارها وهم الشيعة وقد أسموا أنفسهم بالعلويين تعصبًا لعلى، وعنهم تفرعت الطائفة الإسماعيلية وهى من أخص الشيعة تطرفًا، وقد أسموا أنفسهم باطنية، وبذا حصل اللبس، وأدمجهم من لا يعلم ماهية التصوف فى زمر الصوفية[1].

وكان ممن يعدون من المتصوفة فى عصر بنى أمية وما بعده (الزهاد والعباد، والنساك، من أمثال عمر بن عبد العزيز وغيره من أئمة الفقه والشريعة الإسلامية مثل (الإمام مالك بن أنس والإمام أحمد ابن حنبل والإمام الشافعى والإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت، وابن سيرين وبشر بن الحارث الحافى) ولأولئك أحوال عظيمة وأقوال فى التصوف الإسلامى تنسب إليهم. وللمتصوفة كثرة كاثرة من الأدب الرفيع فى الأدعية والأذكار والأوراد والمناجاة الإلهية وكتبهم تعج بهذه الألوان السامية ونسجل هنا أمثلة ونماذج لكل ما أومأنا إليه آنفًا.

أولاً: المناجاة:

النجوى والنجى "الستر" والنجو السر بين اثنين يقال نجوته نجوًا وناجيته مناجاة أى ساررته، والاسم النجوى قال الشاعر:

فبت أنجوا بها نفسًا تكلفنى ما لا يهم به الجثامة الورع

وفى التنزيل: ﴿ وإذ هم نجوى ﴾[2] فجعلهم هم النجوى، وإنما النجوى فعلهم، قال الفراء وقد يكون النجى والنجوى اسمًا ومصدرًا

---

(١) عوارف المعارف للسهروردى.

(٢) سورة الإسراء الآية ٤٧ .

وفى حديث الدعاء (اللهم بمحمد نبيك وبموسى نجيك) هو المناجى المخاطب للإنسان والمحدث له، وقد تناجيا مناجاة وانتجاءً. وفى الحديث (لا يتناجى اثنان دون الثالث) وفى رواية أخرى (لا ينتجى اثنان دون صاحبهما) أى لا يتسارران منفردين عنه لأن ذلك يسوءه، وفى حديث على كرم الله وجهه دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الطائف فأنتجاه فقال الناس (لقد طال نجواه! فقال: ما انتجيته ولكن الله إنتجاه! أى أمرنى أن أناجيه، وفى حديث ابن عمر رضى الله عنهما (قيل له ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النجوى؟ يريد مناجاة الله تعالى للعبد يوم القيامة، وفى حديث الشعبى (إذا عظمت الحلقة فهى بذاء ونجاء) أى مناجاة، يعنى يكثر فيها ذلك والنجوى اسم للمصدر، وقوله تعالى (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم)[1] يكون على الصفة والإضافة وناجى الرجل مناجاة ونجاءً (سارّه) وانتجى القوم وتناجوا (تسارّوا) وانشد ابن برى:

قالت جوارى الحي لما جينا

وهنّ يلعبن وينتجينا

ما لمطايا القوم قد وجينا؟

وفى التنزيل ﴿ فلما استيئسوا منه خلصوا نجيًا ﴾[2] أى اعتزلوا متناجين وانتجاه إذا اختصه بمناجاته، وناجية اسم وبنو ناجية قبيلة[3]،

---

(١) سورة المجادلة الآية ٧ .

(٢) سورة يوسف الآية ٨٠ .

(٣) لسان العرب لابن منظور مادة (نجا) المجلد السادس، ط. دار المعارف بالقاهرة، ص٤٣٥٩ وما بعدها.

وأدب المناجاة هو الحديث إلى الله عز وجل والتضرع والابتهال إليه وغالبًا ما يكون ذلك فى الليل حينما يتبتل العبد ويتهجد لربه سبحانه وتعالى. بعيدًا عن ضوضاء الناس وعجيج الكون، وعدم وجود أحد معه لذلك سمى مناجاة. وذلك الأدب الرفيع هو الذى أنشأه المتصوفة فى مناجاتهم لله عز وجل والتحدث إليه مستغرقين بكليتهم فى خطابه سبحانه فهو أدب راقٍ بليغ ولون بديع من ألوان النثر الأدبى الغنى يخص الصوفية وحدهم، ومن صور المناجاة، مناجاة لذى النون المصرى، وقد ورد فيها (إلهى ما أصغيت إلى صوت حيوان، ولا حفيف شجر، ولا خرير ماء، ولا ترنم طير، ولا تنعم ظل، ولا دوى ريح، ولا قعقعة رعد إلا وجدتها شاهدة بوحدانيتك، دالة على أن ليس كمثلك شيء، وأنك غالب لا تغلب، وعالم لا تجهل، وحليم لا تسفّه، وعدل لا تجور، وصادق لا تكذب إلهى فإنى أعترف بما دل عليه صنعك، وأشهد لك بما دل عليه صنعك، وأشهد لك بما دلّ عليه فعلك، فهب لى طلب رضاك برضاى. إلهى من لم ينسه جميع الهموم رضاه عنك، ولم يلهه عن جميع الملاهى تعداد آلائك، ولم يقطعه عن الأنس بغيرك مكانه منك، كانت حياته ميتة، وميتته حسرة، وسروره غصة، وأنسه وحشة، إلهى عرفنى عيوب نفسى، وافضحها عندى لأتضرع إليك، وابتهل بين يديك خاضعًا ذليلاً فى أن تغسلنى منها، واجعلنى من عبادك الذين شهدت أبدانهم، وغابت قلوبهم، تجول فى ملكوتك، وتتفكر فى عجائب صنعك، لترجع بفوائد معرفتك وعوائد إحسانك، قد ألبستهم خلع محبتك، وخلعت عنهم لباس التزين لغيرك. إلهى لا تترك بينى وبين أقصى مرادك حجابًا إلا فتكته، ولا حاجزًا إلا رفعته، ولا وعرًا

إلا سهلته، ولا باباً إلا فتحته، حتى تقيم قلبى بين حفياء معرفتك وتذيقنى طعم محبتك وتبرد بالرضا منك فؤادى. وجمع أحوالى حتى لا أختار غير ما تختاره، وتجعل لى مقامًا بين مقامات أهل ولايتك ومضطربًا فسيحًا فى ميدان طاعتك. إلهى كيف أسترزق من لا يرزقنى إلا من فضلك، أم كيف أسخطك فى رضى من لا يقدر على ضرى إلا بتمكينك؟ فيا من أسأله إيناسًا به وإيحاشًا من خلقه، ويا من إليه التجائى فى شدتى ورجائى، ارحم غربتى وهب لى من المعرفة ما أزداد به يقينًا، ولا تكلنى إلى نفسى الأمارة بالسوء طرفة عين).

ومن ألحان معروف الكرخى فى تمجيد رب العزة:

(سيدى: بك تقرب المتقربون فى الخلوات، ولعظمتك سبحت الحيتان فى البحار الزاخرات، ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات. أنت الذى سجد لك سواد الليل، وضوء النهار، والفلك الدوار، والبحر الزخار، والقمر النوار، والنجم الزهار، وكل شىء عندك بمقدار، لأنك العلى القهار).

وهذه مناجاة لابن عطاء الله السكندرى (٦٥٨ – ٧٠٩) وقد جاء فيها:

(إلهى أنا الفقير فى غناى فكيف لا أكون فقيرًا فى فقرى. إلهى أنا الجاهل فى علمى فكيف لا أكون جهولاً فى جهلى؟ إلهى منى ما يليق بلؤمى ومنك ما يليق بكرمك، إلهى وصفت نفسك باللطف والرأفة بى قبل وجود ضعفى، أفتمنعنى منها بعد وجود ضعفى؟ إلهى ما ألطفك بى مع عظيم جهلى، وما أرحمك بى مع قبيح فعلى. إلهى ما أقربك منى وما أبعدنى عنك، إلهى حكمك النافذ ومشيئتك القاهرة، لم يتركا لذى

مقال مقالاً ولا لذى حال حالا. إلهى أخرجنى من ذل نفسى، وطهرنى من شكى وشركى، قبل حلول رمسى، بل أستنصر فانصرنى، وعليك أتوكل فلا تكلنى، وإياك أسأل فلا تخيبنى، وفى فضلك أرغب فلا تحرمنى، ولجنابك أنتسب فلا تبعدنى، وببابك أقف فلا تطردنى، إلهى إن القضاء والقدر غلبنى، وإن الهوى بوثائق الشهوة أسرنى، فكن أنت النصير لى تنصرنى، وتنصر بى، واغننى بفضلك حتى استغنى بك عن طلبى، أنت الذى أشرقت الأنوار فى قلوب أوليائك وأنت الذى أزلت الأغيار من قلوب أحبائك، أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم، وأنت الذى هديتهم حتى استبانت لهم المعالم، ماذا وجد من فقدك، وما الذى فقد من وجدك. لقد خاب من رضى دونك بدلاً ولقد خسر من بغى عنك متحولا) .

وقد ابتكر ابن عطاء الله أيضًا مناجاة من الله لعبده على لسان هواتف الحقائق، ومنها ما قاله ابن عطاء فى هذه المناجاة الإلهية[1]:

(أيها العبد ألق سمعك وأنت شهيد بأنك منى المزيد، وأصغ بسمعك فأنا لست عنك ببعيد، كنت بتدبيرى لك قبل أن تكون لنفسك، فكن لنفسك بأن لا تكون لها، وتوليت رعايتها قبل ظهورك، وأنا الآن على الرعاية لها. أنا المتفرد بالخلق والتصوير وأنا المتفرد بالحكم والتدبير، لم تشاركنى فى خلقى وتصويرى فلا تشاركنى فى حكمتى وحكمى وتدبيرى، أنا المدبر لملكى وليس لى فيه ظهير، وأنا المنفرد بحكمى فلا أحتاج إلى وزير، أيها العبد من كان لك بتدبيره قبل الإيجاد فلا تشاركه فى المراد، ومن عودك حسن النظر منه إليك فلا تقابله

(١) تاج العروس لابن عطاء الله السكندرى، ص٥٧.

بالعناد، عودتك حسن النظهر منى لك فعورتى إسقاط التدبير منك معي.. أشكا بعد وجود التجربة وحيرة بعد وجود البيان وضلالاً بعد وضوح الهدى، وقد سلمت لى قيامى بمملتى وأنت من مملكتى فلا تنازع ربوبيتى ولا تضاد بتدبيرك مع وجود ألوهيتى. متى أحوجتك إليك حتى تختال عليك، متى وكلت شيئًا من مملكتى لغيرى حتى أكل ذلك إليك، متى خاب من كنت له مدبرًا ومتى خذل من كنت له ناصرًا أيها العبد: يكفيك من الجهل أن تسكن لما فى يدك ولا تسكن لما فى يدي، أنا أختار لك أن تختارنى أفتختار علي، يا مهمومًا بنفسه لو ألقيتها إلينا لاسترحت، ويحك اعباء التدبير لا يحملها إلا الربوبية وليس يقوى عليها ضعيف البشرية ويحك أنت محمول فلا تك حاملاً أردنا راحتك فلا تكن لنفسك متعبًا. أيها العبد: أمرتك بخدمتى، وضمنت لك نعمتى فأهملت ما أمرت وشككت فيما ضمنت ولم أكتف بقسمتى لك، بالضمان أقسمت ولم أكتف بالقسم حتى مثلت فخاطبت عباداً يفهمون فقلت ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾[1] وقد رزقت من غفل عنى وعصانى فكيف لا أرزق من أطاعنى ودعانى. ويحك الغارس للشجرة ساقيها، والممد للخليقة هو باريها منى كان الإيجاد وعلى دوام الإمداد منى كان الخلق، وعلى دوام الرزق، ألدخلك دارى وأمنعك وجود عونى؟ ألخرجك إلى وجودى وأمنعك جودى؟ لك هيأت فتنى وفيك ظهرت رحمتى وما قنعت بالدنيا حتى ادخرت لك جنتى وما اكتفيت لك بذلك حتى أتحفتك برؤيتى، فإذا كانت هذه أفعالى فكيف تشك فى أفضالى فاخترنى ولا تختر على

---

(١) سورة الذاريات الآية ٢٢ ، ٢٣ .

ووجه قلبك بالصدق إلى فإن فعلت أريتك غرائب لطفى وبدائع وجودى وأمتع سرك بشهودى).

ومناجاة لجلال الدين الرومى:

(يا من هو عزاء النفس فى ساعة الغم والحزن، يا من فيه غناء الروح عند مرارة الفقر والعوز، يا من نحوه أولى وجهى فى حياتى ووجودى، يا من هو أنسى وفرحتى وسرورى. لو أنى وهبت ملكى لا يبلى، أو أن كنزًا خفيًا فتح لى يحوى كل ما فى الوجود، لسجدت لك روحى، ووضعت وجهى فى الثرى، وصحت قائلاً: ليس لى مراد غير حبك، كل شيء يزول ويفنى ويذهب إلى العدم، ويبقى نور الحب خالدًا سرمديًا).

هذه ألوان وصور لمناجاة المتصوفة وهى ألوان كلها تغص بالبلاغة، وتفيض بالخشوع، ويعلوها الطهر والشفافية، والروحانية التى تشذب النفس، وتهذب الروح، وذلك ديدن الصوفية، وهجّيراهم فى الخشوع والتبتل إلى الله ومناجاته.

مكاتبات الصوفية والصدور والدعوات والرسائل



أولاً : المكاتبات:

لقد كان للصوفية مكاتبات وصدور ودعوات ورسائل يعتد بها فى مضمار الأدب من حيث جزالة اللفظ، ومتانة النسج، وانتقاء العبارة وقوة الأسلوب، وجودته، ورحابة الخيال مع الصفاء النفسى الذى تشف عنه هذه المكاتبات وتلك الدعوات، والصدور والمراسلات فضلاً عن الروحانية التى تغمرهم جميعًا، بل ويعيشون فيها وبها، مع الوجد والحب الإلهى الذى ملك عليهم أقطار نفوسهم، وتبّل شغاف قلوبهم. فترى هذه الملامح، وتلك السمات بارزة جلية فى أدبهم وبخاصة الدعوة إلى الله سبحانه مع الإرشاد والتوجيه لغيرهم، وانتشالهم من طرق الغواية والانحراف والفساد إلى طرائق الهداية والاستقامة والهدى والرشاد. وترى ذلك واضحًا فى أدبهم الذى يتمثل فى الشعر والنثر من مكاتبات وصدور ودعوات ورسائل ومكاتباتهم، ومراسلاتهم أكثر من أن يتهيأ جمعها فى الأجزاء الكثيرة وإنما نذكر هنا طرفًا منها – على سبيل المثال لا الحصر – فقد كتب عمرو بن عثمان المكى رحمه الله كتاباً إلى بغداد، إلى جماعة للصوفية بها، فجاء فى كتابه (وإنكم لن تصلوا إلى حقيقة الحق، حتى تجاوزوا تلك الطرقات المنطمسة، وتسلكوا تلك المفاوز المهلكة. فحضر عند قراءته « الجنيد » ، الشبلى، وأبو محمد الجريرى رحمهم الله) فقال الجنيد رحمه الله، (ليت شعرى من الداخل فيها؟ وقال الجريرى: ليت شعرى من الخارج منها؟ وقال الشبلى: يا ليتنى لم يكن لى منها مشامُّ الريح[1].

---

(١) اللمع لأبى نصر السراج الطوسى تحقيق د. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقى سرور، سنة ١٣٨٠هـ، ١٩٦٠م، ص٣٠٥.

وتلك مكاتبة أخرى وهى (سمعت جعفر الخلدى رحمه الله يقول: سمعت الجنيد رحمه الله يقول: دفع إلىّ (سرىّ السقطى) رقعة وقال: هذا مكان قضائك لحاجتى. ففتحت الرقعة فإذا فيها مكتوب سمعت حاديًا فى البادية يحدوا ويقول:

أبكى وهل تدرين ما يبكينى

أبكى حذارًا أن تفارقينى

وتقطعى وصلى وتهجرينى[1]

وكتب شيخ من الأجلة إلى بعض المشايخ: (وجدى بك حمانى عن الإشارة إليك، وما بدا من قربك غيب عنى مؤنة الذكر لك فحقيقتك ظاهرة، وأعلامك زاهرة، وسطوتك قاهرة، ظهرت سطوتك فحسنت معرفتى عند ظهورها وزهل عقلى عند ورودها، وقصر علمى عند شرح بيان ظهورها. وقصرت عبارتى عند استيلاء حقيقتك. والسلام[2].

وكتب بعض المشايخ كتابًا فكان فيه هذا الفصل (تفكرى فى مرارة البين[3] يمنعنى من التمتع بحلاوة الوصل، وتكبره عينى أن يقرّ بقربك، مخافة أن تسخن ببعدك، فعلى عند الاجتماع كبد ترجف وعند التنائى[4] مقلة تكف[5] ، وأقول كما قال الشاعر:

وما فى الدهر أشقى من محب ... وإن وجد الهوى حلو المذاق

(١) ذاته، ص٣٠٧.

(٢) ذاته، ص ٣٠٨.

(٣) البين – الفراق .

(٤) التنائى – البعد .

(٥) تكف تمتنع .

تراه باكيًا فـــى كـــل حيـــنِ　　مخافة فرقـــة أو الاشتيـــاقِ
فيبك إن نـــأوا شوقـــًا إليهم　　ويبكى إن دنـــوا خوف الفراقِ
فتسخن عينـه عنـــد التنائـــى　　وتسخن عينـــه عنـــد التلاقى[1]

وفيما حكى عن ابن مسروق عن سرى السقطى رحمه الله أنه قال: (كتب لى بعض إخوانى، فكتبت إليه يا أخى أوصيك بتقوى الله الذى يسعد بطاعته من أطاعه، وينتقم بمعصيته ممن عصاه، فلا تدعونك طاعته إلى الأمن من عذابه، ولا تدعونك معصيته إلى اليأس من رحمته جعلنا الله وإياكم حذرين من غير قنوط، وله راجين من غير اغترار)[2].

ثانيًا: فى صدور الكتب والرسائل:

وهذه صدور لكتبهم ورسائلهم ترى فيها الإشارات اللطيفة والرموز الخفية التى تعبر عن الحقائق المشكلة، وتنبؤ عن السرائر والخصوصية التى تتفرد بها جماعة المتصوفة فى تجريد التوحيد، وحقيقة التفريد، فإن فى ذلك لأهل الفهم فوائد كما أن فيها من المعانى والإشارات ما يدل على مراتب القوم ولطائف إشاراتهم، وطهارة أسرارهم وخصوصيتهم بالفهم، والعلم، والعقل، والأدب لأن من عادة أهل المعرفة والأدب أن يعرفوا أشكالهم بمخاطباتهم، وأشعارهم، ومكاتباتهم وذلك إذا لم يتمكنوا من مجالسة هؤلاء الإخوان والأصدقاء والأحباب ومخالطتهم فبذلك يدفعهم الشوق والمحبة إلى مراسلة ومكاتبة

(١) ذاته، ص٣٠٩.
(٢) ذاته، ص٣١٠.

إخوانهم، وبث لواج أشواقهم إليهم، فهذا صدر للجنيد رحمه الله: أكرمك بطاعته، وخصك بولايته، وجللك بستره، ووفقك لسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وأطلعك على فهم كتابه، وأنطقك بالحكمة، وآنسك بالقرب، وخصك بالفوائد، ومنحك الزيادات، وألزمك بابه، وكلفك خدمته، حتى تكون له موافقًا، ولكأس محبته ذائقًا، فيتصل العيش بالعيش والحياة بالحياة، والروح بالروح، فتتم النعمة، وتسلم من المعتبة، فتصح العافية، وتكمل السلامة(١).

وصدر آخر للدقي: أكرمك الله وأعلاك، وقرّبك بعطائه وأدناك، وقسم لك من نواله وأرضاك، وأعاذك من بلائه وشفاك، وتولاك فيما ألزمك وكفاك، إنه وليٌّ قدير، ذو رأفة لمن التجأ إليه، ومهيمن على من استند إليه، نعوذ بالله لنا ولك من كل بلية، ونستعيذه ونستغفره من كل خطيئة(٢).

وصدر آخر: تودّد الله إليك بعطفه، ولا أخلاك من نائله ولطفه وأعاذك من بلائه وعنفه، ولا حجبك بفعلك عن ذكره، ولا سترك بعملك عن شكره إنه ولى قدير(٣).

ثالثًا: الدعاء:

بدهى أن الدعاء فى الإسلام مفتاح لأحوال نفسية جديدة تتغير بها حياة الرجل ثم تستقيم بعدها خطاه وتلاحقه عناية الله سبحانه وتعالى، يقول أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه: دخل رسول الله صلى الله

(١) ذاته، ص٣١٣.

(٢) ذاته، ص٣١٦.

(٣) ذاته، ص٣١٧.

عليه وسلم المسجد ذات يوم فإذا هو برجل من الأنصار يقال له (أبو أمامة) فقال: يا أبا أمامة مالى أراك جالسًا فى المسجد فى غير وقت صلاة؟ فقال: هموم لزمتنى وديون يا رسول الله قال: أفلا أعلمك كلامًا إذا قلته أذهب الله همك، وقضى عنك دينك قلت بلى يا رسول الله، قال قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال. قال: ففعلت ذلك فأذهب الله همى وقضى عنى دينى[1]، فاستطاع الرسول عليه السلام بهذا الدعاء أن يرده إلى حقل الإيمان وعالجه مما يعانى وذلك بدعاء يفتتح به يومه ويختم به أعماله اليومية حتى يعمل ويمشى وينام وهو على صلة بربه عز وجل، وعن شداد بن أوس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا أن نقول (اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر، وأسألك عزيمة الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك، وأسألك لسانًا صادقًا وقلبًا سليمًا، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأسألك من خير ما تعلم وأستغفرك مما تعلم إنك أنت علام الغيوب). وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قلّما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم حتى يدعوا بهؤلاء الدعوات لأصحابه (اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به خشيتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا)[2].

---

(١) رواه الترمذى.

(٢) رواه الترمذى.

إن هذه الأدعية أشبه ما تكون بالأناشيد الحماسية التى تثير عواطف الركب السائر فهى ليست جؤار القاعدين ولا أمانى الهامدين، بل هى أمداد دافقة من الحق والضياء واليقين يتغلب بها البشر على مشكلات العيش ومضايق الأيام، ثم هى تحديد للمعانى التي يصح التمسك بها والتغلب فى جوها وهى معانٍ قوامها عقد العزم على العمل فى ظل الإيمان والعافية والعدالة. وبهذا المنهج يطيب المرء روحًا وبدنًا ويكمل ديناً ودنيا، وبعض الناس يتصور أن الدعاء موقف سلبى من الحياة فهو من وجهة نظرهم عرض حاجات وانتظار إجابة. ويوم يكون الدعاء كذلك لا يعدو ترويد أماني وارتقاب فرج من الغد المجهول فإن الدعاء يكون لغوًا ولاوزن له عند الله[1]. إن الدعاء أولاً تحديد وجهة، ورسم مثل أعلى، فسيدنا إبراهيم عليه السلام حينما دعا قائلاً (رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء)[2]. كان بهذا الدعاء يجعل إقامة الصلاة منهجًا للحياة ومشغلة إنسان. وكذلك عباد الرحمن حينما قالوا (ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إمامًا)[3] فإنهم بهذا الدعاء، وذلك النداء ينشدون فى المجتمع البشرى الأسرة المستقرة، والبيت السعيد بلغة العصر الحديث وإذا تحدثنا عن (أدب الدعاء) لدى الصوفية فنستطيع القول بأن أدب الدعاء لدى الصوفية أدب جم غزير، ورائع وفير.

---

(١) جدّد حياتك للعالم الجليل والمفكر الإسلامى الكبير الشيخ محمد الغزالى يرحمه الله. ط. دار القلم، دمشق، سورياصة.

(٢) سورة إبراهيم، الآية رقم ٤٠.

(٣) الفرقان، آية رقم ٧٤.

ومن هذه الأدعية أيضًا ما أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم وعن الصوفيين أيضًا، فمن أدعية رسول الله عليه السلام: (اللهم اجعل فى قلبى نورًا، وفى بصرى نورًا، وفى سمعى نورًا، وفى لسانى نورًا، اللهم اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى)[1].

ومن أدعيته أيضًا صلى الله عليه وسلم: (اللهم أنت ربى، لا إله إلا أنت، خلقتنى وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، اغفر فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)[2]. ومن ألوان الأدعية ما يتبدأ بالاستعاذة يعنى أنها تُبدأ بكلمة (أعوذ) ومن هذا اللون استعاذة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهى (اللهم إنى أعوذ بك من البخل[3] وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر، اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ودعاء لا يسمع، ونفس لا تشبع، وأعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع، ومن الخيانة فإنها بئست البطانة، ومن الكسل والبخل والجبن، ومن الهرم).

ومن الأدعية أيضًا ما يبتدأ بلفظة (استغفر الله) و (سبحان الله) وطلب الغوث من الله عز وجل، ومن الأدعية الشهيرة دعاء زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم وهو: (اللهم لك قلبى ولسانى، وبك نجاتى وأمانى، وأنت العالم بسرى وإعلانى، فأمت قلبى عن البغضاء، وأصمت لسانى عن الفحشاء، وأخلص

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالى، ج١، ص٢٦٥.

(٢) البخارى، ج٤، ص٦٧.

(٣) الإحياء، ج١، ص٣٢٩.

سريرتى وعلانيتى من علائق الأهواء، واكفنى بأمانك عواقب الضراء، واجعل سرى معقودًا على مراقبتك، وإعلانى موافقاً لطاعتك وهب لى جسمًا روحانيًا، وقلبًا سماويًا، وهمة متصلة بك ويقينًا صادقًا فى حبك)[1]. ومن ضراعات الأقطاب، وابتهالات العارفين ما دعا به (ذو النون المصرى): (اللهم إن الحول حولك، والطول طولك، ولك فى خلقك مدد وقوة وحول، وأنت الفعال لما تشاء، لا العجز والجهل يطارحانك، ولا النقصان والزيادة يجبلانك، لا يحد قدرتك أحد، ولا يشغلك شأن عن شأن)، ولذى النون أيضًا: (اللهم اجعل العيون منا فوارات بالعبرات والصدور منا محشوة بالعبر والحرقات، واجعل قلوبنا غواصة فى موج قرع أبواب السماوات، تائهة من خوفك فى البوادى والفلوات، افتح لأبصارنا باباً إلى معرفتك ولمعرفتنا أفهامًا إلى النظر فى نور حكمتك . يا حبيب قلوب الوالهين، ومنتهى رغبة الراغبين، اللهم تقبل ما مننت به علينا من الإسلام والإيمان، ولا تمنعنا عفوك عند السؤال فإنا إليك آيبون، ومن الإصرار على معصيتك تائبون).

ومن دعاء شيخ الطريقة وإمامها وسيد طائفة المتصوفين الإمام الجنيد: (اللهم إنى أسألك يا خير السامعين، وبجودك ومجدك يا أكرم الأكرمين وبكرمك وفضلك يا أسمح السامحين أسألك سؤال خاضع خاشع، متذلل متواضع ضارع، اشتدت إليك فاقته، وعظمت فيما عندك رغبته، وعلم أن لا يكون شئ إلا بمشيئتك، ولا يشفع شافع إليك إلا من بعد إذنك، إلهى وسيدى وسندى، أنا بك عائذ لائذ مستغيث مستنجد)[2].

---

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، ج١، ص٥٧٨.

(٢) دراسات فى التصوف الإسلامى الدكتور/ محمد عبد المنعم خفاجى، ج١، ص١٤٩، نشر مكتبة القاهرة، دار الطباعة المحمدية بالأزهر.

وإن كتب المتصوفة لتغص بهذه الأدعية ممثلة في الأوراد والأحزاب، والفرق بين الورد والحزب أو الورد يقرأ في أوقات منتظمة معروفة في الصباح والمساء والنهار والليل أما الحزب فليس لقراءته وقت معين فهو يقرأ في أى وقت من ليل أو نهار، ومن الكتب التى تعج بهذه الأدعية على سبيل المثال لا الحصر كتب أبو الحسن الشاذلى ومنها حزبه الشهير (حزب البر)، و (دلائل الخيرات)، و (شوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبى المختار) للشيخ أبى عبد الله محمد بن سليمان ابن أبى بكر الجذولى المتوفى عام ٨٧٠هـ بمدينة سوس بالمغرب، وقصيدة أسماء الله الحسنى لصبغة الله الشهرزورى الكيالى وقد شرحها الشيخ عبد القادر الجيلانى.

ومما كان يدعو به ذو النون رحمه الله: اللهم اجعل العيون منا فوارات بالعَبرات، والصدور منا محشوةً بالعبر والحرقات، واجعل قلوبنا غواصةً فى موج قَرْعِ أبواب السماوات، تائهة من خوفك فى البوادى والفلوات افتح لأبصارنا باباً إلى معرفتك، ولمعرفتنا أفهامًا إلى النظر فى نور حكمتك، يا حبيب قلوب الوالهين، ومنتهى رغبة الراغبين[1].

ودعاء ليوسف بن الحسين رحمه الله: (اللهم إنا نبات نعمك فلا تجعلنا حصائد نِقمك. اللهم أعطنا ما تريده منا، يا من أعطانا الإيمان به من غير سؤال لا تمنعنا عفوك مع السؤال فإنا إليك آيبون ومن الإصرار على معصيتك تائبون، فإنا إليك ذاعنون تائبون. اللهم تقبل ما

---

(١) اللمع لأبى نصر السراج الطوسى تحقيق د. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقى سرور، سنة ١٣٨٠هـ، ١٩٦٠م، ص٣٢٨.

مننت به علينا من الإسلام والإيمان الذى به هديتنا، واعف عنا. إلهى نِعمك محيطة بنا، وأنت المذكور لشكرها، وعزتك ما شكرك أحد إلا بك[1].

ومن دعوات "يحيى بن معاذ" قوله: "إلهى، إذا قلت لى فى القيامة: عبدى ما غرك بى؟ فأقول: سيّدى، برك بى. وإن أدخلتنى النار بين أعدائك لأخبرتهم بأنى كنت فى الدنيا أحبك لأنك مولاى ومن جميع الأشياء مغناى). وكان يقول: اللهم إن نجيتنى نجيتنى بعفوك وإن عذبتنى عذبتنى بعدلك رضيت ما بى لأنك ربى وأنا عبدك، إلهى أنت تعلم أنى لا أقوى على النار وأنا أعلم أنى لا أصلح للجنة فما الحيلة إلا عفوك). وقال: إلهى وسيّدى وسرورى تكرمك شغلنى عن قبيح عملى وإن كان فيه شقائى، وسرورى بنعمتك شغلنى عن حسن عملى وإن كان فيه نجاتى، وسرورى بك أنسانى السرور بنفسى. وكان يقول: اللهم إنى أتقرب إليك، وبك أدلّ عليك، وحُجتى نعمك لا عملى، وما أظنك تحاسب غدًا بعدلك من غشيته اليوم بفضلك، وعفوك يستغرق الذنوب، ورضوانك يستغرق الآمال، ولولا أنك بالعفو تجود ما كان عبدك بالذنب يعود[2].

وكان يقول: (إلهى وسيّدى ومولاى ومن جميع الأشياء مغناى، ضيّعتُ نفسى بالذنوب فردُّها على بالتوبة أنت تعلم أن الكريم من عبادك يعفو عمن ظلمه وقد ظلمت نفسى وأنت أكرم الأكرمين فاعف عنّى، إلهى أنت تعلم أن إبليس عدوّ لك ولى، وليس شىء أنكى لكمده وأقطع

---

(١) ذاته، ص٣٢٩.

(٢) اللمع لأبى نصر السراج الطوسى. تحقيق د. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقى سرور، ص٣٣١.

لكيده من غفرانك لى فاغفر لى يا أرحم الراحمين). سمعت عمر الملطى بأنطاكية يقول: قلت لبعض المشايخ ينبغى أن تدعو لى، فقال: يا فتى، أنا أدعو لك ولكن ينبغى لك أيضًا أن تكون بالحضرة، فإذا دعوتُ لك ولم تكن بالحضرة لم ينفع دعائى[1]. ويقول الله عز وجل : ﴿ ادعوا ربكم تضرعًا وخفية ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ وقال ربكم ادعونى استجب لكم ﴾[3]. وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الدعاء مخ العبادة، والدعاء مفتاح الحاجة، وهو مستروح أصحاب الفاقات، وملجأ المضطرين)[4].

(من أدمن قرع باب يوشك أن يفتح له، فقالت له "رابعة": إلى متى تقول هذا؟ متى أغلق الباب حتى يستفتح؟ فقال صالح: شيخ جهل وامرأة علمت)[5]. يقول أبو على الرقاق: ظهر بيعقوب بن الليث عِلّة أعيت الأطباء، فقالوا له: فى ولايتك رجل صالح يسمى "سهل بن عبد الله" لو دعا لك لعل الله سبحانه يستجيب له، فاستحضر سهلاً وقال: ادعو الله عز وجل لى، فقال "سهل": كيف يستجاب دعائى فيك وفى محبسك مظلومون؟! فأطلق كل من كان فى حبسه، فقال سهل: (اللهم كما أريته ذُلَّ المعصية فأره عز الطاعة وفرج عنه. فعوفى، فعرض مالاً على "سهل" فأبى أن يقبله فقيل له: لو قبلته ودفعته إلى الفقراء.

---

(١) اللمع لأبى نصر السراج الطوسى، تحقيق د. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقى سرور، دار الكتب الحديثة بمصر ومكتبة المثنى ببغداد، ص٣٣٢.

(٢) الأعراف، آية ٥٥.

(٣) سورة غافر، آية ٦٠.

(٤) أخرجه الترمذى وقال حديث غريب.

(٥) ذاته، ص٥٣١.

فنظر إلى الحصباء فى الصحراء فإذا هى جواهر، فقال لأصحابه من يعطى مثل هذا ومتنفس ذوى المآرب، وقد ذم الله سبحانه قومًا تركوا الدعاء فقال: ﴿ ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ﴾[1] قيل: (لا يمدون إلينا فى السؤال وقال سهل بن عبد الله: خلق الله تعالى الخلق وقال ناجونى، فإن لم تفعلوا فانظروا إلىّ، فإن لم تفعلوا فاسمعوا منى، فإن لم تفعلوا فكونوا ببابى، فإن لم تفعلوا فأنزلوا حاجاتكم بى)[2] والدعاء فى نفسه عبادة لقوله ﷺ : الدعاء مخ العبادة، والاتيان بما هو عبادة أولى من تركه[3].

وقال ﷺ : (والذى نفسى بيده إن العبد ليدعوا الله تعالى وهو عليه غضبان فيعرض عنه، ثم يدعوه فيعرض عنه، ثم يدعوه فيعرض عنه، ثم يدعوه، فيقول الله تعالى لملائكته: آبا عبدى أن يدعو غيرى فقد استجبت له[4].

ومن آداب الدعاء: حضور القلب، وأن لا يكون ساهيًا. فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الله تعالى لا يستجيب دعاء عبد من قلب لاهٍ)[5]. ومن شرائطه أن يكون مطعمه حلالا فلقد قال صلى الله عليه وسلم لسعد (أطب كسبك تستجب دعوتك)[6]. وقيل الدعاء مفتاح الحاجة، وأسنانها لقم الحلال. وكان يحيى بن معاذ يقول:

---

(١) سورة التوبة، آية رقم (٦٧).

(٢) الرسالة القشيرية، ج٢، ص٥٢٦.

(٣) ذاته، ص٥٢٧.

(٤) ذاته، ص٥٢٩، أخرجه ابن ماجه.

(٥) ذاته، ص٥٣٠، أخرجه البخارى ومسلم.

(٦) ذاته، رواه البخارى وأحمد فى مسنده.

(إلهى، كيف أدعوك وأنا عاصٍ؟ وكيف لا أدعوك وأنت كريم، وقيل مرّ موسى عليه السلام برجل يدعو ويتضرع، فقال موسى عليه السلام: إلهى، لو كانت حاجته بيدى قضيتها، فأوحى الله تعالى إليه: أنا أرحم به منك، ولكنه يدعونى، وله غنم وقلبه عند غنمه، وإنى لا أستجيب لعبد يدعونى وقلبه عند غيرى. فذكر موسى عليه السلام للرجل ذلك فانقطع إلى الله تعالى بقلبه فقضيت حاجته)[1]. وقيل كان "صالح المرى" يقول كثيرًا يحتاج إلى مال "يعقوب بن الليث"[2]؟!!. وقيل دعاء العامة بالأقوال، ودعاء الزهاد بالأفعال، ودعاء العارفين بالأحوال، وقيل: خير الدعاء "ماهيجته الأحزان"[3].

وقيل: الدعاء سلّم المذنبين، أى وسيلتهم، وقيل: "لسان المذنبين دعاؤهم" وفى رواية أخرى "لسان المذنبين دموعهم"[4]. ويقول أبو على الدقاق رحمه الله: (إذا بكى المذنب فقد راسل الله عز وجل) يقول الشاعر:

دموع الفتى عما يجن تترجم   وأنفاسه يبدين ما القلب يكتم

وقال بعضهم: الدعاء ترك الذنوب، وقيل الدعاء لسان الاشتياق إلى الحبيب، وقيل كيف تنتظر إجابة الدعوة وقد سددت طريقها بالهفوة؟! وقيل الدعاء مواجهة الحق تعالى بلسان الحياء، وقالوا شرط الدعاء الوقوف مع القضا بوصف الرضا[5].

---

(١) ذاته، ص٥٣٠، ٥٣١.

(٢) ذاته، ص٥٣١.

(٣) ذاته، ص٥٣٣.

(٤) ذاته.

(٥) ذاته، ص٥٣٤.

الرثاء :

الرثاء فن أدبى راقٍ، عرف منذ العصر الجاهلى، وهو إظهار التفجع والحزن والحسرة على فراق من يحب، أو هو وصف مآثر ومحاسن الميت، وماله من أعمال جليلة مثل الكرم والشجاعة والنجدة وما إلى ذلك من الصفات التى يجمدها الناس لمن رحل عنهم، فهو فن أدبى قديم. بيد أن الرثاء لدى الصوفية له مذاق مختلف، وتذوق خاص، وقد أثرت عن الصوفية مراثٍ رائعة ملؤها الألفاظ المنتقاة والبلاغة التى تأخذ بتلابيب النفس، وتملك على الإنسان لبّه وحسه وهى إن دلت فإنما تدل على صفاء الروح، والذوق الصوفى الرفيع، والإلهام العميق، مع جودة المعنى ومتانة النسج ونصاعة الديباجة، وقوة السبك. نرى ذلك باديًا واضحًا فى قول "ابن السماك" يوم أن مات داود بن نصر الطائى وهو رثاء فريد يقول ابن السماك: "إن داود رحمه الله نظر بقلبه إلى ما بين يديه من آخرته، فأعشى بصر القلب بصر العين، فكان كأنه لا ينظر إلى ما إليه تنظرون، وكأنكم لا تنظرون إلى ما إليه نظر، فأنتم منه تعجبون، وهو منكم يعجب، فلما رآكم راغبين مذهولين مغرورين، قد أذهلت الدنيا عقولكم، وأماتت بحبها قلوبكم، استوحش منكم، فكنت إذا نظرت إلي نظرت إلى حى وسط أموات. يا داود: ما أعجب شأنك بين أهل زمانك، أهنت نفسك، وإنما تريد إكرامها، وأتعبتها وإنما تريد راحتها، أخشنت المطعم وإنما تريد طيبه، وأخشنت الملبس وإنما تريد لينه ثم أمت نفسك قبل أن تموت، وقبرتها قبل أن تقبر وعذبتها ولما تعذب، وأغنيتها عن الدنيا لكيلا تذكر، رغبتك نفسك عن الدنيا فلم ترها لك قدرًا إلى الآخرة، فما أظنك إلا وقد ظفرت بما طلبت، كان سيماك

فى سرك ولم يكن سيماك فى علانيتك، تفقهت فى دينك وتركت الناس يفتون وسمعت الحديث وتركتهم يحدثون، وخرست عن القول وتركتهم ينطقون، ولا تحسد الأخيار، ولا تعيب الأشرار ولا تقبل من السلطان عطية، ولا من الإخوان هدية، آنس ما تكون إذا كنت بالله خاليًا، وأوحش ما تكون آنس ما يكون الناس، فمن سمع بمثلك، وصبر صبرك، وعزم عزمك، لا أحسبك إلا وقد أتعبت العابدين بعدك، سجنت نفسك فى بيتك فلا محدث لك، ولا جليس معك، ولا فراش تحتك. ولا ستر على بابك، ولا قلة يبرد فيها ماؤك، ولا صفحة يكون فيها غداؤك وعشاؤك مطهرتك قلبك، وقصعتك تورك[1]. يا داود ما كنت تشتهى من الماء باردة، ولا من الطعام طيبه، ولا من اللباس لينه، بلى ولكن زهدت فيه لما بين يديك، فما أصغر ما بذلت وما أحقر ما تركت فى جنب ما أملت، فلما مت شهرك ربك بموتك، وألبسك رداء عملك، وأكثر تتبعك، فلو رأيت من حضرك عرفت أن ربك قد أكرمك وشرفك، فلتتكلم اليوم عشيرتك بكل ألسنتها، فقد أوضح ربك فضلها بك[2] وفى هذا النص نجد خصائص ليست معروفة لدى الأدباء، ومن بين هذه الخصائص "الذاتية" ونعنى بها ذاتية التعبير، أى أن الأسلوب الوارد فيها أسلوب يخص صاحبه وحده ولا يشبه الأساليب الأخرى، وذلك ما تعنيه كلمة "الذاتية" كما أن الألفاظ الواردة فى النص جاءت منتقاة وواضحة عذبة سهلة، وكل لفظة وقعت فى مكانها، وأصابت معناها، أما المعانى فقد جاءت متخيرة حيث لاأمت الغرض، ووافقت المقام.

---

(١) التور هو الإناء الصغير.

(٢) عيون الأخبار، ج٢، ص٣١٥، ٣١٦.

وهذه مرثية أخرى من والد لولده. مات ذر بن أبى ذر الهمدانى من بنى مرهبة بن عامر بن مالك بن معاوية[1] وهو ذر بن عمر بن ذر فوقف أبوه على قبره فقال: "يا ذر، والله ما بنا إليك من فاقة، وما بنا إلى أحد سوى الله من حاجة. يا ذر شغلنى الحزن لك عن الحزن عليك – ثم قال اللهم إنك وعدتنى بالصبر على ذر صلواتك ورحمتك. اللهم وقد وهبت ما جعلت لى من أجر على ذر لذر فلا تعرفه قبيحًا من عمله. اللهم وقد وهبت له إساءته إلى نفسه فإنك أجود وأكرم". فلما انصرف عنه التفت إلى قبره وقال: يا ذر، قد انصرفنا وتركناك ولو أقمنا ما نفعناك[2]!.

الحكمة:

وهى لون من ألوان الأدب العربى، وهى تصدر عن رجل حكيم مجرب للأمور، وله خبرة واسعة بالحياة والناس بيد أن الصوفيين مزجوها بصبغة روحية عالية. وحكم ابن عطاء الله السكندرى مشهورة، وهى تمتاز بالرمزية البعيدة الغور، وهى تتناول كل شئون النفس والأخلاق والتصوف وتعد لونًا من ألوان النثر الأدبى الصوفى ذا الذوق الأدبى الرفيع، ومنها على سبيل المثال ما يلى:

العطاء من الخلق حرمان، والمنع من الله إحسان – متى أعطاك أشهدك بره، ومتى منعك أشهدك قهره، فهو فى كل ذلك متعرف إليك، ومقبل بوجود لطفه عليك.

---

(١) الاشتقاق لابن دريد تحقيق عبد السلام هارون، ص٢٥٦ وأيضًا نهاية الإرب، ج٢، ص٣٢٠.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون، ج٣، ص١٤٤ وما بعدها.

إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه – ربما فتح لك باب الطاعة، وما فتح لك باب القبول، وربما قضى عليك بالذنب فكان سببًا فى الوصول – ومنها أيضًا: لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين إذ لا مسافة بينك وبينه حتى تطوى بها رحلتك، ولا قطعة بينك وبينه حتى تمحوها. جعلك فى العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته، وأنك جوهر قد تنطوى عليك أصداف مكنوناته. إنما وسعك الكون من حيث ثبوت جثمانيتك، ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك. أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون، فإذا شهدته كانت الأكوان معك.

لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية. إنما مثل الخصوصية كإشراق شمس النهار ظهرت فى الأفق وليست منه. تارة تشرق أنواره على ليل وجودك، وتارة يقبض ذلك عنك فيردك إلى حدودك. فالنهار ليس منك وإليك ولكنه وارد عليك.

دلّ بوجود آثاره على وجود أسمائه، وبوجود أسمائه على ثبوت أوصافه، وبثبوت أوصافه على وجود ذاته، إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه.

لا يعلم قدر أنوار القلوب والأسرار إلا فى غيب الملكوت كما لا تظهر أنوار السماء إلا فى شهادة الملك.

وجدان ثمرات الطاعة عاجلاً بشّى العاملين بوجود الجزاء آجلاً.

ما كان ظاهر ذكر إلا عن باطن شهود، أشهدك من قبل أن يستشهد فنطقت بإلهيته الظواهر، وتحققت بأحديته القلوب والسرائر.

رب عمر اتسعت آماده، وقلّت أمداده، ورب عمر قليلة آماده، كثيرة أمداده.

من بورك له فى عمره أدرك فى يسير من الزمن من الله تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة، ولا تلحقه الإشارة.

الخذلان كل الخذلان أن تتفرغ من الشواغل ثم لا تتوجه إليه وتقل عوائقك ثم لا ترحل إليه.

الفكرة سير القلب فى ميادين الأغيار.

الفكرة سراج القلّب فإذا ذهبت فلا إضاءة له.

الفكرة فكرتان: فكرة تصديق وإيمان، وفكرة شهود وعيان. فالأولى لأرباب الاعتبار، والثانية لأرباب الشهود والاستعبار.

خصائص حكم ابن عطاء الله السكندرى:

ومن خلال قراءتنا لحكم "ابن عطاء الله السكندرى" يستبين لنا أن حكمه لها خصائص وميزات تخصها، وتتسم بها وهى أولاً: تهدف كما يقول "الرندى" إلى إيضاح طريق العارفين والموحدين.

ثانيًا: إبانة مناهج السالكين والمتجردين، وتهدف كذلك إلى الكلام فى إسقاط التدبير عن الخلق أجمعين إذ لا يجوز فى رأيه أن يفكر الإنسان فى تدبير أى أمر من أمور الدنيا، لأن الله سبحانه قد انفرد بتدبير شئون هذه الحياة وما للمرء فيها من شىء سوى الإذعان والتسليم بكل ما تقضى به المقادير، وأن الدعاء لا يغير القضاء فلا يستجيب الله لأحد إلا فيما قدره له، وقضى به عليه، وأن كرامات الأولياء لا تتحقق فى شىء مما لم يكن مقدرًا حصوله أزلاً.

ثالثًا: وكثرة كاثرة من حكم ابن عطاء الله تهدف أولاً وبالذات إلى تصفية القلوب بذكر المعبود، وتطهير الأجسام بفعل الخير واجتناب الآثام. هذا من حيث المعاني والأغراض. أما من حيث الألفاظ والأساليب وطرائق التعبير والتصوير. فإن ألفاظه في أكثرها منتقاة، وفصيح جيد جاءت خلواً من كل لفظ ثقيل، أو كلام سقيم. كما يتسم أسلوبه بطابع التحليل والتعليل مع الاستواء والاستقامة وقوة التعبير وروعة التصوير.

أما من ناحية المعنى والمضمون فإن حكم ابن عطاء الله السكندرى تنتظم طائفة من النظريات والأفكار، بعضها صوفي، وبعضها فلسفي، وثالثها فقهي، ورابعها بعض مسائل من علم الكلام، أما من حيث الأسلوب وصيغ الكلام وكيفية التناول وطرائق التعبير فإنها تختلف في ذلك تبعًا لاختلافها في المعاني والأغراض، فإذا كان موضوع الحكمة يتصل بالأحكام الشرعية فتجيء مصبوغة بأسلوب الفقهاء الذي يتسم بالجدل والاستدلال. وإن كان الموضوع مسألة كلامية فإنه يصطنع أسلوب علماء الكلام وهو أسلوب قائم على التعليل والتحليل وذكر الحجة وإقامة البراهين. وإن كان الموضوع حالة نفسية أو حقيقة باطنية ممن انفرد بمعرفته والكلام فيه أهل التصوف، فإنه يستخدم أسلوب الإيحاء النفسي، وطرائق التعبير الصوفي فذلك أسلوب الصوفية في التعبير عن آراءهم وما يريدون الإفضاء به مما يحصل لهم عن طريق الكشف والمشاهدة، والإبانة عن الأسرار.

فالحكمة لدى "ابن عطاء الله" تقصر وتقل كلماتها إذا كان موضوعها صوفيًا، وتطول إذا كانت الحكمة تتناول موضوعًا تكلم فيه أهل الشرع والفقه أو كما تتميز حكمه بغزارة المعنى وبعد المرمى،

وتعدد المقصود، وجودة الكلمات وكثرة المحسنات، ووضوح الأسلوب واستقامة التعبير مع انعدام التعقيد في المعاني وكثرة المجازات والاستعارات والتشخيص، والتأثر بأساليب الفقهاء والمتكلمين، وصدق الشعور وعمق الوجدان[1].

الزهد :

وقد جاء أدب الزهد في الدنيا كثير في أدب المتصوفة وغصّت به مؤلفاتهم، وكان حديث الزهد من مقدمات التصوف في الإسلام، وبخاصة الزهد في الدنيا وقد جاءت صور الزهد متعددة، وكثيرة متنوعة نسوق طرفًا منها يمثل هذا اللون من الأدب لدى الصوفية ومن صور هذا اللون ما نجده لدى ابن القيم الجوزية حيث يقول: "مثلت الدنيا بمنام، والعيش فيها بالحلم والموت باليقظة، ومثلت بمزرعة والعمل فيها بالبذر والحصاد يوم المعاد، ومثلت بدار لها بابان، باب يدخل منه الناس وباب يخرجون منه،و مثلت بحية ناعمة الملمس، حسنة اللون وضربتها الموت، ومثلت بطعام مسموم، لذيذ الطعم، طيب الرائحة، من تناول منه بقدر حاجته كان فيه شفاؤه، ومن زاد على حاجته كان فيه حدفه، ومثلت بالطعام في المعدة إذا أخذت الأعضاء منه حاجتها، فحبسه قاتل أو مؤذى[2] ومن ألوان النثر الأدبي الصوفي، وهو أدب الزهد في الدنيا أنه قيل لرابعة القيسية العدوية (لو كلمتي رجال عشيرتك فاشتروا لك خادمًا تكفيك مهنة بيتك؟ قالت: والله إني لأستحيي أن أسأل الدنيا من يملك الدنيا فكيف أسألها من لا يملكها؟!)[3].

---

(١) مجلة منبر الإسلام – مقال عن "صور من الأدب الصوفي المصري" للدكتور على صافي حسين.

(٢) عدة الصابرين لابن قيم الجوزية، ص٣١٦.

(٣) البيان والتبيين للجاحظ، ج٣، ص١٢٧.

ويقول الحسن بن دينار (رأى الحسن رجلاً يكيد بنفسه أى يجود بها عند الاحتضار فقال: "إن أمراً هذا آخره لجدير أن يزهد فى أوله، وأن أمرًا هذا أوله لجدير أن يخاف آخره")[1].

ويقول ابن عطاء الله السكندرى (٧٠٩): مثال المهموم بأمر دنياه الغافل عن التزود لأخراه كمثل إنسان جاءه سبع وهو يريد أن يفترسه ووقع عليه ذباب فاشتغل بذب الذباب ودفعه عن التحرز من السبع، الحق أن هذا عبد أحمق فاقد وجود العقل ولو كان متصفًا بالعقل لشغله أمر الأسد وصولته وهجومه عليه عن الفكرة فى الذباب، كذلك المهتم بأمر دنياه عن التزود للآخرة دل ذلك منه على وجود حمقه إذ لو كان فيهما عاقلاً لتأهب للدار الآخرة التى هو مسئول عنها وموقوف عليها، فلا يشتغل بأمر الرزق فإن الاهتمام به بالنسبة للآخرة نسبة الذباب إلى مفاجأة الأسد وهجومه[2].

ويقول الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه يذم الدنيا (إنما الدنيا منتهى بصر الأعمى، لا يبصر مما وراءها شيئًا، والبصير ينفذها بصره، ويعلم أن الدار وراءها، فالبصير منها شاخص، والأعمى إليها شاخص، والبصير منها متردد، والأعمى لها متزود)[3].

ويقول الطوسى: (والزهد مقام شريف وهو أساس الأحوال الرضية والمراتب السنية، وهو أول قدم القاصدين إلى الله عز وجل، والمنقطعين إلى الله، والراضين عن الله، والمتوكلين على الله تعالى، فمن لم يُحكم أساسه فى الزهد لم يصح له شىء مما بعده، لأن حُب

---

(١) ذاته.

(٢) تاج العروس لابن عطاء الله السكندرى، ص٤٨، المطبعة العثمانية المصرية.

(٣) نهج البلاغة للإمام على، ج١، ص٢٧.

الدنيا رأس كل خطيئة، والزهد فى الدنيا رأس كل خير وطاعة.

ويقال: إن من سُمِى باسم الزهد فى الدنيا فقد سُمى بألف اسم محمود، ومن سمى باسم الرغبة فى الدنيا فقد سمى بألف اسم مذموم. وهو ما اختار رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه باختيار الله له، والزهد فى الحلال الموجود. وأما الحرام والشبهة فتركه واجب.

والزهاد على ثلاث طبقات:

فمنهم المبتدئون، وهم الذين خلت أيديهم من الأملاك وخلت قلوبهم مما خلت منه أيديهم. كما سئل الجنيد رحمه الله عن الزهد فقال: تخلى الأيدى من الأملاك، وتخلى القلوب من الطمع. وسئل سرى السَّقَطى رحمه الله عن الزهد فقال: أن يخلو قلبه مما خلت منه يداه.

وفرقة منهم متحققون فى الزهد:

ووصفهم ما أجاب (رُوَيْمْ بن أحمد) رحمه الله، حين سئل عن الزهد فقال: "ترك حظوظ النفس من جميع ما فى الدنيا، فهذا زهد المتحققين، لأن فى الزهد فى الدنيا حظاً للنفس، لما فى الزهد من الراحة والثناء والمحمدة واتخاذ الجاه عند الناس، فمن زهد بقلبه فى هذه الحظوظ فهو متحقق فى زهده).

والفرقة الثالثة: علموا وتيقنوا: أن لو كانت الدنيا كلها لهم ملكاً حلالاً، ولا يحاسبون عليها فى الآخرة، ولا ينقص ذلك مما لهم عند الله شيئًا ثم زهدوا فيها لله عز وجل، لكان زهدهم فى شىء منذ خلقها الله تعالى ما نظر إليها، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء، فعند ذلك زهدوا فى زهدهم وتابوا من زهدهم.

كما سئل الشبلى رحمه الله عن الزهد فقال: الزهد غفلة، لأن الدنيا لا شىء، والزهد فى لا شىء غفلة(١).

وقال عيسى بن مريم صلوات الله عليه: (الدنيا لإبليس مزرعة وأهلها له حراثون)(٢).

وقال بعض الملوك لبعض العلماء: ذم لى الدنيا. فقال: (أيها الملك، الآخذة لما تعطى، المورثة بعد ذلك الندم، السالبة ما تكسو، المعقبة بعد ذلك الفضوح، تسد بالأراذل مكان الأفاضل، وبالعجزة مكان الحزمة تجد فى كلٍ من كلٍ خلفًا، وترضى من كلٍ بكلٍ بدل، تسكن دار كل قرن قرنًا، وتطعم سؤر كل قوم قومًا)(٣).

وقيل لمحمد بن على من أشد الناس زهدًا؟ قال: (من لا يبالى الدنيا فى يد من كانت)(٤). وقيل له أيضًا: من أخسر الناس صفقة؟ قال: من باع الباقى بالفانى. وقيل له: من أعظم الناس قدرًا؟ قال: من لا يرى الدنيا لنفسه قدرا(٥).

وقال محمد بن واسع الأسدى: ما آسى من الدنيا إلا على ثلاث بلغة من عيش ليس لأحد فيها علىّ منة، ولا لله فيها علىّ تبعة وصلاة

---

(١) اللمع لأبى نصر السرّاج الطوسى، حققه، وقدم له، وخرج أحاديثه الدكتور عبد الحليم محمود وطه عبد الباقى سرور. ملتزم الطبع والنشر دار الكتب الحديثة بمصر ومكتبة المثنى ببغداد، ص٧٢، ٧٣، سنة ١٣٨٠هـ، ١٩٦٠م.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ، ج٣، ص١٥٧.

(٣) ذاته، ص١٥٨.

(٤) ذاته، ص١٦١.

(٥) ذاته.

في جمع، أكفى سهوها ويدخر لى أجرها، وفى رواية أخرى (وصلاة فى جماعة يحمل عنى سهوها وأفوز بفضلها)[1] وأخٍ فى الله إذا ما اعوججت قومنى[2].

وقال الحسن للمغيرة بن مخارش التميمى: إن من خوفك حتى تلقى الأمن، خير لك ممن أمنك حتى تلقى الخوف، وقال عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود: (ما أحسن الحسنة فى إثر الحسنة، وأقبح السيئة فى إثر السيئة)[3].

وكان الحسن يقول: (إنكم لا تناولون ما تحبون إلا بترك ما تشتهون، ولا تدركون ما تأملون إلا بالصبر على ما تكرهون)[4].

وقيل من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى إلا فيها، ولا ينال ما عنده إلا بتركها[5] – وقال رجل "هو عبد الله بن إدريس"[6] لداود بن نصير الطائى الكوفى الفقيه الزاهد أوصنى قال: (اجعل الدنيا كيوم صمته، واجعل فطرك الموت، فكأن قد والسلام). قال: زدنى. قال: (لا يرك الله عندما نهاك عنه، ولا يفقدك عندما أمرك به). قال: زدنى. قال: (أرض باليسير مع سلامة دينك، كما رضى قوم بالكثير مع هلاك دينهم)[7].

---

(١) صفوة الصفوة، ج٣، ص١٩٤.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ، ص١٦٨.

(٣) ذاته، ص١٦٣.

(٤) ذاته، ص١٦٤.

(٥) ذاته، ص١٦٦.

(٦) صفوة الصفوة، ج٣، ص٧٥.

(٧) البيان والتبيين، ج٣، ص١٧٠، ١٧١.

قال رجل ليونس بن عبيد: أتعلم أحدًا يعمل بعمل الحسن؟ قال: والله ما أعرف أحدًا يقول بقوله فكيف يعمل بمثل عمله؟ قال: صفه لنا. قال: كان إذا أقبل فكأنه أقبل من دفن حميمه، وكان إذا جلس فكأنه أسير قد أمر بضرب عنقه، وكان إذا ذكرت النار عنده فكأنها لم تخلق إلا له[1].

ولما أتى النبى صلى الله عليه وسلم أهل قباء أتوه بشربة من لبن مشوبة بعسل، فوضع القدح من يده وقال: (أما إنى لست أحرمه ولكن أتركه تواضعًا لله تعالى)[2].

وأتى عمر رضى الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل فى يوم صائف فقال (اعزلوا عنى حسابها)[3] وقد قال يحيى بن معاذ الرازى الزاهد الصادق: قوته ما وجد، ولباسه ما ستر، ومسكنه حيث أدرك، الدنيا سجنه، والقبر مضجعه، والخلوة مجلسه، والاعتبار فكرته، والقرآن حديثه، والرب أنيسه، والذكر رفيقه، والزهد قرينه والحزن شأنه، والحياء شعاره، والجوع إدامه والحكمة كلامه، والتراب فراشه، والتقوى زاده، والصمت غنيمته، والصبر معتمده، والتوكل حسبه، والعقل دليله، والعبادة حرفته، والجنة مبلغه إن شاء الله تعالى)[4].

(١) ذاته، وأيضًا عيون الأخبار لابن قتيبة الدينورى، ج٢، ص٣٥٥-٣٥٦.

(٢) إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى، ج٤، ص٢٣١.

(٣) ذاته.

(٤) ذاته.

النصائح والوصايا

وهو لون من ألوان النثر الصوفي، غزير المادة، رائع التصوير والبيان، ومن أقدم هذا اللون رسالة الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي الزاهد، فقد روى أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه – لما تولى الخلافة – كتب إلى الحسن البصري، أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل فكتب إليه الحسن رحمه الله: اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم ومفزع كل ملهوف. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله الرفيق الذى يرتاد لها أطيب المرعى ويذودها عن مراتع الهلكة. ويحميها من السباع. ويكنفها من أذى الحر والقر. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده. يسعى لهم صغارًا. ويعلمهم كبارًا. يكتسب لهم فى حياته، ويدخر لهم بعد مماته. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كرهًا وربته طفلاً، تسهر بسهره وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح، تصلح الجوارح بصلاحه وتفسد بفساده، والإمام العادل يا أمير المؤمنين، هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إليه ويراهم، وينقاد إلى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله، فبدد المال، وشرد العيال، فافتقر أهله وفرق ماله، واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش فكيف إذا أتاها من يليها؟ وأن الله أنزل القصاص حياة لعبادة، فكيف إذا قتلهم من يقتص

لهم؟.

واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر، واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذى أنت فيه. يطول فيه ثواؤك ويفارقك أحباؤك، ويسلمونك فى قعره فريدًا وحيدًا، فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، واذكر يا أمير المؤمنين إذا بعثر ما في القبور، وحصل ما فى الصدور، فالأسرار ظاهره والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فالآن يا أمير المؤمنين – وأنت فى مهل قبل حلول الأجل وانقطاع الأمل – لا تحكم يا أمير المؤمنين فى عباد الله بحكم الجاهلين ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين، فإنهم لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك. ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ويأكلون الطيبات فى دنياهم بإذهاب طيباتك فى آخرتك، فلا تنظر إلى قدرتك اليوم ولكن انظر طيباتك فى آخرتك، فلا تنظر إلى قدرتك اليوم ولكن انظر إلى قدرتك غدًا وأنت مأسور فى حبائل الموت. وموقوف بين يدى الله فى مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين وقد عنت الوجوه للحى القيوم).

وهى رسالة تتمتع بنضارة الأسلوب وإشراقه، وجماله، وبلاغته، ووضوح المعنى، وقوته[1].

ومن وصايا الشيخ (محى الدين بن عربى) يقول: (الذى أوصيك

---

(1) دراسات فى الأدب الصوفى للدكتور/ خفاجى، ص١٢٦.

به أيها الأخ الإلهى أيدك الله بروح منه حتى تخبر بـه عنـه. أن تعرف الحق سبحانه وتعالى من حيث ما أخبرك بـه عن نفسه أنـه عليـه مـع اعتمادك على ما اقتضاه البرهان الوجـودى مما ينبغى أن يكون الحق عليه سبحانه من التنزيه والتقديس فتجمع بين العلم الذى أعطاك الإيمان، وبين العلم الذى اقتضاه الدليل العقلى، ولا تطلب الجمع بين الطرفين، بل خذ كل طريقة على انفرادها، واجعل الإيمان لقلبك بما أعطاك من معرفة الله بمنزلة البصر لحسك بما أعطاك من معرفة ما تقتضيه حقيقته، وأحذر أن تصرف نظرك الفكرى فيما أعطاكه الإيمان فتحرم عين اليقين فإن الله أوسع من أن يقيده عقل عن إيمان، أو إيمان عن عقل، وإن كان نور الإيمان يشهد العقل من حيث ما أعطاه فكره بصحة ما أعطاه من السلوب، ولا يشهد نور العقل من حيث فكره بصحة ما أعطاه نور الإيمان والكشف، لكن نور العقل به يكون القبول الخارج عن الفكر. يشهد بصحة ما أعطاه الكشف والإيمان)[1].

للشرع نـور وللألباب ميـزان ... والشرع للعقل تأييد وسلطانُ

والكشف نـور ولكن ليس تدركه ... إلا عقول لها فـى الوزن رجحان

وهى وصية طويلة اكتفينا منها بهذا القدر الذى يبين روح الوصية من التنزيه لله عز وجل والتقديس ومعرفة الله عز وجل وأن الله أوسع من أن يقيده عقل عن إيمان أو إيمان عن عقل وأن الشرع لـه نـور، والعقول لها ضوابط وموازين توزن بها والشرع مؤيد لهذه الضوابط، كما أن الشرع لها سلطان وحاكم وموجه وأن الكشف نور لا تدركه إلا

---

(١) كتاب الوصايا لمحى الدين بن عربى، ط. الأولى، سنة ١٣٦٧هـ، ١٩٤٨م، ص٢٠١.

العقول القوية الراجحة فى الفهم والإدراك. ثم يمضى فى وصيته الرائعة التى تأخذ بتلابيب النفس، وتجعل المسلم يسبح فى أنوار الملكوت ولا يدرك كنة هذه الرسالة إلا الذين صفت أرواحهم فاتصلوا بالملكوت الأعلى حيث الأنوار والكشف والمشاهدات، فيقول: (واعلم يا أخى أنه ما انتقش من العلم الإلهى فى العالم إلا قدر ما هو العالم عليه إلى يوم القيامة علوًا، وهو قوله سبحانه (وأوحى فى كل سماء أمرها)[1] وسفلاً وهو قوله تعالى حين ذكر الأرض (وقدر فيها أقواتها)[2] فإذا صفت النفس، وصقلت مرآتها، فلا تقابل بها العالم ليحصل فيها، وينتقش فيها ما فى العالم بأسره، فإنه لا فائدة فيه. ولكن قابل بها الحضرة الذاتية من حيث ما تعلم نفسها مقابلة افتقار وتعرية ليهبها الحق من معرفته ما لا يمكن حصوله إلا بهذه الطريقة. وهذا القدر من العلم هو مما ينتقش فى العالم الخارج عنك، فإن قيل لك، فقد انتقش فى اللوح المحفوظ جميع ما يكون إلى يوم القيامة، وقد علمه القلم الذى هو العقل الأول، وهذا الحاصل لك هو مما فى العالم فكيف الأمر؟[3].

قلنا ما انتقش فى اللوح المحفوظ، ولا سطر القلم فيه إلا العلوم التى تنقال، ويأخذها النقل ، وإما ما لا ينقال مما يعطيه التجلى الذى أردناه هنا. فما انتقش فى العالم أصلاً وحصوله فى الإنسان إنما هو من الوجه الخاص الإلهى الذى لكل موجود وهو خارج عن علم العقل

---

(١) سورة فصلت، آية رقم ١٢.

(٢) سورة فصلت آية (١٠)ز

(٣) كتاب الوصايا لمحى الدين بن عربى، ص٣.

الأول وغيره مما هو دونه فاعلم ذلك[1]. والسبب الموصل إلى نيل ما ذكرناه هو: تفرغ الخاطر والقلب من كل علم، ومن الفكر المطلوب لاقتناء العلوم ونحو ما كتب، ونسيان ما علم، والجلوس مع الله على الصفا، وتجريد الباطن من التعلق بغير ذات الحق جل جلاله[2].

قال بعض المشايخ قلت لرديم رحمه الله: أوصني بوصية فقال لي: ليس غير بذل الروح، فإن قدرت على ذلك وإلا فلا تشتغل بنزهات الصوفية[3]. وعن جعفر الخلدى رحمه الله أنه قال: كان الجنيد رحمه الله يوصي لرجل، ويقول: قدم نفسك وأخّر عزمك، ولا تقدم عزمك وتؤخر نفسك فيكون فيها إبطاء كثير. وقال أبو سعيد الخراز، يوصي بوصية لبعض أصحابه: احفظ وصيتي أيها المريد وارغب في ثواب الله تعالى، وإنما هو أن ترجع إلى نفسك الخبيثة فتذيبها بالطاعة، وتفارقها وتميتها بالمخالقة، وتذبحها بالإياس فيما سوى الله، وتقتلها بالحياء من الله عز وجل ويكون الله حسبك، وتسارع في جميع الخيرات، وتعمل في جميع المقامات، وقلبك وجل أن لا يقبل منك، فهذا حقائق القبول والإخلاص والصدق، حتى تتخلص وتصير إلى الله تعالى، والله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد[4].

وخطب على كرم الله وجهه يومًا خطبة فقال فيها: اعلموا أنكم

---

(١) ذاته، ص٤.

(٢) ذاته بتصرف.

(٣) اللمع لأبى نصر السراج الطوسى تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وطه عبد الباقى سرور، ص٣٣٤، سنة ١٣٨٠هـ، ١٩٦٠م، دار الكتب ومكتبة المثنى.

(٤) ذاته، ص٣٣٥.

ميتون ومبعوثون من بعد الموت وموقوفون على أعمالكم ومجزيون بها، فلا تغرّنكم الحياة الدنيا فإنها بالبلاء محفوفة وبالفناء معروفة وبالغدر موصوفة، وكل ما فيها إلى زوال وهى بين أهلها دول وسجال، لا تدوم أحوالها ولا يسلم من شرها نزالها، بينا أهلها منها فى رخاء وسرور إذا هم منها فى بلاء وغرور. أحوال مختلفة وتارات منصرفة. العيش فيها مذموم والرخاء فيها لا يدوم وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة. ترميهم بسهامها وتقصيهم بحمامها ... إلخ)[1].

وقال بعض الحكماء: الأيام سهام والناس أغراض، والدهر يرميك كل يوم بسهامه ويخترمك بلياليه وأيامه حتى يستغرق جميع أجزائك، فكيف بقاء سلامتك مع وقوع الأيام بك وسرعة الليالى فى بدنك؟[2].

قال على كرّم الله وجهه فى خطبته: أوصيكم بتقوى الله والترك للدنيا التاركة لكم وإن كنتم لا تحبون تركها، المبلية أجسامكم وأنتم تريدون تجديدها، فإنما مثلكم ومثلها كمثل قوم فى سفر سلكوا طريقًا وكأنهم قطعوه وأفضوا إلى علم فكأنهم بلغوه، وكم عسى أن يجرى المجرى حتى ينتهى إلى الغاية؟ وكم عسى أن يبقى من له يوم فى الدنيا وطالب حثيث يطلبه حتى يفارقها؟ فلا تجزعوا لبؤسها وضرائها فإنه إلى انقطاع، ولا تفرحوا بمتاعها ونعمائها فإنه إلى زوال، عجبت لطالب الدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه[3]. وخطب عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه فقال: يا أيها الناس إنكم خلقتم لأمر إن كنتم

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالى، ج٣، المكتبة التجارية الكبرى، ص٢١٢، ٢١٣.

(٢) ذاته.

(٣) ذاته، ص٢١٤.

تصدّقون به فإنكم حمقى، وإن كنتم تكذبون به فـإنكم هلكـى، إنمـا خلقتـم للأبد ولكنكم من دار إلى دار تنقلون، عباد الله إنكم فى دار لكم فيها من طعامكم غصص، ومن شرابكم شرق، لا تصفو لكـم نعمـة تسـرون بهـا إلا بفراق أخرى تكرهون فراقها، فـاعملوا لمـا أنتـم صـائرون إليـه وخالدون فيه(1).

وصية أوصى بها ذو النون لبعض إخوانه، فقال: يا أخى اعلم أنـه لا شرف أعلى من الإسلام، ولا كرم أعز من التقى ولا عقل أحرز مـن الورع، ولا شفيع أنجح من التوبة، ولا لباس أجل من العافية، ولا وقايـة أمنع من السلامة، ولا كنز أغنى من القنوع، ولا مال أذهـب للفاقـة مـن الرضـا بـالقوت، ومـن اقتصـر علـى بلغـةالكفاف فقـد انتظـم الراحـة، والرغبة مفتاح التعب ومطيـة النصـب، والحـرص داع إلـى التهجم فـى الذنوب، والشر جامع لمساوى العيوب، وربّ طمع كـاذب وأمـل خـائب ورجاء يؤدى إلى الحرمان وإرباح يئول إلـى الخسـران. وأتـى رجـل ذا النون المصرى رحمه الله، فقال له: أوصنى، فقال لـه: أوصيك إن كنتَ أيدتَ فى علم الغيب بصدق التوحيد فقد سبق لك قبلَ أن تخلق مـن لـدن آدم عليه السلام إلى يومك هذا دعوة النبيين والمرسلين فذلـك خـير لـك، وإن تكن غير ذلك، فأنى ينقذ النداء الغرقى؟!(2).

ودخل رجل على إبراهيم بن شيبان رحمه الله، فقال لـه: أوصنـى بشىء، فقال له إبراهيم: اذكر اللـه ولا تنسـه، فـإن لـم تسـتطع ذلـك فـلا تنس الموت. قيل لبعض المشايخ: أوصنى، فقال: امْحُ اسمك من ديـوان القـراء. وقيـل لأبـى بكـر الواسـطى رحمـه اللـه: أوصنـا. فقـال: عـدوا أنفاسكم وأوقـاتكم والسـلام. وقيـل لآخـر: أوصنـى. فقـال: القلـة والذلـة

---

(1) ذاته، ص٢١٣.

(٢) ذاته، ص٣٣٥.

واللحوق بالله عز وجل[1].

وللجنيد، فى بعض وصاياه، يقول: يا أخى، فاعملْ، ثم اعجل قبل أن يعجل الموت بك، وبادر، ثم بادر قبل أن يبادر إليك وقد وعظك الله تعالى فى الماضين من إخوانك، والمنقولين من الدنيا من أقرانك وأخدانك، فذاك حظك الباقى عليك، والنافع لك، وكلّ ما سوى ذلك فعليك لا لك، وهذه موعظتى لك ووصيتى إيّاك، فاقبلْها تحمد الأمر بقبولها وتفوز باستعمالها والسلام[2].

وبطش سليمان بن عبد الملك الأموى هو وحاشيته كان حافزًا لأن يبرز من بين صفوف المتصوفة، العابد الحر، أبو نصر الطائى فيحمل منسأته ويقتحم على سليمان بن عبد الملك قصره ويقول له: (سأطلق لسانى بما خرست عنه الألسن، تأدية لحق الله تعالى، إنه قد اكتنفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم، وابتاعوا دنياك بدينهم، ورضوا بسخط ربهم، وخافوك فى الله، ولم يخافوا الله فيك، فهم حرب للآخرة وسلم للدنيا، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه، فإنهم لم يألوا الأمانة تضييعًا والأمة كسفًا وخسفًا، وأنت مسئول عما اجترموا، وليسوا مسئولين عما اجترمت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم الناس عند الله غبنًا من باع آخرته بدنيا غيره)[3].

ويقول صاحب شذرات الذهب، تعقيبًا على كلمات الطائى: (لقد كانت تلك الكلمات فى سبيل الله أزكى من الجيوش الواثبة، فقد خنست

---

(١) ذاته، ص٣٣٦.

(٢) ذاته، ص٣٣٧.

(٣) زهر الآداب للحصرى، ج١، ص٢٣٣.

بطانة سليمان ولم ترفع رأسها بشر حتى وفاته)[1].

ودخل الصوفى العابد الإمام الأوزاعى على الخليفة العباسى الثانى المنصور. فقال له، وهو من أدب النصح البليغ: (إنك قد أصبحت من هذه الخلافة بالذى أصبحت به، والله سائلك عن صغيرها وكبيرها، وفتيلها ونقيرها. ولقد حدثنى عروة بن رويم أن رسول الله صلى الله عليهو سلم قال: "ما من راع يبيت غاشًا لرعيته إلا حرم الله عليه رائحة الجنة"، فحقيق على الوالى أن يكون لرعيته ناظرًا، ولما استطاع من عوراتهم ساترًا، وبالقسط فيما بينهم قائمًا، لا يتخوف محسنهم منه رهقًا، ولا مسيئهم عدوانًا، فقد كانت بيد رسول الله جريدة يستاك بها ويردع عنه المنافقين، فأتاه جبريل فقال: يا محمد. ما هذه الجريدة بيدك؟ اقذفها لا تملأ قلوبهم رعبًا – فكيف من سفك دماءهم وشقق أبصارهم، وأنهب أموالهم.

واعلم أن السلطان أربعة: أمير يظلف نفسه وعماله فذلك له أجر المجاهد فى سبيل الله، وصلاته سبعون ألف صلاة، ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف. وأمير رتع ورتع عماله، فذلك يحمل أثقالاً وأثقالاً مع أثقاله. وأمير يظلف نفسه ويرتع عماله، فذاك الذى باع آخرته بدنيا غيره، وأمير يرتفع ويظلف عماله فذاك شر الأكياس[2]. ومن النصائح المفيدة قول ابن عطاء الله السكندرى: (يا عبد الله دينك هو رأس مالك فإن ضيعته ضيعت رأس مالك فاشغل لسانك بذكره وقلبك بمحبته وجوارحك بخدمته واحرث وجودك بالمحارث حتى يجىء البذر فينبت،

---

(١) شذرات الذهب فى خبر من ذهب لابن العماد الحنبلى.

(٢) عيون الأخيار، ج٣، ص٢٣٩، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ومن فعل بقلبه كل ما يفعل الفلاح بأرضه أنار قلبه - مثال ذلك مثال رجلين اشتريا أرضًا قياسًا واحدًا فأخذها الواحد فنقاها من الشوك والحشيش وأجرى بها الماء وبذرها فنبتت وجنى منها وانتفع بها فهذا كمن نشأ فى الطاعة قد أشرقت أنوار قلبه، وأما الآخر فإنه أهملها حتى نبت فيها الشوك والحشيش وبقيت مأوى للأفاعى والحيات فهذا قد أظلم قلبه بالمعاصى[1].

وكتب الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى إلى السلطان الغالب بأمر الله ينصحه ويوجهه، وكان السلطان قد بعث إليه برسالة سنة تسع وستمائة، وجاء فى رسالة ابن عربى: (بسم الله الرحمن الرحيم، وصل الاهتمام السلطانى الغالب بأمر الله، أدام الله عدل سلطانه، إلى والده الداعى له، محمد بن عربى، فتعين عليه الجواب بالوصية الدينية، والنصيحة السياسية الإلهية، على قدر ما يعطيه الوقت، ويحتمله الكتاب، إلى أن يقدر الاجتماع ويرتفع الحجاب)[2].

إلى أن يقول: (فاحذر أن أراك غدًا بين أئمة المسلمين من أخسر الناس أعمالاً الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، ولا يكون شكرك لما أنعم الله به عليك من استواء ملكك بكفران النعم، وإظهار المعاصى، وتسليط النواب السوء بقوة سلطانك على الرعية الضعيفة، فإن الله أقوى منك، فيحتكمون فيهم بالجهالة والأغراض وأنت المسئول عن ذلك، فيا هذا قد أحسن الله إليك، فأنصف المظلوم من الظالم، ولا يغرنك أن الله وسع عليك

---

(١) تاج العروس للسكندرى، ص٣٨.

(٢) الفتوحات المكية، ج٢، ص

سلطانك، وسوى البلاد لك ومهدها مع إقامتك مع المخالفة والجور وتعدى الحدود، فإن ذلك الاتساع مع بقائك على مثل هذه الصفات، بامهال من الحق لا إهمال، وما بينك وبين أن تقف بأعمالك إلا بلوغ الأجل المسمى، وتصل إلى الديار التى سافر إليها آباؤك وأجدادك. يا هذا ومن أشد ما يمر على الإسلام والمسلمين وقليل ما هم رفع النواميس والتظاهر بالكفر، وإعلاء كلمة الشرك.

وأدب الوعظ في جملته هو من هذا اللون الذى نتحدث عنه وهو أدب النصيحة والوصية، والوعظ وجد منذ وجد الإسلام للحاجة إليه، ولا يعنينا الوعظ هنا، إلا إن صدر من صوفى كبير، فتحمله حينئذ محمل النصيحة والوصية، ومنه ما يقول عمر بن الخطاب: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، فيشرح ذلك الإمام الغزالى فيقول: إنما حساب المرء لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت ويتدارك ما فرط من تقصيره حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة: فهذا يدخل الجنة بغير حساب. وإن مات قبل رد المظالم أحاط به خصماؤه: فهذا يأخذ بيده، وهذا يقبض على ناصيته، وهذا يتعلق بلبلبه، وهذا يقول ظلمتنى، وهذا يقول شتمتنى، وهذا يقول استهزأت بى، وهذا يقول ذكرتنى فى الغيبة بما يسوءنى وهذا يقول جاورتنى فأسأت جوارى، وهذا يقول عاملتنى فغششتنى وأخفيت عنى عيب سلعتك، وهذا يقول كذبت فى سعر متاعك، وهذا يقول رأيتنى محتاجًا وكنت غنيًا فما أطعمتنى، وهذا يقول وجدتنى مظلومًا وكنت قادرًا على دفع الظالم عنى فداهنت الظالم وما راعيتنى فبينما أنت كذلك وقد أنشب الخصماء فيك مخالبهم، وأحكموا فى تلابيبك أيديهم، وأنت مبهوت متحير من كثرتهم حتى لم يبق فى عمرك أحد عاملته على درهم، أو جالسته فى مجلس إلا وقد

استحق عليك مظلمة بغيبة أو خيانة أو نظر بين احتقار، وقد ضعفت عن مقاومتهم، مددت عنق الزجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم، إذ فزع سمعك نداء الجبار جل جلاله : ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ﴾[1]، لا ظلم اليوم، فعندئذ ينخلع قلبك من الهيبة، وتوقن نفسك بالبوار، وتتذكر ما أنذرك الله تعالى على لسان نبيه حيث قال: ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ﴾[2] فما أشد حزنك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك أموالهم وما أشد حسراتك فى ذلك اليوم إذا وقت ربك على بساط العدل، وشوفهت بخطاب السياسة وأنت مفلس فقير عاجز مهين لا تقدر على أن ترد حقًا أو تظهر عذرًا. فعند ذلك تؤخذ حسناتك التى تعبت فيها عمرك وتنقل إلى خصمائك عوضًا عن حقوقهم[3].

---

(١) سورة فاطر الآية ١٧ .

(٢) سورة إبراهيم الآية ٤٢ .

(٣) الإحياء، ج٤، ص٥٤٦.

التصوف النفسى

إن الحديث عن خطرات النفس تغص به كتب الأدب الصوفىّ ويظهر جليًا فى مؤلفات المتصوفة، ويعد أصلاً لجميع الدراسات النفسية التى ظهرت فى العصر الحديث. فقد كان للوصفية تحليلاتهم الدقيقة للنفس الإنسانية فنرى الصوفىّ "عبد الله التسترى" يتحدث عن اللا شعور الجمعى، أو اللا شعور الكلى، والذى يسميه التسترى (كلية القلب) أو (سويداء القلب) أو (جمهور القلب) وبذلك يكون "التسترى" سبق "يونج" بعشرة قرون كما سبق (الترمذى) و (فرويد) بعشرة قرون أيضًا حين تحدث قبل (فرويد) عن نظريته الثنائية (الحياة والموت)[1]. ولقد كان للقرآن الكريم أثر كبير وواضح فى دراسة النفس الإنسانية لدى الصوفية، فكان القرآن العظيم النبع الصافى لمعرفة النفس لدى الصوفية[2].

وقد وردت النفس فى القرآن الكريم للدلالة على معانٍ متعددة كما تحدث الله عز وجل فى القرآن الكريم عن النفس حديثًا عظيمًا رائعًا فيقول الله عزل وجل ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[3] ومن الأمثلة على استعمالها للدلالة على الإنسان ﴿واتقوا يومًا لا تجزى نفس عن نفس شيئًا﴾[4] وقوله سبحانه ﴿أنه من قتل نفسًا بغير نفس أو فساد

---

(١) التصوف النفسى للدكتور/ عامر النجار، ط. دار المعارف، سنة ١٩٨٣م، ص٦ بتصرف.

(٢) ذاته، ص٣٩.

(٣) الملك، آية ١٤.

(٤) البقرة، آية ٤٨.

في الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا﴾[1] وقوله عز وجل ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾[2]. كما وردت للدلالة على الذات الإلهية مثل قوله تعالى ﴿اصطفيتك لنفسى﴾[3] وقوله عز من قائل ﴿قل الله كتب على نفسه الرحمة﴾[4] كما ورد استعمالها للإشارة إلى طوية الإنسان وضميره فى قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[5] وقوله سبحانه ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾[6] وللدلالة على أصل واحد للبشر مثل قوله تعالى ﴿الذى خلقكم من نفس واحدة﴾[7] كما وردت أيضًا فى القرآن الكريم كتعبير عن ماهية الإنسان مع تقسيم للنفس الأمارة بالسوء، والنفس اللوامة، والنفس المطمئنة، فقال تعالى ﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾[8] وقوله سبحانه : ﴿وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء﴾[9] وقوله عز وجل ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية﴾[10] وقوله سبحانه ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى﴾[11] وقال

---

(١) المائدة، آية ٣٢.

(٢) يوسف، آية ٣٢.

(٣) طه، آية ٤١.

(٤) الأنعام، آية ١٢٢.

(٥) الرعد، آية ١١.

(٦) ق، آية ١٦.

(٧) النساء، آية ١.

(٨) القيامة، آية ٢.

(٩) يوسف، آية ٥٣.

(١٠) الفجر، آية ٢٧.

(١١) النازعات، آية ٤٠.

صلى الله عليه وسلم: "أخوف ما أخاف على أمتى اتباع الهوى، وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسى الآخرة"[1] ومخالفة النفس لدى الصوفية رأس العبادة وقد سئل المشايخ عن الإسلام فقالوا: (ذبح النفس بسيوف المخالفة)[2] ولقد كان القرآن الكريم هو النبع الخالص لدى الصوفية لفهم النفس والفرق واضح بين دراسات الصوفية للنفس، ودراسات الفلاسفة (فقد كان هؤلاء يحللون النفس فى حدود المنطق والعقل. بينما كان الصوفية يزيدون على ذلك بأن يربطوا العقلية المجردة بالعقلية الدينية، وإذا كان الوازع عند الفلاسفة هو العقل فإن الوازع عند الصوفية هو العقل والوجدان، وهذا ما دعا إلى اهتمامهم البالغ بالدراسة النفسية التحليلية، وعنايتهم بالنية والسلوك)[3] ويعرف القشيرى النفس لدى الصوفية فيقول: (ليس المراد من إطلاق لفظ النفس عند القوم)، النفس الشىء فى اللغة وجوده ويقول صاحب الأمالى فى التعريف اللغوى (نفس الإنسان وغيره من الحيوان التى إذا فقدها خرج عن كونه حيًا[4]، وعند القوم، ليس المراد من إطلاق لفظ النفس الوجود، ولا القالب الموضوع، إنما أرادوا بالنفس، ما كان معلولاً من أوصاف العبد ومذمومًا من أخلاقه وأفعاله[5].

---

(١) رواه ابن عدى عن جابر بسند ضعيف.

(٢) الرسالة القشيرية، ج١، ص٤٤٠.

(٣) الدراسات النفسية عند المسلمين للدكتور عبد الكريم العثمان، ص٢٢، وأيضًا التصوف النفسى للدكتور عامر النجار، ص٤١.

(٤) الأمالى للمرتضى، ج٢، ص٦.

(٥) الرسالة القشيرية، ص٣٠٥، ٣٠٦.

وهنا نجد تمييزًا واضحًا بين النفس والروح فالنفس على حد تعبير القشيرى "لطيفة فى هذا القالب هى محل الأخلاق المحمودة، وتكون الجملة مسخرًا بعضها لبعض والجميع إنسان واحد"[1].

ويدرك الترمذى الحكيم أحد صوفية القرن الثالث البارزين حقيقة النفس فيقول عنها: (أرض شهوانى، ميال إلى شهوة عقب شهوة ومنية على أثر منية، لا تهدأ ولا تستقر، فأعمالها مختلفة لا يشبه بعضها بعضًا، مرة عبودية ومرة ربوبية، ومرة استسلام، ومرة تملك، ومرة عجز، ومرة اقتدار، فإذا ريضت النفس وأديت انقادت)[2]. وأما ذلك الصوفى النفسى العظيم سهل التسترى فيستعمل فى بعض الحالات كلمة "النفس" لتعنى ذات الإنسان الباطنية من غير أن تكون بالضرورة مرتبطة بالطبع الكثيف ولكنه رغم ذلك ما يزال يحتفظ بالتفرقة الحاسمة بين النفس بهذا المعنى السابق وبين قمة الروح الأعلى. وهذه التفرقة تتمثل فى كون النفس تتجه دائمًا إلى إثبات الذات والأنانية الخاصة المتفردة المستقلة بين تسلم الروح ذاتها طبيعيًا إلى الله سبحانه وتعالى[3].

ثم يقول التسترى: (لما أراد الله عز وجل إظهار ملكه ملك النفس ملكه بلا استغناء عنه، وجعلها تدعى ذلك الملك وأمر العبد بمخالفتها).

ونتفق مع رأى الدكتور جعفر الذى يقول فيه: (ويبدو أن اختلاف حديث سهل عن النفس والروح يرجع إلى اختلاف فى وجهة النظر

---

(١) الرسالة القشيرية طبعه صبيح، ص٥٧.

(٢) نوادر الأصول للترمذى، ص٢٠١.

(٣) من التراث الصوفى، ج١، ص١٣٦، ١٣٧، للدكتور جعفر.

باعتبار حالة النفس ذاتها ومدى انسجامها مع الروح، فكثيرًا ما يصرح سهل بأن النفس إذا اتسقت رغباتها مع الروح وأسلمت القياد لها لحقت بها وتنورت وأضحت قريبة جدًا من مقام الروح ذاتها)[1]. وهنا يبرز سؤال وهو هل النفس واحدة أم ثلاث؟ والجواب على ذلك أنه قد وقع فى كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاث أنفس، نفس مطمئنة، ونفس لوامة، ونفس أمارة، وأن من الناس من تغلب عليه هذه النفس، ومنهم من تغلب عليه النفس الأخرى ودليل ذلك قول الله عز وجل ﴿يا أيتها النفس المطمئنة﴾[2].

وبقوله سبحانه ﴿لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾[3] وقوله عز وجل: ﴿وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم﴾[4] والتحقيق أنها نفس واحدة، ولكن لها صفات، فتسمى باعتبار كل صفة باسم. فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها وذلك بعبوديته ومحبته، والإنابة والرجوع إليه، والتوكل عليه، والرضا به، والسكون إليه، فالطمأنينة إلى الله سبحانه هى حقيقة ترد منه سبحانه على قلب عبده تجمعه عليه، وترد قلبه الشارد إليه، حتى كأنه جالس بين يديه يسمع به ويبصر به، ويتحرك به، ويبطش به، فتسرى تلك الطمأنينة فى نفسه وقلبه، ومفاصله، وقواه الظاهرة والباطنة تجذب روحه إلى الله، ويلين جلده، وقلبه ومفاصله

---

(١) ذاته.

(٢) سورة الفجر، آية ٢٧.

(٣) سورة القيامة، آية ١، ٢.

(٤) سورة يوسف، أية ٥٣.

إلى خدمته والتقرب إليه، ولا يمكن حصول الطمأنينة الحقيقية[1] إلا بالله وبذكره، وهو كلامه الذى أنزله على رسوله كما قال سبحانه وتعالى ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب[2]﴾كما أن طمأنينة القلب هى سكونه واستقراره بزوال القلق والانزعاج والاضطراب عنه[3]. ولا يحصل ذلك للعبد إلا باللجوء إلى الله وذكره سبحانه وتعالى وما عدا ذلك مثل الاتكال على البشر، واتخاذهم وسطاء لدى السلاطين والحكام والوجهاء من القوم وذلك للقيام بخدمتهم ومساعدتهم، وتحقيق مآربهم ومطامعهم فى الحياة، فذلك عجز والاطمئنان إلى هؤلاء غرور والثقة بهم عجز. فإذا قضى الله قضاءًا فلا مرد له، فالمطمئن بغير الله منزعج قلق دائمًا، ومضطرب مهما كان جبروت وسلطان من اعتمد عليه ووثق به، فالاطمئنان الحقيقى يكون بالله سبحانه وبذكره عز وجل وبخاصة حين نزول البلايا والنوائب، وحينما تدلهم الخطوب، وتتوالى الكروب.

وأما النفس اللوامة وهى التى أقسم بها سبحانه وتعالى فى قوله (لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة) فهى مختلف فيها فتقول طائفة: هى التى لا تثبت على حال واحدة. وقد أخذوا هذا اللفظ من (التلوّم) وهو التردد فهى نفس كثيرة التلون والتقلب وهى من أعظم

---

(١) الروح لابن القيم، ص٢٦٠، دار مكتبة التربية بيروت لبنان، سنة ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، بتصرف.

(٢) سورة الرعد الآية ٢٨ .

(٣) الروح لابن قيم الجوزية، ص٢٦٠ بتصرف.

آيات الله، فهى مخلوق من مخلوقاته تتلون وتتقلب فى الساعة الواحدة فضلاً عن اليوم والشهر والعام ألوانًا متلونة فهى: تذكر، وتغفل، وتقبل، وتعرض، وتلطف، وتكشف، وتتيب، وتجفو، وتحب، وتبغض، وتفرح، وتحزن، وترضى، وتغضب، وتطيع، وتتقى وتفجر، فهى تتلون كل وقت ألوانًا كثيرة وقالت طائفة إن اللفظة مأخوذة من اللوم يقول الحسن البصرى: إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه دائمًا. يقول ما أردت بهذا؟ لما فعلت هذا؟ كان غير هذا أولى)[1].

وقال غيره هى: نفس المؤمن توقعه فى الذنب، ثم تلومه عليه وهذا اللوم من الإيمان، بخلاف الشقى فإنه لا يلوم نفسه على ذنب بل يلومها وتلومه على فواته، وقالت فرقة أخرى إن هذا اللوم يكون يوم القيامة فإن كل أحد يلوم نفسه إن كان مسيئًا فعلى إساءته، وإن كان محسنًا فعلى تقصيره[2].

وهذه الأقوال كلها حق، ولا تنافى بينها حيث إن النفس موصوفة بهذا كله واللوامة نوعان: لوامة ملومة: وهى النفس الجاهلة الظالمة التى يلومها الله وملائكته.

ولوامة غير ملومة: وهى التى لا تزال تلوم صاحبها على تقصيره فى طاعة الله، مع بذله جهده، فهى نفس غير ملومة.

وأشرف النفوس من لامت نفسها فى طاعة الله، واحتملت ملامة اللائمين فى مرضاته[3]. وأما النفس الأمارة بالسوء فهى النفس

---

(١) ذاته، ص٢٦٦.

(٢) ذاته بتصرف.

(٣) ذاته، ص٢٦٧.

المذمومة التى تأمر صاحبها بكل سوء وهذا من طبيعتها وهجّيراها، ولا يستطيع أحد أن يتخلص من هذه النفس إلا بتوفيق من الله عز وجل كما قال سبحانه حاكيًا عن امرأة العزيز ﴿ وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى ﴾[1]. وقال عز وجل ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدًا ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم ﴾[2] وقال سبحانه لأكرم خلقه عليه، وأحبهم إليه (ولولا ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئًا قليلاً)[3]. وكان النبى ﷺ يعلمهم خطبة الحاجة وهى: (الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل لـــه، ومـــن يضلله فلا هادى له)[4] فترى الشر كامنا فى النفس وهو يوجب سيئات الأعمال. فإن خلّ الله بين العبد ونفسه هلك بين شرها، وما تقتضيه من سيئات الأعمال، وإن وفقه وأعانه نجاه من ذلك كله، وقد امتحن الله عز وجل الإنسان بهاتين النفسين (الأمارة، اللوامة) كما أنه أكرمه بالنفس المطمئنة.

إذن فهى نفس واحدة تكون أحيانًا مطمئنة وأحيانًا لوامة وأحيانًا أمارة بالسوء، وهى غاية كمالها وصلاحها وأيد الله المطمئنة بجنود عديدة فجعل الملك قرينها وصاحبها الذى يليها ويسددها ويقذف فيها الحق ويرغبها فيه ويريها حسن صورته ويزجرها عن الباطل ويزهدها فيه ويريها قبح صورته،و أمدها بما علمها من القرآن والأذكار وأعمال

---

(١) يوسف، آية ٥٣.

(٢) سورة النور، آية ٢١.

(٣) الإسراء، آية ٧٤.

(٤) الروح لابن القيم، ص٢٦٧.

البر وجعل وفود الخيرات ومراد التوفيق تنتابها وتصل إليها من كل ناحية، وأما النفس الأمارة فجعل الشيطان قرينها وصاحبها الذى يليها فهو يعدها ويمنيها ويقذف فيها الباطل ويأمرها بالسوء ويزينه لها ويطيل فى الأمل ويريها الباطل فى صورة تقبلها وتستحسنها[١]، وأما النفس المطمئنة والملك وجنده من الإيمان يقتضيان من النفس المطمئنة التوحيد والإحسان والبر والتقوى والصبر والتوكل والتوبة والإنابة والإقبال على الله وقصر الأمل والاستعداد للموت وما بعده[٢].

---

(١) ذاته، ص٢٦٨، بتصرف.

(٢) ذاته، ص٢٦٩ بتصرف.

بين النفس والروح

اختلف العلماء في النفس والروح: هل هما شيء واحد؟ أو شيئان متغايران؟ ذهب إلى الأولى الجمهور، وصححه ابن القيم والحافظ السيوطي، وصوبه ابن رشد من المالكية، وبه جزم ابن السبكي وغيره وعليه فالنفس والروح مترادفان على معنى اللطيفة الربانية التي بمفارقتها يموت الإنسان. لا يتغيران إلا في التذكير والتأنيث فالنفس مؤنثة وقد تذكر على إرادة الروح، والروح مذكر وقد يؤنث على إرادة النفس. وإلا في أن تسمية تلك اللطيفة الربانية روحًا باعتبار أن بها حياة الجسم، ونفسًا باعتبار شهوتها[1]. ويقول الإمام الغزالي في بيان معنى النفس والروح والقلب والعقل: أن لفظ القلب يطلق لمعنيين أحدهما: اللحم الصنوبري الشكل المودع في الجنب الأيسر من الصدر هو لحم مخصوص وفي باطنه تجويف وفي ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه[2]، ونعني بذلك أنه قطعة لحم لا قدر له وهو من عالم الملك والشهادة، والمعنى الثاني: هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذ القلب الجسماني تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، وهو المدرك العالم العارف من الإنسان، وهو المخاطب، والمعاقب، والمعاتب والمطالب. ولها علاقة مع القلب الجسماني، أما الروح: فهذا اللفظ يطلق على معنيين: أحدهما: جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني فينشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن، وجريانه في البدن وفيضان أنوار الحياة، والحس والبصر، والسمع والشم منها على

---

(١) الحياة البرزخية من الموت إلى البعث تأليف محمد عبد الظاهر خليفة، دار الاعتصام، ص١٦٣.

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي، ج٣، ص٣.

أعضاءها يضاهى فيضان النور من السراج الذى يدار فى زوايا البيت، فإنه لا ينتهى إلى جزء من البيت إلا ويستنير به، فالروح مثالها السراج، وسريان الروح وحركته فى الباطن مثال حركة السراج فى جوانب البيت بتحريك محركه[1]، والمعنى الثاني: هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان وهو المراد بقوله تعالى: ﴿قل الروح من أمر ربى﴾[2]. وهو أمر عجيب ربانى تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك حقيقته، أما النفس فهو لفظ مشترك بين معانٍ كثيرة، والذى يعنينا هنا بعض معانيها الذى يتعلق بموضوعنا، وهو أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة فى الإنسان وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان، فيقولون: لابد من مجاهدة النفس وكسرها وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام "أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك". والمعنى الثاني: هى اللطيفة التى هى الإنسان بالحقيقة، وهى نفس الإنسان وذاته بيد أنها توصف بأوصاف متباينة بحسب اختلاف أحوالها، فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة. قال الله عز وجل: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية﴾ وإذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعترضة عليها سميت "النفس اللوامة"[3] لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره فى عبادة مولاه قال تعالى: ﴿لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾ وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى

---

(١) ذاته، ص٤.

(٢) سورة الإسراء الآية ٨٥ .

(٣) ذاته، ص٤.

الشهوات ودواعي الشيطان سميت "النفس الأمارة بالسوء" قال تعالى: ﴿وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء﴾ وأما العقل: فإنه يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور فيكون عبارة عن صفة العلم الذى محله القلب، وقد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب أعنى تلك اللطيفة. ويقول النبي ﷺ : "أول ما خلق الله العقل"[1] وفي الخبر أنه قال له: "أقبل فأقبل وقال أدبر فأدبر ..." ومن السابقين إلى القول باتحاد النفس والروح (الإمام الغزالى) بل زاد عليهما (القلب، العقل، السر) وقال خمستها بمعنى واحد، ووافقه على ذلك المحققون من الصوفية، ومما يدل على أن النفس تطلق على الروح كما تطلق الروح على النفس، قول النبي ﷺ (إن الروح إذا قبض تبعه البصر) وقول الرسول عليه السلام (ألم تروا الإنسان إذا مات شخص بصره؟ قالوا: بلى. قال: فذلك حين يتبع بصره نفسه)[2]، فالروح والنفس اسمان لمسمى واحد.

وكذلك ما جاء في قصة نومه صلى الله عليه وسلم، ونوم أصحابه في الوادى، وهم راجعون من غزوة خيبر عند صلاة الصبح حتى طلعت الشمس وحميت، وكان قد أمر بلالاً أن يرقب لهم الفجر فنام الجميع، ولما استيقظ الرسول عليه السلام قال: (إن الله قبض أرواحنا). وقال لبلال: (ماذا صنعت بنا يا بلال؟) فقال: "أخذ بنفسي يا رسول الله الذى أخذ بنفسك"[3]. وقد ورد لفظ (الروح) في القرآن الكريم في آيات كثيرة ولمعانٍ متباينة.

(١) ذاته، ص٤.

(٢) ذاته، ص٤.

(٣) الحياة البرزخية من الموت إلى البعث تأليف محمد عبد الظاهر خليفة، ص١٦٤.

أولاً: الروح: وهو ما به حياة البدن، وهو السر الإلهى، والأمر الخفى الذى استأثر الله بعلمه سبحانه وتعالى. قال تعالى: ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾[1].

ثانيًا: القرآن العظيم: قال تعالى: ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورًا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾[2].

ثالثًا: الوحى الذى يوحى الله إلى أنبيائه ورسله: يقول سبحانه (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون)[3] وقال تعالى: (رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق)[4] فالروح هنا معناه الوحى.

رابعًا: ومن معانى الروح أيضًا سيدنا (جبريل) عليه السلام: قال تعالى: ﴿وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس﴾[5] والمعنى قوينا عيسى عليه السلام بالروح المقدسة من المعاصى والمخالفات والأقذار، وقال سبحانه ﴿تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر﴾[6] فالروح هنا جبريل عليه السلام، وعطف الروح على الملائكة عطف خاص على عام وقال سبحانه ﴿والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها

(١) سورة الإسراء، الآية رقم ٨٥.

(٢) سورة الشورى، آية رقم ٥٢.

(٣) سورة النحل، آية رقم ٢.

(٤) سورة غافر، آية ١٥.

(٥) سورة البقرة، آية رقم ٨٧.

(٦) سورة القدر، آية رقم ٤.

من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾[1] وقال سبحانه ﴿ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾[2] فالروح فى هاتين الآيتين هو جبريل عليه السلام.

خامسًا: اختصاص سيدنا عيسى عليه السلام بأنه روح من الله تعالى: قال تعالى: ﴿إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾[3] ومعنى روح منه أن عيسى عليه السلام ذو روح من الله أضيف إليه تعالى تشريفًا لسيدنا عيسى عليه السلام.

سادسًا: ومن معانى الروح أيضًا فى القرآن الكريم القوة والثبات والنصر الذى يؤيده الله من يشاء من عباده المؤمنين قال تعالى: ﴿أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه﴾[4].

---

(١) سورة الأنبياء، آية رقم ٩١ .

(٢) سورة التحريم، آية رقم ١٢.

(٣) النساء، آية رقم ١٧١.

(٤) سورة المجادلة، آية ٢١.

ويقول ابن سينا[١] فى النفس[٢] :

هبطت إليك من المحل الأرفــع	ورقـــاء ذات تعـــزز وتمنـــع
محجوبة عــن كـــل مقلة ناظر	وهى التـــى سفرت ولم تتبرقع
وصلـــت علـى كرهٍ إليك وربما	كرهت فراقك وهـى ذات توجع
أنفت وما أنســت فلماو اصلت	ألفت مُجـــاورة الخـــراب البلقع
وأظنها نسيــت عهــود بالحمى	ومنـــازلاً بفراقهـــا لـــم تقنـــع
تبكى إذا ذكرت عهـودًا بالحمى	بمدامـــعٍ تهمـــى ولـم تتقطـــع
وتظل ساجعةً علـى الدِّمَــن التى	دُرست بتكرار الريـــاح الأربــع

البيت الأول : هبطت: نزلت، المحـــل الأرفـــع: عـــالم العقـــول المجردة، ورقاء: الحمامة والمراد بها هنا النفس، والتعزز: التماسك مع تعاظم، والتمنع: شدة الإباء.

والمعنى: أن ابن سينا جرد من نفسه شخصًا يخاطبه. أو أنه سـأله إنسان من أين وصلت النفس إلى البدن؟ فأجاب بقوله: هبطت من المحل الأشرف الأرفع إلى هذا الحضيض الأخص الأوضع وأراد بكونها ذات تعزز وتمنع أن إدراك النفس صعب جدًا لا يتحقق إلا بالاستدلال عليها بآثارها.

البيت الثانى: محجوبة: مستورة، سفرت: ظهرت وكشفت وجهها، ولم تتبرقع: أى لم تلبس البرقع.

---

(١) ابن سينا: هو الرئيس أبو على الحسين بن على بن سينا. ولد فى إحدى قرى بخـــارى سنة ٣٧٥هجرية، وحفظ القرآن وهو ابن عشر سنوات ومهر فى الطب والمنطق وهو ابن ست عشرة سنة.

(٢) الحياة البرزخية من الموت إلى البعث تأليف محمد عبد الظاهر خليفة، ص١٦٨.

والمعنى: أن النفس مع كونها ممنوعة عن الإدراك بالحواس الظاهرة فهى مدركة بالعقل، وظاهرة لكل عاقل من الناس بآثارها.

البيت الثالث: الكره: (بضم الكاف) القهر (وبالفتح) المشقة وقيل: بالفتح الإكراه، وبالضم: المشقة.

والمعنى: أن النفس إنما اتصلت بهذا الهيكل مكرهة مقهورة، وأنها بعد اتصالها ربما كرهت فراقه.

البيت الرابع: أنفت: تعاظمت، والأنس: ضد الوحشة، واصلت: المواصلة ضد المهاجرة، والألفة: الالتئام، والبلقع: الأرض القفر التى لا شيء بها من نبات وماء وغيرهما.

الحمى: (بكسر الحاء) المكان المحفوظ الذى لا يقربه أحد احترامًا لمالكه، لم تقنع: القناعة والمقنع: الرضا بالقليل[1].

تهمى: تسيل، ولم تنقطع: لم تجف. تظل: تدوم، وساجعة أى تغرد الحمامة وتردد صوتها على وجه واحد. والدمن (بكسر ففتح) جمع دمنة وهى ما بقى من آثار الديار ورسومها، أو ما سود منها بالرماد، والمراد بها هنا أجزاء البدن، ومعنى درست: ذهب أثرها، والرياح الأربع المراد بها: الطبائع الأربع. وهى: الحرارة والبرودة والرطوبة به واليبوسة، وفى هذا البيت تصريح (من الناظم كما قال المناوى) ببقاء النفس: أى الروح بعد الموت[2].

---

(١) الحياة البرزخية من الموت إلى البعث تأليف محمد عبد الظاهر خليفة، دار الاعتصام، ص١٦٩.

(٢) ذاته، ص١٧٠، ١٧١.

الحوار:

ومن ألوان النثر الصوفي (الحوار).ويقول ابن منظور: المحاورة (المجاوبة) والتحاور (التجاوب)[1]. قال تعالى: (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير)[2]. ومعنى والله يسمع تحاوركما أي والله جل وعلا يسمع حديثكما، ومراجعتكما الكلام. فالمحاورة: المراجعة في الكلام. مأخوذ من (حار الشيء يحور إذا رجع يرجع ومنه الدعاء المأثور (نعوذ بالله من الحَوْر بعد الكوْر) ومعناه نعوذ بالله من النقصان بعد الزيادة وقيل معناه (نعوذ بالله من فساد أمورنا بعد صلاحها)[3].

قال عنترة العبسي في وصف فرسه:

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلم

وقال تعالى: (قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً)[4] أي قال ذلك المؤمن الفقير وهو يراجع أخاه ويجادله[5].

والمتصوفة يفسرون العبادات تفسيراً روحيًا، حيث يقرنون بمشاعرها وأعمالها مشاعر وأعمالاً وجدانية روحية يجب على من يسلك طريقهم أن يقوم بتأديتها، والحرص عليها وذلك حوار بين الإمام

---

(١) لسانا لعرب لابن منظور مادة (حور) ومختار الصحاح مادة (حور)، ص١٦١.

(٢) المجادلة، آية رقم ١.

(٣) صفوة التفاسير للصابوني، ج٣، ص٣٣٥.

(٤) سورة الكهف، آية رقم ٣٧.

(٥) تفسير الصابوني، ج٢، ص١٩٢.

(الجنيد) وأحد الصوفية وهو: يروى أنه جاء رجل إلى الجنيد بعد أن فرغ من آداء فريضة الحج وقضاء المناسك، فقال له "الجنيد" أرحلت عن جميع ذنبك حين رحلت عن دارك؟ فقال لا. قال: فأنت لم ترحل: ثم قال الجنيد: وبعد كل مرحلة نزلت، حيث تتلبث بالليل، هل قطعت مرحلة إلى الله؟ قال الرجل: لا. فقال الجنيد: فأنت لم تقطع الطريق مرحلة مرحلة. ثم قال الجنيد: وحين لبست ثوب الإحرام في موضعه، هل خلعت صفات البشرية عنك وأنت تخلع ثيابك؟. قال الرجل: لا. قال الجنيد: فأنت لم تحرم! ثم قال الجنيد: وحين وقفت بعرفة هل تأملت في الله لحظة واحدة؟ فقال الرجل: لا. قال الجنيد: فأنت لم تقف بعرفة!. ثم قال الجنيد: وحين أفضت إلى المزدلفة وقضيت مناسكك هل رفضت جميع الأغراض الجسدية؟ قال الرجل: لا. قال الجنيد: فأنت لم تفض إلى المزدلفة! ثم قال الجنيد: وحين طفت بالبيت هل أدركت الجمال الإلهي في بيت الطهر؟ قال الرجل: لا. قال الجنيد: فأنت لم تطف بالبيت. ثم قال الجنيد: وحين سعيت بين الصفا والمروة هل أدركت الصفا والمروة؟ قال الرجل: لا. قال الجنيد: فأنت لم تسع!. ثم قال الجنيد: فلما جئت إلى منى، هل ذهبت عنك جميع المنى؟ قال الرجل: لا. فقال الجنيد: فأنت لم تزر منى. ثم قال الجنيد: فلما وصلت إلى المنحر، ونحرت القربان هل نحرت أسباب متاع الدنيا؟ قال الرجل: لا. فقال الجنيد: فأنت لم تنحر. ثم قال الجنيد: فلما رميت الجمار، هل رميت ما صحبك من أفكار جسدانية؟ قال الرجل: لا. قال الجنيد: فأنت لم ترم الجمار، بل لم تؤد على ذلك حجًا![1].

---

(١) دراسات في التصوف الإسلامي تأليف محمد عبد المنعم خفاجي، ج٢، الناشر مكتبة القاهرة، ص٢٢.

الخاتمة

للصوفية على اختلاف طبقاتهم، وعلى مر العصور أدب إسلامى رفيع، ومجال واسع فى النثر والشعر، وباع طويل فى كلّ أغراض الأدب، ويحتوى أدبهم على عاطفة صادقة، وتجربة عميقة مع المحافظة على الوحدة العضوية للقصيدة، وعلى الفكرة والمضمون مع الاهتمام بالصورة والشكل، بل إن الأدب الإسلامى بدأت تتضح معالمه بعد ظهور الأدب الصوفى والذى يعد من أروع صور الأدب الإسلامى. وإذا أردنا أن ننشىء أدبًا إسلاميًا جديدًا فإنه يتعين علينا أن نبدأ من حيث بدأ الصوفيون أدبهم، وأن نعود إلى القرآن الكريم لنفهم أصول دعوته ونتعرف فى دراسته ، فدراسة الأدب الصوفى تعدّ من الدراسات الصعبة التى يحتاج دارسها إلى التسلّح بالإيمان القوى وتحصين نفسه عقديًا حتى لا يتأثر بما يسمونه بالشطح. فالأدب الصوفى أدب رمزى تكثر فيه الإشارات والتلويح والكنايات والاستعارات والسجع والطباق بصفة خاصة. ونجد أيضًا أن الأدب الصوفى ينم عن شفافية أصحابه وقوة صلتهم بخالقهم وزهدهم فى الحياة الدنيا وتطلعهم إلى الآفاق العليا. فكل ما يرد فى أدبهم من ألفاظ ظاهرها الغزل الحسّى أو خمر أو سكر لا يقصد به ظاهره وإنما هو ستر لمعانيهم الحقيقة وتغطية لأحوالهم فمن كان على منهجهم فطن إليها ومن لم يكن متذوقًا لآدابهم نأى عن التورط فى معانيها. ونجد كذلك أن الشعر الصوفى لم يأخذ من الشعر التقليدى سوى القالب الموسيقى بينما تميز شعراء الصوفية بالتعبير الرمزى الذى يوحى بالفكرة ولا يصرّح بها. فالشّعر الصوفى ليس شعرًا خطابيًا كمعظم الشعر العربى التقليدى. إنما هو شعر أقرب إلى الرومانسية حيث الهيام والوجد والحب وهو يقترب أيضًا من الرمزية الأوربية التى تتخذ الرمز الموضعى الموحى بالعدوى النفسية.

ونجد كذلك أن منهج الصوفية فى المعرفة هو منهج العاطفة والكشف والشهود وليس للدليل والبرهان العقليين عندهم مجال يذكر بل يعتمدون على الذوق الذى يسميه (الغزالى) الحس السادس والذى يميز الإنسان عن سائر الحيوانات ورده الغزالى إلى البصيرة الباطنة والقلب. ولقراءة الأدب الصوفى قراءة خالصة فلا تجدى فيه القراءة الخاطفة بل لابد من أن يقدح القارئ زناد فكره ويغوص وراء المعانى غير مكتف بظاهر اللفظ حتى يتوصل إلى المعانى المقصورة، والمرامى المستهدفة فهو أدب خاص ولمستوى رفيع من الناس.

وفى ختام هذا العمل أشير إلى نقطة مهمة وهى أنه يجب النأى عن القدح فى هؤلاء المتصوفة وأن يكون اللسان عفيفًا ولا يتناولهم إلا بما يليق بهم فهم من طراز فريد ونوع خاص ذلك الذى ترك الدنيا وأقبل على الآخرة بغية الوصال والكشف والمشاهدة.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم وأن ينفع به إنه نعم المولى ونعم النصير .. آمين.

المؤلف

أ.د. على الخطيب الشطورى

أستاذ الأدب والنقد بجامعة الأزهر

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- إحياء علوم الدين، لأبى حامد الغزالى، ط. دار البيان العربى.

٣- الأدب الصوفى، للدكتور محمود فرج العقدة.

٤- الأدب الماركسى، للدكتور جعفر.

٥- الأعلام لخير الدين الزركلى، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط. العاشرة، أيلول/ سبتمبر، ١٩٩٢م.

٦- الاشتقاق لابن دريد، تحقيق عبد السلام هارون.

٧- الأغانى لأبى فرج الأصفهانى.

٨- البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، ط. محب الدين الخطيب، ١٩٣٢م، القاهرة.

٩- التصوف الإسلامى، أحمد توفيق عياد، الأنجلو المصرية، ١٩٧٠م.

١٠- التصوف عند المستشرقين، العدد ٢٧ من سلسلة الثقافة الإسلامية بالقاهرة، للدكتور أحمد الشرباصى.

١١- التصوف فى الشعر العربى، عبد الحكيم حسان.

١٢- التصوف النفسى، للدكتور عامر النجار، ط. دار المعارف، ١٩٨٣م.

١٣- الحياة البرزخية من الموت إلى البعث، تأليف محمد عبد الظاهر خليفة، ط. دار الاعتصام، غرة شهر ربيع الأول ١٣٩٣هـ أبريل ١٩٧٣م.

١٤- التصوف الإسلامى لزكى مبارك.

١٥- الخطط للمقريزى.

١٦- الدراسات النفسية عند المسلمين للدكتور عبد الكريم العثمان.

١٧- الرسالة القشيرية للإمام أبى القاسم عبد الكريم القشيرى تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف.

١٨- الروح لابن القيم الجوزية، دار مكتبة التربية، بيروت، لبنان ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

١٩- اصطلاح الصوفية لابن عربى، ط. الأولى، ١٣٦٧هـ، ١٩٤٨م، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، ورد هذا الكتاب ضمن رسائل ابن عربى، ط. إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان.

٢٠- اصطلاحات الصوفية للشيخ كمال الدين عبد الرازق القاشانى.

٢١- الطبقات الكبرى للشعرانى، مطبعة محمد على صبيح بالقاهرة.

٢٢- العمدة لابن رشيق القيروانى، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الجيل بيروت، لبنان، ط. الخامسة، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

٢٣- الفتوحات المكية لابن عربى.

٢٤- الكشاف للزمخشرى.

٢٥- الكشكول للعاملى.

٢٦- اللمع للطوسى، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وطه عبد الباقى سرور.

٢٧- المنقذ من الضلال، للغزالى.

٢٨- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، الطبعة الثالثة، ربيع الأول ١٣٩٢هـ، مايو ١٩٧٠م.
٢٩- المدخل إلى التصوف الإسلامى، تأليف محمود أبو الفيض المنوفى.
٣٠-أمراء الشعر العربى فى العصر العباسى، لأنيس المقدسى.
٣١- ابن الفارض والحب الإلهى، لمحمد مصطفى حلمى، دار المعارف بالقاهرة.
٣٢- أمالى المرتضى.
٣٣- تلبيس إبليس للحافظ الإمام جمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن الجوزى البغدادى، مكتبة الإمام ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.
٣٤- تاريخ الكنيسة المصرية، مجلة الهلال، عدد ديسمبر ١٩٢٧م.
٣٥- تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان.
٣٦- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدى، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.
٣٧- تفسير القرطبى.
٣٨- تاج العروس لابن عطاء الله السكندرى، المطبعة العثمانية المصرية.
٣٩- جدد حياتك، للشيخ محمد الغزالى، ط. دار القلم، دمشق.
٤٠- حسن المحاضرة للسيوطى، المطبعة الشرقية بمصر.
٤١- دراسات فى الأدب الصوفى للدكتور/ محمد عبد المنعم خفاجى، نشر مكتبة القاهرة.
٤٢- ديوان كعب بن زهير.

٤٣- ديوان الحلاج، جمعه الدكتور كامل مصطفى الشيمى، أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة بغداد.

٤٤- شرح الرندى على الحكم، لمحمد بن إبراهيم بن عباد النفرى الرندى الشاذلى المتوفى سنة ٧٩٢هـ.

٤٥- ديوان ابن الفارض، كرم البستانى، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٣٧٦هـ، ١٩٥٧م.

٤٦- دائرة معارف القرن العشرين، للأستاذ محمد فريد وجدى.

٤٧- رسالة الحروف للتسترى.

٤٨- روضة الطالبين وعمدة السالكين لأبى حامد الغزالى.

٤٩- رسائل ابن عربى للشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى الحاتمى، دار إحياء التراث العربى، الطبعة الأولى، ١٣٦١هـ.

٥٠- زهر الآداب للحصرى.

٥١- شرح رشيد بن غالب لديوان بن الفارض، ط. المطبعة الخيرية بالقاهرة.

٥٢- شذرات الذهب فى خبر من ذهب، لابن العماد الحنبلى، مكتبة القدس، ١٣٥١هـ.

٥٣- صحيح البخارى.

٥٤- صحيح مسلم.

٥٥- صفوة الصفوة، مختصر حلية الأولياء لأبى الفرج عبد الرحمن بن على المعروف بابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧هـ.

٥٦- صفوة التفاسير، تأليف محمد على الصابونى، دار القرآن الكريم، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

٥٧- عوارف المعارف للسُهروردى، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف، دار المعارف بالقاهرة.

٥٨- عمر الخيام للشيخ مبشر الطرازى، نشر القاهرة، سنة ١٩٦٠م.

٥٩- عيون الأخبار لابن قتيبة الدينورى، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٦٠- عدة الصابرين لابن قيم الجوزية.

٦١- كتاب اخناتون لعبد المنعم أبو بكر، سلسلة المكتبة الثقافية، عدد ٣٥.

٦٢- لسان العرب لابن منظور، ط. دار المعارف بالقاهرة.

٦٣- مدارج السالكين لابن قيم الجوزية، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابى الحلبى.

٦٤- مذاهب المسلمين فى الكلمة، مجلة كلية الآداب، وتعليقاته على نصوص الحكم لابن عربى.

٦٥- مسند الإمام أحمد.

٦٦- مجلة منبر الإسلام.

٦٧- مختار الصحاح.

٦٨-من التراث الصوفى للدكتور كمال جعفر.

٦٩- نهج البلاغة للإمام على رضى الله عنه، شرح الشيخ محمد عبده، ط. الأندلس، ١٣٧٤هـ، ١٩٥٤م.

٧٠- نهاية الإرب للنويرى.

٧١- نشر المحاسن الغالية فى فضل المشايخ أولى المقامات العالية، للإمام اليافعى.

٧٢-نشأة التصوف للأستاذ عبد الكريم الخطيب، العدد ٢٢ من سلسلة الثقافة الإسلامية.

٧٣- نوادر الأصل فى معرفة أخبار الرسول لأبى عبد الله محمد بن على بن حسن بن بشير المؤذن الحكيم الترمذى.

٧٤- وفيات الأعيان وأنباء الزمان لابن خلكان.

محتويات الكتاب


BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية





